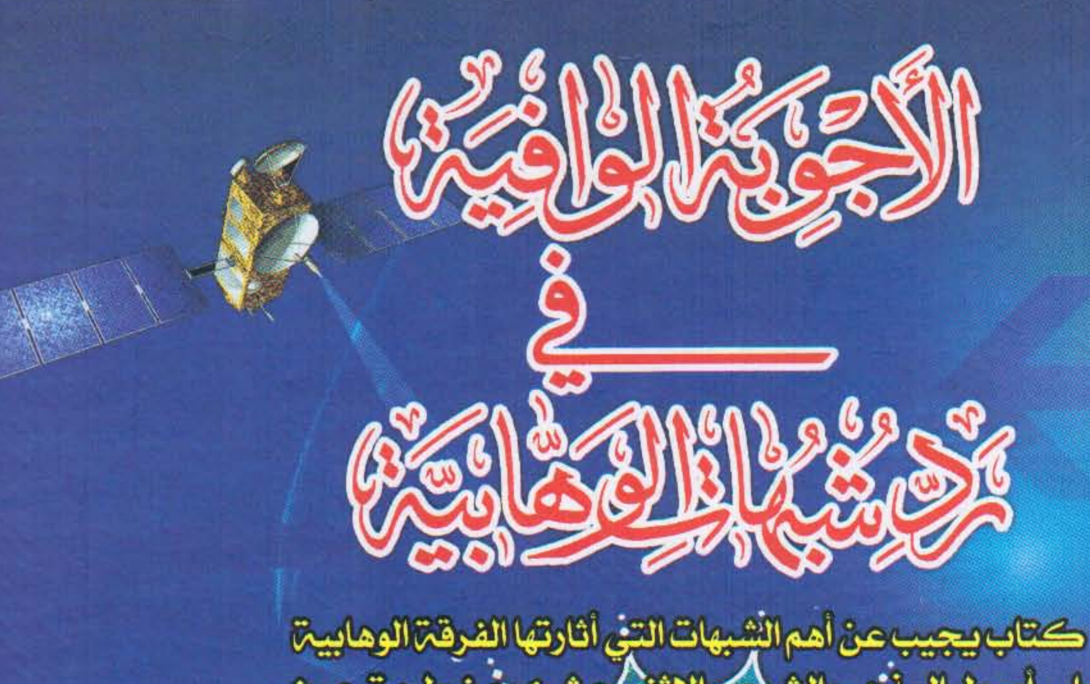


الأجوبة الوافية في رد شبهات الوهابية

كتاب يجيب عن أهم الشبهات التي أثارتها الفرقة الوهابية على أصول المذهب الشيعي الاثني عشري عن طريق عرض سلسلة من الحوارات والمناظرات على بعض القنوات الفضائية



تأليف

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

١ الجزء الأول

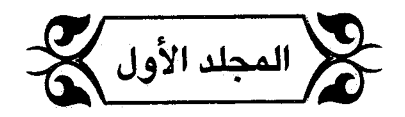
لجنة التأليف

الشيخ قيصر التميمي — الشيخ علي حمود العبادي

الشيخ شاكر عطية الساعدي

بسم الله الرحمن الرحيم





تأليف:

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

الأجوبة الوافية في رد شبهات الوهابية

المجــلد الأول

تأليف: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

لجنة التحقيق: الشيخ قيصر التميمي، الشيخ على حمود العبادى، الشيخ شاكر عطية الساعدى

تصحيح: الشيخ عبد السادة الساعدى والشيخ أمير كاظم حسون

مراجعة و تقويم: السيد حاتم البخاتى و السيد ميثم الخطيب

الناشر: دهكده جهانى آل محمد (ص)

الطبعة الاول: / ۱۴۲۸ هجرى قمرى

التنضيد و الإخراج الفنى: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية / محسن الجابرى

الطبع: اميـران – قم المقدسة

سعر الدوره: ۹۰۰۰ تومان

العدد: ۲۰۰۰

شابک: ۴-۷-۹۴۳۸۸-۹۶۴-۹۷۸

هاتف: ۰۰۹۸-۲۵۱-۷۷۳۰۹۴۴

سايت: www.Annajat.org

العنوان: قـم/الشارع سمية/ زقاق ۱۸/ رقم الدار ۱۵



مقدمة الكتاب

الحوار والمناظرة من الفنون العريقة وذات الجذور المتأصّلة في التاريخ، وقد يصعب على الباحث ـ بحسب ما بحوزته من التراث ـ أن يعطي صورة واضحة عن انطلاقة هذا الفن وبداياته.

ولكن القرآن الكريم أطلعنا على حوار جرى بين الله تعالى وبين ملائكته، حينما أراد أن يخلق الإنسان ويجعله خليفة في الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، فالله تعالى قد فسح المجال أمام الملائكة للإدلاء برأيهم في خلافة الإنسان، وقد افترضوا أن خليفة الله عزّ وجلّ لا يمكن أن يكون مفسداً ولا سفّاكاً للدماء، فأقرّهم الله تعالى على ذلك ولم يبطل حجّتهم، إلاّ أنّه أجابهم من جهة أخرى، وهي أنّهم لم يطّلعوا على الحقيقة كاملة، وأنّ هناك أهدافاً وغايات سامية تترتب على خلافة الإنسان في الأرض قد خفيت عليهم، ولا يحقّ لهم أن يدخلوا الحوار والمناظرة إلاّ عن علم واطلاع، وقد أذعنوا بذلك عندما قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2].

ونفهم من ذلك أنّ الحوار من الأبواب التي فتحها الله تعالى أمام كل

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣١.

مفكر عاقل قادر على إدراك الحقائق والاطلاع على مجريات الأحداث، ومن هذا المنطلق أيضاً نجد أنّ الله تعالى قد أعطى إبليس حرية الرأي وإبداء الملاحظات في المسألة ذاتها مع سابق علمه تعالى ببطلان حجته، وقد حكى لنا القرآن الكريم حواراً ومناظرة استدلالية قد دارت ـ في ذلك الحين ـ بين الله تعالى وبين إبليس عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[(١)].

هذه الحرية في الحوار وإبداء الرأي تعطينا صورة واضحة عن أهمية هذا المبدأ الذي تقوم عليه ركائز العلاقة بين الله تعالى وبين مخلوقاته.

ثم إننا عندما نتابع سيرة الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى لهداية الخلق، نجدها قائمة على التمسك بمبدأ الحوار والحرص على إيصال الرأي الآخر إلى الطرف المخالف، من قبيل ما جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين النمرود، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)].

وهذا ما أمر الله تعالى به نبيّه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

(١) الحجر: ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١].

إذن فالنتيجة التي نخلص إليها أنّ الحوار ومبدأ المناظرة مقدّس ديني وإلهي قبل أن يكون من مقدّسات البشر.

ولكن المؤسف هو أنّ بعض القنوات الفضائية قد أساءت إلى هذا المقدّس الديني والبشري، عندما استضافت للحوار أشخاصاً لا يؤمنون به، بل يرفعون شعار التكفير والقتل والإرهاب بوجه كل من يخالفهم الرأي.

وقناة المستقلّة الفضائية ـ سيئة الصيت ـ من تلك القنوات التي كانت ولازالت تستدعي للحوار المتعجرفين من أتباع الفرقة الوهابيّة الضالّة، من أمثال عثمان الخميس والدمشقية والبلوشي، وغيرهم من التكفيريين، الذين ما فتئوا يكفّرون المسلمين بكافة طوائفهم، مستندين في ذلك إلى حجج واهية أملتها عليهم نفوسهم الضعيفة.

وبهذا أصبحت قناة المستقلّة الفضائية من القنوات المشبوهة؛ إذ ابتعدت عن عنوانها الذي تسمّت به، محاولة ـ بواسطة أولئك الضالّين ـ أن تزرع الحقد والكراهية في نفوس المسلمين، وهدفها من وراء ذلك إثارة النعرات الطائفية، وإحداث الفرقة بين أبناء أمتنا الإسلاميّة الواحدة، مع أن المسلمين في وقتنا الحاضر بأمس الحاجة إلى التماسك والوحدّة، ورصّ الصفوف؛ للوقوف أمام التحدّيات التي يواجهونها.

ومن منطلق الشعور بالمسؤولية كانت مؤسسة الكوثر للمعارف

(١) النحل: ١٢٥.

الإسلامية تتابع ما يجري على تلك القناة عن كثب وحرص شديدين، وكانت تسعى جادّة أيضاً لدراسة هذه الظاهرة الخطيرة والهدّامة، وقد ساهمت في ذلك الحين للعمل على إزاحة الشبهات التي قد تستحدثها أبواق الضلال في نفوس المسلمين.

ولكي تكون هذه المؤسسة المباركة فاعلة في هذا الميدان، ومؤثرة في أداء ما تشعر به من المسؤولية تجاه ما يجري في العالم الإسلامي، بادرت ـ من خلال قسم البحوث والدراسات ـ إلى دراسة أهم الشبهات العقائدية التي أثارها التكفيريون من الفرقة الضالة، ثم تصدّت وبكل جدارة للإجابة عن هذه الشبهات بأجوبة محكمة ورصينة، كشفت القناع عن زيف ما يزعمه المبطلون.

وقد استجاب لإنجاز هذه المبادرة الطيبة كل من فضيلة الشيخ علي حمود الشطري العبادي، وفضيلة الشيخ قيصر التميمي، وفضيلة الشيخ شاكر عطية الساعدي، فجزاهم الله عن الإسلام خيراً، وجعل عملهم هذا خالصاً لوجهه الكريم، ونافعاً في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

وحاولوا في أجوبتهم هذه جاهدين أن يبتعدوا عن لغة السب والتكفير والتجاوز على آراء وعقيدة المذاهب الإسلامية الأخرى، ومعتمدين في كل ذلك على الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، مستنيرين بهدي الكتاب الكريم والسنة النبوية المباركة، التي وردت في الكتب المعتمدة عند أبناء الطائفة السنية.

منهج البحث

لقد التزمنا في الإجابة عن الشبهات في فصول هذا الكتاب منهجاً واضحاً يستند إلى الأساليب العلمية والمعتمدة في مجال البحث والتحقيق، ويمكن تلخيص تلك الأساليب بالنقاط التالية:

١ـ اعتماد التحليل والوصف في عرض الأجوبة، ثم الحكم عليها من خلال نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المباركة.

٢ـ اعتماد المصادر الحديثية والروائية المعتمدة والمعتبرة عند علماء الطائفة السنية.

٣- اعتماد الكتب الرجالية والدرائية في تصحيح طرق الروايات والأحاديث الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والاستناد في توثيق أو تضعيف الرواة على أصح المباني المعتمدة لدى كبار علماء الطائفة السنية.

٤ـ اعتماد أقوال علماء الطائفة السنية من خلال الرجوع إلى أهم المصادر والكتب المعتبرة.

٥ـ الابتعاد عن لغة السب والتكفير والتجاوز على آراء وعقيدة المذاهب الإسلامية الأخرى، معتمدين في ذلك كلّه على الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في سبيل الوصول إلى الحقيقة، بعيداً عن التعصب المذهبي والجدال بالباطل.

خطة البحث

جاء البحث على النحو التالي:

تقسيم البحث إلى جزئيين، وكل جزء يتضمن على عدّة فصول.

وقد تضمن الجزء الأول الفصول التالية:

الفصل الأول: وقد تناول الإجابة عن شبهة عدم الجعل الإلهي للإمامة.

أمّا الفصل الثاني: فقد اختصت الإجابة فيه عن الشبهة القائلة بأن حديث الاثني عشر فكرة يهودية.

وأمّا الفصل الثالث: فقد تضمن الإجابة عن الشبهات الواردة حول الإمام المهدي عليه السلام والفائدة من وجوده وغيبته عليه السلام.

وأمّا الفصل الرابع: فأجبنا فيه عن شبهة استبعاد عصيان الصحابة لما أوصى به الرسول صلى الله عليه وآله.

أما الفصل الخامس: فقد اعتنى بالإجابة عن الشبهة القائلة بوجود النص على خلافة أبي بكر.

وأمّا الفصل السادس: فقد خصصناه للإجابة عن شبهة الغلو في مسألة إمامة أهل البيت عليهم السلام.

أمّا الجزء الثاني فتضمن الفصول التالية:

الفصل الأول: وقد كرس للإجابة عن الشبهة القائلة بأن الشعائر الحسينية بدعة.

أمّا الفصل الثاني: فتضمن الإجابة عن الشبهة القائلة بأن التوسل بأهل البيت عليهم السلام شرك.

وأمّا الفصل الثالث: فهو يجيب عن شبهة عدم مشروعية اللعن في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أمّا الفصل الرابع: فقد تصدى للإجابة عن شبهة تحريف القرآن المنسوبة إلى الشيعة.

وأمّا الفصل الخامس: فقد أجاب عن شبهة عدم مشروعية التقية.

وأمّا الفصل السادس: فقد اعتنى بالإجابة عن شبهة عدم مشروعية الزواج المؤقت (المتعة).

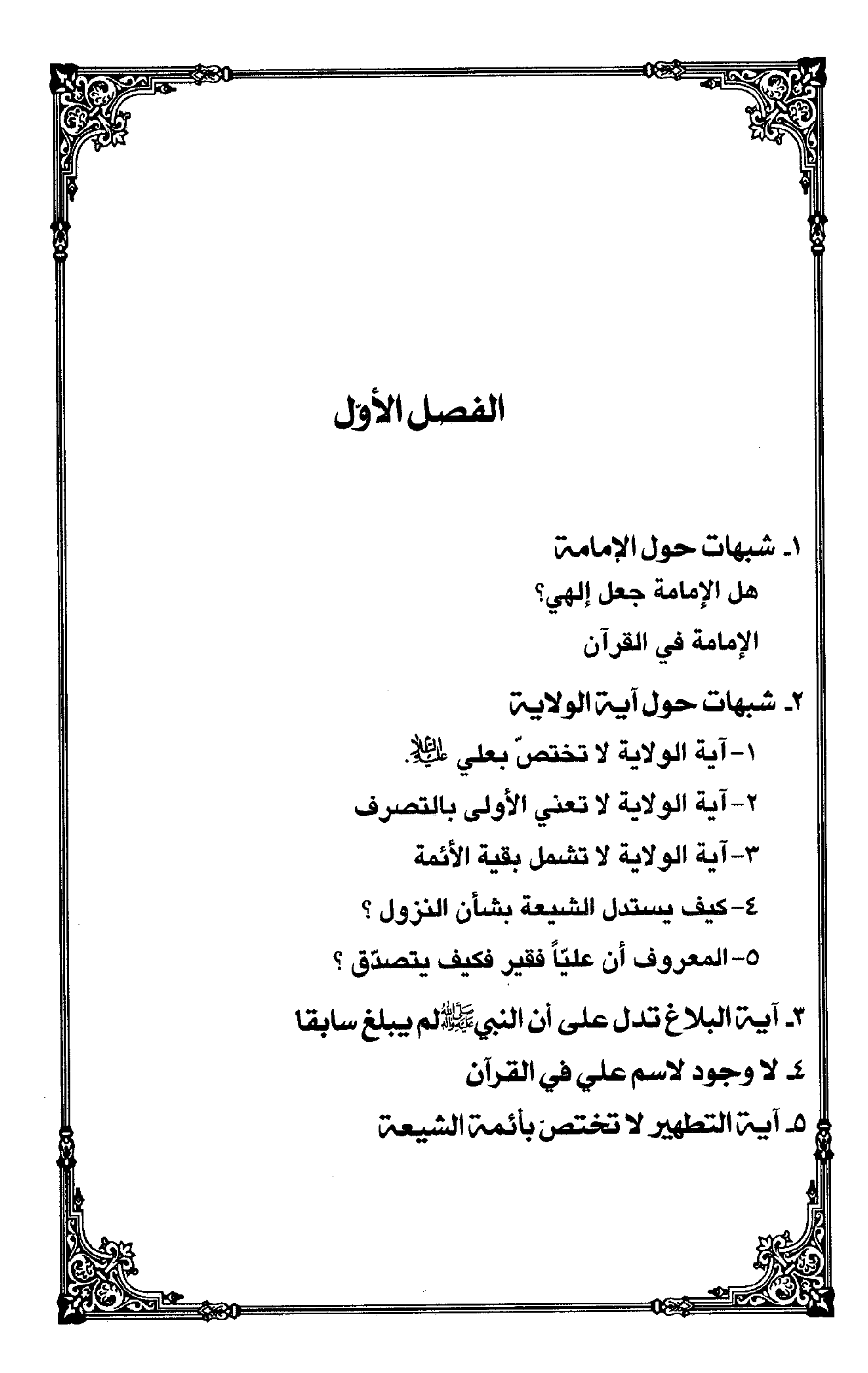
ولا يفوتنا أن نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إنجاز هذا الكتاب، لاسيما الأخ السيد حاتم الموسوي والشيخ فلاح عبد الحسن الدوخي لما بذلاه من جهد ومتابعة.

وأخيراً نرجوا الله تعالى أن نكون قد وفقنا فيما قصدناه من الدفاع عن العقيدة والحرص على وحدة الأمة الإسلامية، والله من وراء القصد.

لجنة التأليف في قسم الدراسات والبحوث

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

٢٥ / ذي القعدة / ١٤٢٨هـ



الفصل الأول

١ـ شبهات حول الإمامة

هل الإمامة جعل إلهي؟

الإمامة في القرآن

٢ـ شبهات حول آية الولاية

١-آية الولاية لا تختصّ بعلي عليه السلام.

٢-آية الولاية لا تعني الأولى بالتصرف

٣-آية الولاية لا تشمل بقية الأئمة

٤-كيف يستدل الشيعة بشأن النزول ؟

٥-المعروف أن عليّاً فقير فكيف يتصدّق ؟

٣ـ آية البلاغ تدل على أن النبي صلى الله عليه وآله لم يبلغ سابقا

٤ـ لا وجود لاسم علي في القرآن

٥ـ آية التطهير لا تختص بأئمة الشيعة

هل الإمامة جعل إلهي؟

الشبهة:

إنّ الإمامة غير مجعولة من الله تعالى؛ لأنها لو كانت كذلك فإما أن يكون المراد منها الحكومة أو الهداية، مع أننا نعلم أن الأئمة لم يحكموا، إلاّ الإمام علي والحسن، وإن كانت الإمامة هي إمامة هداية فأين آثارهم وأقوالهم ؟

الجواب:

ينبغي لكل إنسان أن يؤسس عقيدته على قواعد معرفية صحيحة؛ لأن العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا يزيده سرعة السير إلا بعداً[1].

وكما قال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2].

وعلى ضوء ذلك يجب علينا أن نعي ونتفهم بيانات القرآن الكريم جيداً، الذي هو تبيان لكل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[3].

ومن أبرز المفاهيم التي أولاها القرآن الكريم عناية خاصة، هي مسألة الإمامة، وقد طفحت النصوص القرآنية بذكرها والتأكيد عليها، والمهمة ذاتها تنهض بها النصوص النبوية الشريفة.

فالقول بأن الإمامة لا ذكر لها في القرآن، أو أنها لا فائدة منها، أو لا

(١) انظر: أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني: ج١ ص٤٣.

(٢) فاطر: ١٠.

(٣) النحل: ٨٩.

معنى لها، أو غير ذلك، لا يستبطن إلا الجهل بالقرآن الكريم.

وقبل الدخول في البحث ـ الذي نستهدف فيه إعطاء لمحة تصورية عامة عن الإمامة في القرآن الكريم ـ نبدأ بتقديم نقطة منهجية تساهم في إيضاح المطلوب، ضمن العناوين التالية:

الإمامة جعل وعهد إلهي

عندما نقف على نصّ قرآني واحد يلتقي في الدلالة على المطلوب مع عدّة نصوص قرآنية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، نجد أنه يكشف وبكل وضوح عن كون الإمامة عهداً وجعلاً واصطفاءً واختياراً من الله تعالى لذلك الإنسان الذي يرى الله عزّ وجلّ فيه القابلية والاستعداد لتسنمه هذا المنصب الإلهي.

من ذلك يتضح أنّ الرؤية القرآنية للإمام الهادي أن يكون بجعل وعهد من الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[5]، وقوله تعالى:

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) السجدة: ٢٤.

(٤) الأنبياء: ٧٣.

(٥) الفرقان: ٧٤.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[(١)].

الإمامة غير النبوة:

وكذلك تكشف الآية المباركة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ عن أن الإمامة غير النبوة، ومما يؤكّد هذا المعنى:

أولاً: أن نبي الله إبراهيم عليه السلام مُنِحَ هذا المقام بعد تعرّضه لسلسلة من الابتلاءات والاختبارات، وكان ذلك في أواخر عمره الشريف؛ لأنه طلبها لذريته، وهو لا يتناسب إلا مع حصول الذرية له، وتجاوزه مرحلة الشباب والفتوة خصوصاً وأنه عليه السلام لم يُرزق الذريّة إلا بعد فترة مديدة من الزمن تجاوز فيها تلك المرحلة، في حين أنه عليه السلام عندما أعلن دعوته كان شاباً يافعاً، كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[(٢)].

ثانياً: إن اسم الفاعل في ـ الآية المباركة ـ «جاعل» لا يعمل في المفعول «إماماً» إلا إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال، ولا يعمل في الماضي، وحيث إن النبوة كانت ثابتة مسبقا لإبراهيم عليه السلام، فلابد أن يكون إعطاء الإمامة لإبراهيم عليه السلام في الحال أو الاستقبال، أي بعد نبوته[(٣)].

وبالتأمل في حصيلة ما ذكرناه يحصل الاطمئنان بأن منصب الإمامة أُعطي لإبراهيم بعد أن كان رسولاً نبياً، ولم يكن إماماً.

---

(١) القصص: ٥.

(٢) الأنبياء: ٦٠

(٣) شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاسترابادي: ج٣ ص٤١٥.

أهمية الإمامة واستمرارها

إنّ الإمامة والهداية الإلهية استمرار وامتداد لمهام الرسالات السماوية، المتمثلة بذكر تفاصيلها وبيان مبهماتها ومحكمها ومتشابهها وتفعيلها في الأمة وغير ذلك؛ وذلك لأن عُمر الرسول عادة يكون أقصر من عمر الرسالة، ومن هنا فقد تستمر الرسالة من خلال الأنبياء التابعين للرسل من أولي العزم، أو من خلال الأئمة والأوصياء عندما تنقطع النبوة ويرتفع الوحي، كما في الرسالة الخاتمة، فلابد من بقاء الهداية واستمرارها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]، وذلك هو مفاد آيات البلاغ والولاية وحديث الثقلين وحديث الاثني عشر وحديث لا تخلو الأرض من حجّة وغيرها، فيكون الإمام هو الهادي للأمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، ولا تقتصر إمامته على عصر دون آخر، وإنما هي دائمة مستمرة، وهذا ما يمليه عليه موقعه من الدين الإسلامي، وكونه هادياً للأمة بجعل رباني دائم؛ لا أنه أمر مؤقت يتعلق بمقطع خاص من الزمان والمكان، وإنما هو سنة إلهية ثابتة، وحجة لله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قوم هَادٍ﴾[٢].

قال الآلوسي في تفسيره: «ولم تزل تلك الخلافة في الإنسان الكامل إلى قيام الساعة وساعة القيام، بل متى فارق هذا الإنسان العالِم مات العالَم؛ لأنه الروح الذي به قوامه، فهو العماد المعنوي للسماء، والدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه، ولما كان هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته، صحّت له الخلافة وتدبير العالم، والله

---

(١) الزخرف: ٢٨.
(٢) الرعد: ٧.

سبحانه الفعّال لما يريد ولا فاعل على الحقيقة سواه»[1]، ويلتقي هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا منهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُوْنَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[3]، ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره السيوطي في تفسيره، قال: (أخرج ابن مردويه عن برزة الأسلمي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾، ووضع يده على صدر نفسه، ثم وضعها على صدر علي عليه السلام ويقول: ﴿ولكُلِّ قومٍ هادٍ﴾)[4]، وفي موضع آخر عن ابن جرير وابن مردويه و... أنه قال: «وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، فقال: أنا المنذر، وأومأ بيده إلى منكب علي رضي الله عنه فقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»[5]، وأخرج الحاكم في المستدرك: (عن علي: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾، قال علي: رسول الله المنذر، وأنا الهادي، ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)[6].

إذن تبيّن من جميع ما تقدم ضرورة وجود الإمام الهادي في كل زمان، وهذا ما أجمع عليه المسلمون كافة إلا أنهم اختلفوا في أن الإمام

---

(١) روح المعاني، الآلوسي: ج١ ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) السجدة: ٢٤.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٤ ص٦٠٨؛ وكذا ما في شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٣٨٦؛ وجامع البيان، محمد بن جرير الطبري: ج١٣ ص١٤٢؛ وقال الشوكاني في فتح القدير: ج٣ ص ٧٠، (وصححه ابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب).

(٥) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٤ ص٦٠٨ .

(٦) لاحظ: جامع البيان، محمد بن جرير الطبري: ج١٣ ص١٤٢؛ الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٤ ص٦٠٨؛ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص ١٣٠.

الذي يخلف الرسول صلى الله عليه وآله، هل هو بجعل ونص إلهي أم لا ؟ وقد صرح بذلك ابن حجر المكي في (صواعقه)، حيث قال: «اعلم أيضاً أن الصحابة (رضوان الله عليهم) اجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب... واختلافهم في التعيين لا يقدح في الإجماع المذكور»[١].

عصمة الإمام

كذلك كشفت الآية المباركة: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢] النقاب عن قاعدة أساسية وسنة إلهية مُحكمة، وهي أن العهد والجعل لا ينال الظالمين، ومن الواضح أنّ إطلاق (الظالمين) شامل لكل ظلم، سواء كان على الغير أم على النفس، وشامل أيضاً لكل معصية صغيرة أو كبيرة ارتكبها الإنسان في بعض مراحل حياته، ومن أظهر مصاديق الظلم هو الشرك بالله تعالى وعبادة غيره، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣]، فإذا انطبق عليه عنوان الظلم يكون غير صالح لهذا المقام الإلهي.

وبذلك اتضح أن الإمام ـ بعد كون إمامته مجعولة من الله عزّ جلّ ـ لابد أنّ يكون معصوماً، وهذا الشرط وهو العصمة قد أكدته آية التطهير، وحديث الثقلين وغيرهما، حيث دلّت على عصمة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

---

(١) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص١٥.

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) لقمان: ١٣.

دور الإمام في الأمة

وانطلاقاً من تسالم المسلمين على أن رسول الله ﷺ كان يشغل جميع مناصب القيادة والإمامة من الحكومة السياسية، والمرجعية الدينية والفكرية والقضائية والإجرائية وغيرها، فالولاية الثابتة لرسول ﷺ شاملة لجميع تلك المناصب، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والذي ينهض بأعباء هذه المهمة بعد الرسول ﷺ، هم أهل بيته عليهم السلام، الذين نصبهم ﷺ، وجعلهم هداة من بعده، وأمر المسلمين بالتمسك بهديهم، كما نصّ على ذلك حديث الغدير، الذي جاء فيه قول الرسول الأكرم ﷺ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من ولاه وعاد من عاداه»[1]، وكذا ما جاء في حديث الثقلين، عن رسول الله ﷺ قال: «أنا تاركٌ فيكم الثقلين: أولاهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فاخذوا بكتاب الله واستمسكوا به وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»[2]، ليُكملوا مسيرته ﷺ وترشيد

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج١ ص٨٤، ص١١٨، ص١١٩، ص١٥٢، ج٤ ص٢٨١، ص٣٧٠، ص٣٧٢، ج٥ ص٣٤٧، ص٣٦٦، ص٣٧٠؛ سنن ابن ماجه: ج١ ص٤٣؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٢٩٧؛ المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٠٩-١١٦، ص١٣٤، ص٣٧١، ص٥٣٣؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٧ ص١٧، ج٩ ص١٠٤؛ وقال فيه: (عن سعيد بن وهب... راوه أحمد ورجاله رجال الصحيح)؛ فتح الباري: ج٧ ص٦١؛ وقال فيه: (فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان)؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص٣٧٦ وما بعد، وغير ها من المصادر الكثيرة جداً، فراجع.

(٢) صحيح مسلم: ج٤ ص١٨٧٣ ح٢٤٠٨؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١ ص١٧٠، قال الهيثمي: رواه الطبري في الكبير ورجاله ثقات؛ ج٩ ص١٦٢ - ١٦٣؛ الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٣٤١ - ٣٤٢، وقال: (وفي رواية صحيحة: كأني قد دعيت...)؛ تفسير ابن كثير: ج٤ ص١٢٢، قال فيه: (وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم (الحديث)؛ صحيح الترمذي، الألباني: ج٣ ص٥٤٣ ح٣٧٨٨، قال: (صحيح) ؛ وصححه أيضاً في صحيح الجامع الصغير: ج١ ص٨٤٢ ح٢٤٥٧؛ والمصادر في ذلك كثيرة جداً، وبطرق تبلغ حد التواتر، فراجع.

الأمة الإسلامية من بعده، وهدايتها وقيادتها في جميع المجالات، كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن هذا هو ما تقتضيه عصمتهم عليهم السلام، ومع وجود المعصوم لا يحق لغيره التقدم؛ فإن العقل والفطرة السليمة تأبى تقديم من يجوز فيه الخطأ على من لا يخطأ أبداً وهو المعصوم.

وكيف يجوز أن يُقدَّم أحد على إنسان طاعته طاعة الله، ومعصيته معصية الله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني»، قال الحاكم النيسابوري في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1].

وعلى هذا الأساس تكون هداية الإمام المعصوم عليه السلام شاملة لكل المناصب القيادية التي ترتبط بهداية الناس، من المرجعية الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والقضائية، ولا ينحصر دور الإمام في الحكومة السياسية فقط، وهذه نقطة مهمة كانت ومازالت محل التباس في الوعي الإسلامي عند أهل السنة؛ ظناً منهم أن الشيعة تقول بانحصار دور الإمام في الحكم السياسي فحسب، فإذا لم يكن حاكماً لم يكن إماماً، مع أن الأمر ليس كذلك، بل الإمامة قيادة وهداية للأمة في كل مجالات الحياة وعلى جميع الأصعدة، فأهل البيت عليهم السلام الذين ثبتت عصمتهم وشرافة علمهم هم الأجدر والأحق في تسنم تلك المناصب، ولذلك نصب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام من بعده للإمامة بكافّة أبعادها.

ومن ذلك كلّه يتضح أن إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن موقعهم، وهو

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص ١٢١، ص١٢٨؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٣٠٧.

القيادة والحكومة السياسية ـ التي تعتبر أحد أبعاد الإمامة - لا يعني زوال إمامتهم التي ثبتت بجعل إلهي وتنصيب نبوي، بل على الأمة تقديمهم واتباعهم والإقتداء بهم.

ومن هنا نعلم أن الإمامة من المسائل الأساسية في الإسلام وذات مناصب متعددة، ولكن مع ذلك قد يُعتدى على بعض تلك المناصب فيقع التجاوز على حق الإمام المعصوم، كما في الجانب الحكومي والجانب العلمي والقضائي في الأمة، وذلك باستحداث مرجعيات حكومية مزيفة في قبال مرجعية المعصوم الإلهية الحقّة، وقد تحوّل بسبب ذلك نظام القيادة والخلافة في الإسلام إلى قشور لا لباب فيها، لا سيما في العصر الأموي، الذي أصبح الحكم الإسلامي فيه ملكاً عضوضاً لا يحمل من الإسلام إلا اسمه، ولكن هذا لا يعني سقوط ذلك الحق وإيقاف مسيرة الهداية، التي تسير بقيادة أهل البيت عليهم السلام، كما هو الحال في الأنبياء عليهم السلام، فهم هداة للبشرية جمعاء، وإعراض أكثر الناس عنهم لا يسقطهم عن كونهم هداة للبشرية، فالإمامة هداية في كل تلك الجوانب، والإمام يهدي من أراد الهداية والرشاد، وأما الإعراض عن الاستهداء بالإمام المعصوم عليه السلام فلا يعني ذلك إسقاط الإمام عن إمامته وهدايته، ولا يخفى دور أهل البيت عليهم السلام في هداية الأمة والمحافظة على رسالة الإسلام، فضلاً عمّا خلّفوه من تراث ثرٍّ في مختلف العلوم رغم قساوة الظروف وشدتها عليهم عليهم السلام.

وهذا التراث الشيعي زاخر بأحاديثهم وأقوالهم الشاملة لجميع مجالات

الحياة المختلفة، وهذا ما لا يكاد يخفى أيضاً على كبار أعلام أهل السنة، الذين استفادوا من هذا التراث، وقد ورد في حق أئمة أهل البيت شهادات كثيرة من قبل أهل السنة تكشف وتبين فضلهم وعلو منزلتهم وصلاحيتهم للخلافة والإمامة، وكذا تبين دورهم المحوري والفاعل في الأمة، نكتفي بذكر بعضها:

أقوال علماء السنة في حق أهل البيت عليهم السلام

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

إنّ الروايات في فضل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وفضائله في الإسلام كثيرة جداً، تجاوزت حدّ الإحصاء، وقد أُلفت الكتب وسطرت الروايات في ذلك، وقد قال أحمد بن حنبل: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضائل ما جاء لعلي عليه السلام»[1]، وقال ابن حجر في صواعقه: (وهي كثيرة عظيمة شهيرة حتى قال أحمد ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي، وقال إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري لم يرد في حق أحد من الصحابة في الأسانيد الحسان أكثر ما جاء في علي)[2]، ولا يخفى دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الإسلام في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده.

الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام

لا يخفى فضل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ودورهما في

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٠٧.
(٢) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص١٨٦.

الإسلام، ودفاعهما عن شريعة جدّهما صلى الله عليه وآله، وما قاما به من إصلاح في الأمة الإسلامية، ووقوفهما سداً منيعاً أمام كل المحاولات التي تستهدف النيل من الرسالة الإسلامية، لما يحملانه من خصائص، ومميزات، وقد تواترت الروايات في علو شأنهما وسمو مقامهما، كل ذلك جعل لهما الدور الفاعل في التأثير البالغ في المسلمين، سواء على الصعيد الفكري أم الاجتماعي أم غيرهما، كل ذلك في زمن أصبحت الحياة الإسلامية فيه مسرحاً للخلافات، والجرائم والآثام، وأصبحت فيه الحكومة ملكاً عضوضاً يتوارثه بنو أمية فيما بينهم بالقهر والغلبة، وقد انبرى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام في ذلك الحين لمعالجة الواقع المرير، وقد جاء في مجامع أحاديث السنة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حق ابنه الحسن عليه السلام: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]، وقال صلى الله عليه وآله في حق ابنه الحسين عليه السلام: «حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه، الحسن والحسين سبطان من الأسباط»[2].

ولذا قام الإمام الحسين عليه السلام ثائراً على الظلم آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مضحياً بنفسه وأهل بيته في سبيل إعلاء كلمة الحق، طالباً

---

(١) صحيح البخاري: ج٢ ص١٧٩ ح٢٧٠٤؛ الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٢٩١، وغيرها من المصادر الكثيرة جداً من الفريقين.

(٢) التاريخ الكبير، البخاري: ج٨ ص٤١٥ ح٣٥٣٦؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٢٢٤؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٣ ص٣٢ ح٢٥٨٦، ج٢٢ ص٢٧٤؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٥٧٥ ح٣٧٢٧؛ فيض القدير في شرح الجامع الصغير، المناوي: ج٣ ص٥١٣؛ وفي صحيح الجامع الصغير، الألباني: ج١ ص ٦٠١ - ٦٠٢ ح٣١٤٦، قال عن الحديث بأنه، (حسن)، وغيرها من المصادر الكثيرة.

الإصلاح في أمة جده ﷺ عندما لاحظ الممارسات البعيدة عن روح الدين والأخلاق من قبل الحكومة آنذاك حينما اتخذت الإسلام ستاراً لتغطية جرائمها وممارساتها المتهتكة، ولذا قال عليه السلام عندما خرج متوجها إلى الكوفة: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[١]، وقد قال الذهبي في مدحهما وبيان موقعهما القيادي في الأمة عليهما السلام: «فمولانا الإمام علي من الخلفاء الراشدين وابناه الحسن والحسين: فسبطا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك»[٢]، ولا نطيل الحديث في ذلك بعد أن ثبت أنهما عليهما السلام إماما قاما أو قعدا[٣].

الإمام زين العابدين عليه السلام

قال في حقه محمد بن إدريس الشافعي: «هو أفقه أهل المدينة»[٤].

وقال محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨): «... كان له جلالة عجيبة، وحق له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه، وسؤدده وعلمه وتألّهه وكمال عقله»[٥]. وقال أيضاً: «وزين العابدين: كبير القدر، من سادة

(١) مقتل الحسين: الخوارزمي: ص٢٧٣؛ الفتوح، ابن أعثم الكوفي: ج٥ ص٣٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢٠.

(٣) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي: ج١٩ ص٢١٦؛ نقلاً عن أهل البيت، الأستاذ توفيق أبو علم: ص١٩٥، طبعة مطبعة السعادة ـ القاهرة.

(٤) نقله الجاحظ في رسائله: ص١٠٦.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٤ ص٣٩٨.

العلماء العاملين يصلح للإمامة»[١].

وقال ابن حجر العسقلاني:«علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الهاشمي زين العابدين، ثقة، ثبت، عابد، فقيه، فاضل، مشهور، قال ابن عيينة عن الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه»[٢].

وقال ابن حجر في الصواعق: «وأخرج أبو نعيم والسلفي لما حج هشام بن عبد الملك في حياة أبيه أو الوليد لم يمكنه، أن يصل للحجر من الزحام، فنُصب له منبر إلى جانب زمزم، وجلس ينظر إلى الناس، وحوله جماعة من أعيان أهل الشام، فبينا هو كذلك إذ أقبل زين العابدين، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم فقال أهل الشام لهشام، مَنْ هذا ؟ قال: لا أعرفه، مخافة أن يرغب أهل الشام في زين العابدين، فقال الفرزدق: أنا أعرفه، ثم أنشد:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلها
إلى المكارم هذا ينتهي الكرم

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢٠.

(٢) تقريب التهذيب، ابن حجر: ج١ ص٦٩٢.

ينمي إلى ذروة العـز التـي قـصرت
عن نيلهـا عـرب الإسـلام والعجـم

وكذا من أبيات تلك القصيدة:

هذا ابن فاطمـة إن كنـت جاهلـه
بجـــده أنـبياء الله قد ختــموا
فـليس قولك مـن هـــذا بـضائـره
العرب تعرف من أنكـرت والعجـم

ثم قال:

من معـشر حـبهم ديـن وبغـضهم
كفـر وقـربهم منجـي ومعتـصم
لا يـستـطيع جـواد بعـد غايتـهم
ولا يـدانيهم قـوم وإن كرمـوا

فلما سمع هشام غضب، وحبس الفرزدق بعسفان»[1].

الإمام الباقر عليه السلام:

قال في حقه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:«وهو سيد فقهاء الحجاز ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه، وهو الملقب بالباقر، باقر العلم، لقبّه به رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يخلق بعد، وبشر به ووعد جابر بن عبد

(١) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٣٠٣-٣٠٤.

الله برؤيته، وقال: ستراه طفلا، فإذا رأيته فبلغه عني السلام، فعاش جابر حتى رآه، وقال له ما وصى»[(١)].

وقال الحافظ أبو نعيم الإصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: «ومنهم الحاضر الذاكر الخاشع الصابر أبو جعفر محمد بن علي الباقر، كان من سلالة النبوة، وممن جمع حسب الدين والأبوة، تكلم في العوارض والخطرات، وسفح الدموع والعبرات، ونهى عن المراء والخصومات»[(٢)].

وقال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: «قال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحَكَم عنده كأنه مغلوب، يعني بالحكم، الحكم بن عيينة، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه»[(٣)].

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: «سمي بذلك لأنه بقر العلم أي شقه وعرف أصله وعرف خفيه... وهو تابعي جليل، إمام بارع، مجمع على جلالته، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم»[(٤)].

وقال ابن خلكان: «كان الباقر عالماً، سيّداً، كبيراً، وإنما قيل له الباقر

---

(١) رسائل الجاحظ: ص١٠٨؛ جمعها ونشرها حسن السندوبي.

(٢) حلية الأولياء، أبو فرج الأصفهاني: ج٣ ص١٨٠، وكذا بألفاظ مختلفة في البداية والنهاية، ابن كثير: ج٩ ص٣٣٩.

(٣) تذكرة الخواص، الذهبي: ص٣٠٢.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات: ج١ ص١٠٣.

لأنه تبقر في العلم»[١].

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «أبو جعفر الباقر: سيد، إمام، فقيه، يصلح للخلافة»[٢]، وفي هذا المضمون ما قاله صلاح الدين الصفدي[٣].

وقال محمد بن المنكدر:«ما رأيت أحداً يفضّل على علي بن الحسين، حتى رأيت ابنه محمداً، أردت يوما أن أعظه فوعظني»[٤].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: «وهو تابعي جليل، كبير القدر كثيراً، أحد أعلام هذه الأمة، علماً وعملاً، وسيادة وشرفاً»[٥].

وقال الهيتمي في صواعقه بعد أن ذكر علي بن الحسين عليهما السلام ما نصه: «وارثه منهم، عبادة وعلماً وزهادة، أبو جعفر محمد الباقر سمي بذلك: من بقر الأرض، أي شقها... فلذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف، وحقائق الأحكام والحكم واللطائف، ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة، أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل فيه: هو باقر العلم، وجامعه، وشاهر علمه، ورافعه صفا قلبه وزكى علمه وعمله، وطهرت نفسه، وشرف خلقه وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحملها هذه العجالة، وكفاه شرفاً، أن ابن المديني روى عن جابر أنه قال له وهو صغير: رسول الله صلى الله عليه وآله يسلّم عليك، فقيل له وكيف

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان: ج٤ ص٣٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢٠.

(٣)الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي: ج٤ ص١٠٢.

(٤) نقلاً عن تهذيب التهذيب: ج٩ ص٣١٣

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٩ ص٣٣٨.

ذاك ؟ قال: كنت جالساً عنده والحسين في حجره وهو يداعبه، فقال: يا جابر، يولد له مولود اسمه علي، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد، فإن أدركته يا جابر فأقرئه مني السلام»[١].

وقال أبو الحنبلي:«قال عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم علماً عنده، وله كلام نافع في الحكم والمواعظ»[٢].

وقال محمد بن علي الصبان في إسعاف الراغبين: «وأما محمد الباقر رضي الله عنه فهو صاحب المعارف وأخو الدقائق واللطائف، ظهرت كراماته وكثرت في السلوك إشاراته، لقب بالباقر لأنه بقر العلم، أي شقه وعرف أصله وخفيه»[٣].

الإمام الصادق عليه السلام:

نقل عن أبي حنيفة أنه قال: «ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور الحيرة بعث إليّ، فقال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيئ له من مسائلك الصعاب، قال: فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر فأتيته بالحيرة، فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت بهما دخلني لجعفر من الهيبة ما لم يدخل لأبي جعفر، فسلّمت وأذن لي، فجلست، ثم ألتفت إلى جعفر، فقال: يا أبا عبد

(١) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٣٠٤ – ٣٠٥.
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ج١ ص٢٦٠.
(٣) إسعاف الراغبين: ص٢٥٠.

الله، تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة، ثم أتبعها: قد أتانا، ثم قال: يا أبا حنيفة، هات من مسائلك نسأل أبا عبد الله، وابتدأت أسأله، وكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها: كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون: كذا وكذا، ونحن نقول: كذا وكذا، فربما تابعنا، وربما تابع أهل المدينة، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على أربعين مسألة...ثم قال أبو حنيفة: أليس قد روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»(١).

وقال في مختصر التحفة الاثني عشرية:«لولا السنتان لهلك النعمان»(٢)، يعني السنتين اللتين نهل فيهما أبو حنيفة من بحر علم الإمام الصادق عليه السلام.

وقال الحافظ شمس الدين الجزري: «وثبت عندنا أن كلاً من الإمام مالك، وأبي حنيفة رحمهما الله تعالى صحب الإمام أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حتى قال أبو حنيفة: ما رأيت أفقه منه، وقد دخلني منه من الهيبة ما لم يدخلني للمنصور»(٣).

وقال الجاحظ بعد مدح عشرة من أهل البيت عليهم السلام، ومن ضمنهم الإمام الصادق عليه السلام فقال: (ومن الذي يُعد من قريش، أو من غيرهم ما يعدّه الطالبيون عشرة في نَسَق، كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك فمنهم خلفاء... وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا بيوت العجم)(٤).

---

(١) تهذيب الكمال، المزي: ج٥ ص٧٩؛ نشر مؤسسة الرسالة.

(٢) نقلاً عن أسنى المطالب عما في مناقب سيدنا علي بن أبي طالب: ص٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٥.

(٤) رسائل الجاحظ: ص١٠٦.

وقال الذهبي في ترجمة مطوّلة للإمام الصادق عليه السلام في كتابه تاريخ الإسلام، قال في آخرها:«مناقب جعفر كثيرة، وكان يصلح للخلافة، لسؤدده وفضله وعمله وشرفه (رضوان الله عليه)»[1].

وقال أبو عبد الله سلمان اليافعي في كتابه مرآة الجنان، في أحداث سنة (١٤٨هـ)، «الإمام السيد الجليل سلالة النبوة ومعدن الفتوة أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر وجدّه زين العابدين وعمّ جده الحسن بن علي (رضوان الله عليهم أجمعين) وأكرم بذلك القبر وما جمع من الأشراف الكرام أولي المناقب، وإنما لقب بالصادق لصدقه في مقالته وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها، وقد ألّف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله، وهي خمس مائة رسالة»[2].

وقال ابن حجر العسقلاني: «جعفر بن محمد... المعروف بالصادق، صدوق، فقيه، إمام»[3].

قال الملا أبو علي القاري في شرح الشفا:«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني المعروف بالصادق... متفق على إمامته وجلالته وسيادته»[4].

وقال محمد بن عبد الرؤوف المناوي القاهري في الكواكب الدريّة:

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات سنة ١٤١-١٦٠)، الذهبي: ص٩٣.
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ج١ ص٢٣٨.
(٣) تقريب التهذيب، ابن حجر: ج١ ص١٦٣.
(٤) شرح الشفا، أبو علي القاري: ج١ ص٤٣-٤٤.

«جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب... إماماً... وله كرامات كبيرة ومكاشفات شهيرة منها أنه سُعي به عند المنصور، فلما حجّ أحضر الساعي، وقال للساعي أتحلف ؟ قال: نعم، فحلف، فقال: جعفر المنصور حلّفه بما رآه، فقال: قل برئت من حول الله وقوته، والتجأ إلى حولي وقوتي، لقد فعل جعفر كذا وكذا، فامتنع الرجل، ثم حلف فمات مكانه، ومنها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل يصلّي، ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجة بموته، ومنها أنه لمّا بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي في عمه زيد:

صلبنا لكم زيداً على ولم نر مهدياً على الجذع

قال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فافترسه الأسد»[1].

وقال ابن حجر الهيتمي في صواعقه:«ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان»[2].

الإمام الكاظم عليه السلام:

قال في حقه محمد بن إدريس المنذر، أبو حاتم (ت٢٧٧هـ): «ثقة صدوق إمام من أئمة المسلمين»[3].

وقال الفخر الرازي في بيان معنى الكوثر:«والقول الثالث: الكوثر

(١) الكواكب الدريّة: ص٩٤.

(٢) الصواعق، ابن حجر الهيتمي: ص٣٠٥.

(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج٦ ص٢٧٠.

أولاده.... الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام»[١].

وقال ابن حجر الهيتمي قال: «موسى الكاظم: وهو وارثه [أي جعفر الصادق] علماً ومعرفةً وكمالاً وفضلاً، سُمي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم.

وسأله الرشيد كيف قلتم: إنا ذرية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنتم أبناء علي؟ فتلى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢]، [وعيسى] ليس له أب، وأيضاً قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٣] ولم يدعُ النبي صلى الله عليه وآله عند مباهلته النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين (رضى الله عنهم)، فكان الحسن والحسين هما الأبناء»[٤].

وقال خير الدين الزركلي (ت١٣٩٦): «كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجواد»[٥].

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي: ج١٦ ص١٢٥.

(٢) الأنعام: ٨٤-٨٥

(٣) آل عمران: ٦١.

(٤) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٣٠٧-٣٠٨.

(٥) الأعلام، خير الدين الزركلي: ج٧ ص٣٢١.

الإمام الرضا عليه السلام:

قال في حقه ابن حبان (ت ٣٥٤هـ): «وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسن، من سادات أهل البيت وعقلائهم وجلة الهاشميين ونبلائهم... وقبره بسناباذ خارج النوقان مشهور يزار بجنب قبر الرشيد، قد زرته مراراً كثيرة، وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا(صلوات الله على جده وعليه) ودعوت الله إزالتها عني إلا أستجيب لي وزالت عني تلك الشدة، وهذا شيء جربته مراراً فوجدته كذلك، أماتنا الله على محبة المصطفى وأهل بيته (صلى الله عليه وسلام الله عليه وعليهم أجمعين)»[1].

وقال الذهبي (ت٧٤٨هـ) في سير أعلام النبلاء: «علي الرضا الإمام السيد، أبو الحسن، علي الرضا بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي، بن الحسين، الهاشمي العلوي المدني... وكان من العلم والدين والسؤدد بمكان، يقال: أفتى وهو شاب في أيام مالك... وقد كان علي الرضا كبير الشأن أهلاً للخلافة»[2].

وقال أيضاً:«علي بن موسى الرضا كبير الشأن، له علم وبيان، ووقع في النفوس، صيره المأمون ولي عهده لجلالته»[3].

وقال الحاكم النيسابوري في تاريخه: «كان يفتي في مسجد رسول

(١) الثقات، الألباني: ج٨ ص٤٥٦ – ٤٥٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٩ ص٣٨٧-٣٩٢.

(٣) المصدر نفسه: ج١٣ ص١٢١.

الله صلى الله عليه وآله، وهو ابن نيف وعشرين سنة»[١].

الإمام الجواد عليه السلام:

قال في حقه محمد بن طلحة الشافعي:«... عرف بأبي جعفر الثاني، وهو وإن كان صغير السن، فهو كبير القدر رفيع الذكر»[٢].

وقال ابن الجوزي: «كان على منهاج أبيه في العلم والتقى والزهد والجود»[٣].

وقال ابن تيمية: «كان من أعيان بني هاشم معروف بالسخاء والسؤدد، ولهذا سمي الجواد»[٤].

وقال الذهبي:«كان من سروات آل بيت النبي صلى الله عليه وآله »[٥]، وقد أشار إلى فضله وشرفه صلاح الدين الصفدي في مرآة الجنان[٦].

وقال الذهبي أيضاً:«محمد الجواد من سادة قومه»[٧].

وقال ابن الصباغ المالكي:«وإن كان صغير السن، فهو كبير القدر رفيع الذكر، القائم بالإمامة بعد علي بن موسى الرضا»[٨].

---

(١) نقل قوله ابن حجر في تهذيب التهذيب: ج٧ ص٣٣٩.
(٢) مطالب السؤول في مناقب الرسول، كمال الدين الشافعي: ج٢ ص١٤٠.
(٣) تذكرة الخواص، السبط ابن الجوزي: ص٣٢١.
(٤) منهاج السنة، ابن تيمية: ج٤ ص٦٨ .
(٥) تاريخ الإسلام: (حوادث ووفيات سنة ٢١١-٢٢٠)، الذهبي: ص٣٨٥.
(٦) مرآة الجنان، عبد الله بن أسعد المكي: ج٢ ص٦٠ - ٦١.
(٧) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢١.
(٨) الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ابن الصباغ المالكي: ص٢٥٣.

وقال يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠هـ):«محمد الجواد بن علي الرضا أحد أكابر الأئمة ومصابيح الأمة من سادات أهل البيت... توفي وله من العمر (٢٥) سنة وشهر رضي الله عليه وعن آبائه الطيبين الطاهرين وأعقابهم أجمعين ونفعنا ببركتهم آمين»[1].

وقال محمود بن وهيب: «وهو الوارث لأبيه علماً وفضلاً وأجلّ أخوته قدراً وكمالاً»[2].

وقال السيد محمد عبد الغفار الهاشمي الأفغاني: «خاف الملك المعتصم على ذهاب ملكه إلى الإمام محمد الجواد عليه السلام إذ كان له قدر عظيم علماً وعملاً»[3].

الإمام الهادي عليه السلام:

قال في حقه شمس الدين الذهبي في (العبر):«وفيها ـ أي سنة ٢٥٤ هجرية ـ توفي أبو الحسن علي بن الجواد محمد بن الرضا علي بن الكاظم موسى... العلوي الحسيني المعروف بالهادي، توفي بسامراء وله أربعون سنة، وكان فقيها إماماً متعبداً»[4].

وفي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجده عليه السلام يستثمر الفرص لإبداء النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... حيث قال

(١) جامع كرامات الأولياء: ج١: ص١٦٨-١٦٩.
(٢) أئمتنا: محمد علي دخيل: ج٢ ص٢٠٦.
(٣) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي النجفي: ج١٢ ص٤١٧، نقلاً عن كتاب أئمة الهدى: ص١٣٥ـ ط١ القاهرة.
(٤) العبر في أخبار من غبر: ج١ ص٢٢٨؛ وكذا مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ج٢ ص١١٩.

ابن خلكان في وفيات الأعيان: «... وهو أحد الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان قد سُعي به إلى المتوكل، وقيل: إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته، وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه، فوّجه إليه بعدّة من الأتراك ليلاً، فهجموا عليه في منزله على غفلة، فوجدوه وحده في بيت مغلق، وعليه مدرعة من شعر... يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرمل والحصى، فأُخذ على الصورة التي وجد عليها، وحُمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثُل بين يديه، والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل عنه... فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده، فقال: اعفني، ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني منه، فأعفاه وقال: أنشدني شعراً استحسنه، فقال: إني لقليل الرواية للشعر، قال: لابد أن تنشدني، فانشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم
غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم
فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا
أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمةً
من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا[(١)]

وبنفس هذا المضمون قال ابن الوردي في كتابه أخبار من غبر[(٢)]، وكذا أبو صلاح الصفدي[(٣)].

وقال ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة: «قال بعض أهل العلم: فضل أبي الحسن علي بن محمد الهادي قد ضرب على الحرة بابه ومدّ على نجوم السماء أطنابه فما تعدّ منقبة إلاّ وإليه نحلتها، ولا تذكر كريمة إلا وله فضيلتها، ولا تورد محمدة إلا وله تفضلها وجملتها... فكانت نفسه مهذبة وأخلاقه مستعذبة وسيرته عادلة وخلاله فاضلة... جرى على الوقار والسكون والطمأنينة والعفة والنزاهة، والخمول في النباهة على وتيرة نبوية وشنشنة علوية ونفس زكية وهمة عليّة...»[(٤)].

وقال ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: «توفي [الجواد]... وعمره خمس وعشرون سنة... عن ذكرين وبنتين أجلهم علي العسكري... وكان وارث أبيه علماً وسخاءً»[(٥)].

---

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان: ج٣ ص٢٣٨؛ دار الكتب العلمية.
(٢) العبر في أخبار من غبر: ج١ ص٣٦٤.
(٣) الوافي بالوفيات، الصفدي: ج٢٢ ص٧٢ – ٧٣.
(٤) الفصول المهمة: ص٢٧٠.
(٥) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٣١٢.

وقال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب:«... أبو الحسن... المعروف بالهادي كان فقيهاً إماماً متعبداً»[١].

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء:«وكذا ولده الملقب بالهادي شريف جليل»[٢].

الإمام العسكري عليه السلام:

قال في حقه محمد بن طلحة الشافعي:«اعلم أن المنقبة العليا والمزية الكبرى التي خصه الله عزّوجلّ بها وقلده فريدها ومنحه تقليدها وجعلها صفة دائمة لا يبلي الدهر جديدها، ولا تنسى الألسن تلاوتها وترديدها، أن المهدي محمد من نسله المخلوق منه وولده المنتسب إليه، وبضعته المنفصلة عنه»[٣].

وقال ابن الجوزي: «...كان عالماً ثقة»[٤].

وقال ابن الصباغ المالكي: «مناقب سيدنا أبي محمد العسكري دالة على أنه السري ابن السري فلا يشك في إمامته أحد ولا يمتري... واحد زمانه من غير مدافع، ويسبح وحده من غير منازع، وسيد أهل عصره وإمام أهل دهره، أقواله سديدة وأفعاله حميدة... كاشف الحقائق بنظره الصائب، مظهر الدقائق بفكره الثاقب، المحدّث في سره بالأمور الخفيات، الكريم

---

(١) شذرات الذهب، عماد الحنبلي: ج٢ ص٢٧٢.
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢١.
(٣) مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ج٢ ص١٤٨ .
(٤) تذكرة الخواص: ص٣٢٤.

الأصل والنفس والذات تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه بمحمد صلى الله عليه وآله آمين»[١].

وقال العباس بن نور الدين المكي (ت ١١٨٠هـ): «أبو محمد الإمام الحسن العسكري: نسبه أشهر من القمر ليلة أربعة عشر يعرف هو وأبوه بالعسكري، وأما فضائله فلا يحصرها السن»[٢].

وعن الشريف علي بن الدكتور محمد عبد الله فكري الحسيني القاهري:«قال نسبه... ولما ذاع خبر وفاته ارتجت سر من رأى وقامت صيحة واحدة، وعطلت الأسواق، وأغلقت الدكاكين، وركب بنو هاشم والقواد والكتاب والقضاة وسائر الناس إلى جنازته، وكانت سر من رأى يومئذ شبيه بالقيامة»[٣].

وقال الحضرمي الشافعي: «أبو محمد الحسن الخالص بن علي العسكري، كان عظيم الشأن جليل المقدار... ووقع له مع المعتمد لما حبسه كرامة ظاهرة مشهورة»[٤].

وقد جمع مدحهم عليهم السلام الذهبي في عبارة جامعة حيث قال: «إن بني هاشم أفضل القريش، وقريشاً أفضل العرب، والعرب أفضل بني آدم، كما صح عن النبي صلى الله عليه وآله قوله في الحديث الصحيح: إن الله اصطفى بني

---

(١) الفصول المهمة: ص٢٧٩؛ وقال بمضمونه نور الدين السمهودي في كتابه الإتحاف بحب الأشراف.

(٢) حياة الإمام العسكري، القرشي: ص٦٩.

(٣) شرح إحقاق الحق: ج٢٩ ص٦٠- ٦١، نقلاً عن أحسن القصص: ج٤ ص٣٠٤.

(٤) قادتنا كيف نعرفهم، السيد الميلاني: ج٧ ص١١٥، عن وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل: ص٤٢٦.

إسماعيل واصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش»[1].

وقال الذهبي في ترجمته للإمام المهدي المنتظر عليه السلام: «ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة، وأنه صاحب الزمان، وأنه حي لا يموت، حتى يخرج، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

فوددنا ذلك، والله.

فمولانا الإمام علي: من الخلفاء الراشدين، وابناه الحسن والحسين: فسبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدا شباب أهل الجنة، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر، من سادة العلماء العاملين، يصلح للإمامة.

وكذلك ابنه أبو جعفر الباقر: سيد، إمام، فقيه، يصلح للخلافة.

وكذلك ولده جعفر الصادق: كبير الشأن، من أئمة العلم، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى: كبير القدر، جيد العلم، أولى بالخلافة من هارون.

وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن، له علم وبيان، ووقع في النفوس، صيره المأمون ولي عهده لجلالته.

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه.

وكذا ولده الملقب بالهادي: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري. رحمهم الله تعالى»[2].

---

(١) رأس الحسين، ابن تيمية: ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص ١٢٠ - ١٢١.

ومن جميع ما تقدم يتضح ـ لمن له أُذن واعية ـ بطلان المقولة القائلة بأن الإمامة لا فائدة منها، وأن الأئمة الاثني عشر من آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) لم يمارسوا دورهم القيادي في الحكومة وهداية الأمة؛ وذلك لقيام الأئمة بمسؤوليتهم وأداء دورهم في حياة الأمة في الحفاظ على الرسالة وتحصينها ضد التردي والسقوط في الهاوية.

وإن إقصاءهم عن تسلم الحكم لا يعني تخلّيهم عن مسؤوليتهم في تحمل أعباء الإمامة بما لها من أبعاد أُخرى.

تراث زاخر

وأما قول المستشكل: أين هي أقوال أئمة الاثني عشرية ؟

فنقول: ما عليك إلا بمراجعة يسيرة للتراث الشيعي حتى تجده زاخراً بروايات وتوصيات وتوجيهات أهل البيت عليهم السلام في كل المجالات، ولم تقتصر الاستفادة منها على شيعتهم وأتباعهم فقط، وإنما عمت الفائدة لكل الطوائف الأُخرى، كما تقدم.

الخلاصة

١- لا ريب أن الإمامة جعل إلهي كما نصّ على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

٢- من خلال الآية السابقة يتضح أن منصب الإمامة غير منصب النبوة، وذلك من خلال دعاء إبراهيم عليه السلام الذي طلب هذا المنصب لذريته وهو في أواخر عمره الشريف مع أنه كان نبياً في بداية حياته.

٣- استمرار الإمامة في ذرية إبراهيم كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[3]، وممن ذهب إلى هذا القول من أهل السنة القندوزي في ينابيع المودة[4].

وقد أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله على أن الهادي من بعده هو علي عليه السلام.

٤- بمقتضى قوله تعالى ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[5] يتضح أن الإمام المنصوب من قبل الله تعالى لابد أن يكون معصوماً، لأن الظالم لا ينال هذا العهد الإلهي، ومن المعلوم أن المذنب والعاصي ولو مرة في حياته فهو ظالم لنفسه، فلا يشمله العهد الإلهي.

٥- إنّ منصب الإمامة شامل لكل المناصب القيادية التي ترتبط بهداية

(١) البقرة:١٢٤.
(٢) الزخرف: ٢٨.
(٣) الرعد: ٧
(٤) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٣٥٣ – ٣٥٤، ج٢ ص٢٤٨ – ٢٤٩.
(٥) البقرة: ١٢٤.

الناس من المرجعية الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والقضائية ونحوها كما هو الحال في رسول الله صلى الله عليه وآله الذي شغل جميع المناصب القيادية، وعلى هذا الضوء فليس من الصحيح اختزال دور الإمام في القيادة السياسية فحسب، وهذه نقطة مهمة جداً في معرفة الإمام.

٦- ممّا تقدم يتضح أن إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن موقعهم وقيادتهم للجانب السياسي لا يعني تخليهم عن دور الإمامة؛ لأن الإمامة لا يمكن أن تزول لكونها جعلاً إلهياً، فهي ذات أدوار ومناصب متعددة في كل المجالات القيادية في الأمة، كالجانب العلمي وجانب الهداية ونحوها، ومما يشهد لذلك ما خلفوه عليهم السلام من تراث ضخم جداً في مختلف العلوم على الرغم من شدة وقساوة الظروف التي عاشوها.

٧- وردت شهادات كثيرة جداً من أعلام السنة في حق أهل البيت عليهم السلام تبين أفضليتهم وأعلميتهم بين الأمة، وأن لهم دوراً كبيراً في هداية وتوعية الأمة.

الإمامة في القرآن

الشبهة:

عدم وجود الإمامة في القرآن الكريم دعا الشيعة إلى القول بتحريفه.

الجواب:

تمهيد:

إنّ تهمة التحريف التي حاول البعض مراراً وتكراراً إلصاقها بمذهب أهل البيت عليهم السلام، تهمة لا أساس لها من الصحة؛ إذ أن من الحقائق الأساسية الثابتة عند الشيعة أنها لا تقول بالتحريف، وهذا ما نراه واضحاً وجلياً عند مراجعة ما كتبه علماء الشيعة في هذا المجال.

وحاصله: إنّ القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو القرآن ذاته الذي نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وآله.

وكيف يمكن أن يدعي أحد من المسلمين التحريف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

وكيف يدعي أحد من المسلمين التحريف وهو يقرأ ما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»؟ !!.

وكيف تقول الشيعة بالتحريف وقد أمرهم أئمتهم عليهم السلام بترك ما خالف

---

(١) فصلت: ٤٢.

كتاب الله من الروايات، كما ورد ذلك صحيحاً في كتبهم المعتبرة، وعلى سبيل المثال ما ورد: «عن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[1].

فالحكم والفيصل في قبول رواية أو ردها هو كتاب الله تعالى، لحقانيته وعصمته عن الخطأ والتحريف.

ولذا أطبق مشهور علماء الشيعة على أن القرآن جاءنا متواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله منزهاً عن كل نقص وتحريف.

فالسيد الخوئي مثلاً في تفسيره (البيان في تفسير القرآن) يقول: «ومما ذكرناه: قد تبين للقارئ أن حديث تحريف القرآن حديث خرافة وخيال، لا يقول به إلا من ضعف عقله، أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل»[2].

هذه إطلالة سريعة تمهد لنا الدخول في البحث، أمّا البحث المفصّل عن عدم تحريف القرآن الكريم فسيأتي في محلّه الخاص به (عندما نجيب عن شبهة تحريف القرآن).

إذن رمي الشيعة بتهمة القول بتحريف القرآن ينبثق من أصحاب النفوس المريضة والمغرضة، الذين لا يجدون غير الاتهامات والافتراءات ملجأً.

بعد هذا التمهيد المختصر نجيب بما يلي:

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج٢٧: ص١١١.

(٢) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي: ص٢٥٩.

أولا: القرآن ينص على الإمامة

إنّ القرآن لم يفقد هدايته للإمامة لكي نلتجئ إلى القول بتحريفه، بل القرآن يهدي إليها بالصراحة والنص، وقبل أن نطلعك على الآيات التي صرّحت بالإمامة لابد من التنبيه على مفهوم الإمام، وما هو المراد منه في القرآن الكريم ؟، وإليك إيجازاً في ذلك:

عُرِّف الإمام في اللغة: بالإنسان الذي يؤتم به ويقتدى بقوله أو فعله محقّاً كان أو مبطلاً[(١)]، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[(٣)].

أما الإمام الحق في الإسلام فهو الهادي إلى سبيل الله بأمر منه عزّ وجل، سواء كان إنساناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[(٥)].

أم كان كتاباً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور: ج١٢ ص٢٤ – ٢٥.

(٢) الإسراء: ٧١.

(٣) التوبة: ١٢.

(٤) البقرة: ١٢٤.

(٥) الأنبياء: ٧٣.

(٦) هود: ١٧.

ومن حصيلة هذه النصوص القرآنية يتضح أن من شروط الإمام الحق في القرآن الكريم؛ إن كان كتاباً فلابد أن يكون منزلاً من قبل الله تعالى على رسله لهداية الناس، كما كان ذلك شأن كتاب خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، ومن قبله كتاب موسى عليه السلام، وذلك أيضاً شأن سائر كتب الأنبياء عليهم السلام، وإن كان إنساناً فلابد أن تكون إمامته مجعولة من قبل الله تبارك وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2] وكذلك لابد أن يكون هذا الإنسان غير ظالم لنفسه ولا لغيره، أي منزه عن عصيان الله تعالى كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3]، وإطلاق الظالمين شامل لكل ظلم سواء كان على الغير، أو على النفس، وكل معصية صغيرة أو كبيرة تُعد ظلماً لا يصلح مرتكبه لهذا المقام الشامخ، ومن أبرز مصاديق الظلم هو الشرك بالله وعبادة غيره حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4].

وبذلك يتضح أن الإمام في الاصطلاح القرآني هو:

الإنسان المعصوم من الذنوب والمجعول من قبل الله تعالى لهداية الناس.

الكتاب المنزل من قبل الله تعالى على رسله لهداية الناس.

هذا إيجاز، وتفصيله قد ذكر في الجواب عن الشبهة السابقة فراجع.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) لقمان: ١٣.

وإذا اتضح ذلك، نذكر لك جدولة سريعة على سبيل الاختصار لبعض الآيات القرآنية التي هدت وأرشدت إلى الإمام والإمامة، وصرّحت بهما، والتي ترسم وتحدد معالم أطروحة الإمامة في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١]، ومن الواضح من لحن الآية وسياقها أن الله تعالى جعل إبراهيم إماماً في أواخر عمره الشريف، بعد أن كان نبياً ورسولاً وخليلاً، فكيف يقال إن القرآن لا يهدي إلى الإمامة ؟ !!.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢]، فإن هذه الآية تدلّ على أن الإمامة جعل وتنصيب من قبل الله تعالى.

٣- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾[٥]، وهذه الآية تشرح مفهوم الإمامة وتشبعه إشباعا رائعاً، حيث قرنت طاعة أولي الأمر بطاعة الله تعالى، مما يكشف عن أن هذه الولاية

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) السجدة: ٢٤.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) القصص: ٥.

(٥) نساء: ٥٩.

متفرعة عن ولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله، وهي شاهد على أن الولاية والإمامة، وقيادة الناس ليس من صلاحيتهم ولا بتنصيبهم؛ لأن ما هو اللازم عليهم المتابعة والانقياد في ذلك وحسب، وعلى هذا الأساس نقول أيضاً: كيف أن القرآن لا يهدي إلى الإمامة؟!!.

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(١)، وتحتشد في هذه الآية الكريمة دلالات كثيرة لإثبات الإمامة، وبشكل خاص إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا ما نجده واضحاً عندما نرجع إلى مصادر الفريقين في هذا المجال، وملاحظة الروايات الواردة في شأن نزول الآية المباركة(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...﴾(٣)، حيث تكشف هذه الآية بشكل صريح وواضح النقاب عن أهمية وجود الإمام بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وإن عدم وجود الإمام بعد الرسول صلى الله عليه وآله يساوق انتفاء الرسالة ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فلولا الإمامة يغدو كل شيء وكأنه لم يكن، أي لا يبقى نسيج متماسك للإسلام، بل يهوي ويتمزق، وأروع ما يرشدنا

---

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي: ج٣ ص١٠٥ - ١٠٦؛ تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ج٦ ص٤٦٣؛ تنزيل الآيات: ص٥٤؛ التهذيب في التفسير: ج٣ ص١٠٦؛ توضيح الدلائل: ص١٥٨؛ مودة القربى: ص٥٥؛ ينابيع المودة: ج١ ص١١ - ١٢، ص٣٤٧ - ٣٤٨، الفصول المهمة: ص١١٧ - ١١٨؛ تفسير الثعلبي: ج٤: ص٨٠ - ٨١؛ أسباب النزول، الواحدي: ص١٥٣؛ أرجح المطالب: ص٦٧، ص٢٠٣؛ مناقب المغازلي: ص١٨؛ تفسير القرطبي: ج٢ ص٧٣ - ٧٤، وغيرها من المصادر.

(٣) المائدة: ٦٧.

إلى اهتمام القرآن بالإمامة هو التعبير الذي ورد في الآية المباركة بإكمال الدين ورسالة الله تعالى، ورضاه عزّ وجلّ بالإسلام ديناً بعد تنصيب الرسول ﷺ لعلي عليه السلام خلفاً وإماماً بعده، حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[1].

فهذه لمحة عامة تكشف عن اهتمام القرآن بالإمامة، فهل بعد هذا كله يمكن أن يقال: إن القرآن الكريم لا يهدي إلى الإمامة؟!!.

ثانيا: السنة النبوية تنص على الإمامة

إنّ القرآن الكريم أمرنا وبكل صراحة أن نأخذ بما يأمرنا به رسوله الأكرم ﷺ، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾[2]، وذلك لأن النبي الأعظم ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وعلى هذا الأساس فإن هناك الكثير من النصوص الواردة عن الرسول ﷺ التي نلمس منها عمق اهتمامه بالإمامة والخلافة من بعده، وقد طفحت بها كتب الفريقين، كحديث الغدير والثقلين وحديث المنزلة والدار، وغيرها من الأحاديث الكثيرة المتواترة من طرق الفريقين، فراجع.

---

(١) المائدة: ٣.
(٢) الحشر: ٧.

الخلاصة

أولاً: إنّ شبهة القول بتحريف القرآن لا أساس لها من الصحة عند مشهور الطائفة الشيعية الإمامية، وسيوافيك الكلام عنها مفصلاً مشفوعاً بالأدلة القطعية عند الجواب عنها في محلّه.

ثانياً: تبيّن مما تقدم أن القرآن الكريم يهدي بصراحة للإمامة، وبيان معالمها ويحدد أطروحتها بشكل واضح لا غبار عليه.

ثالثاً: إنّ السنة النبوية قد هدى إليها القرآن وأمر بوجوب التمسك بها، وهي بدورها تهدي أيضاً إلى الإمامة بنحو صريح ومفصل ومتواتر.

آية الولاية لا تختصّ بعلي عليه السلام

الشبهة:

إنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1]، لا تدل على ولاية وإمامة علي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأن الآية جاءت بصيغة الجمع (الذين) مع أن أقل الجمع ثلاثة، فكيف تدعي الشيعة أن المراد من الآية هو علي عليه السلام ؟

الجواب:

أولا: كثرة استعمال الجمع وإرادة المفرد في القرآن

إنّ استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد المفرد ورد في القرآن الكريم في موارد متعدّدة: منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[2]، ذكر المفسرون أن المراد به في الآية شخص واحد، وهو نعيم بن مسعود الأشجعي[3]، قال النسفي في تفسيره:«هو جمع أريد به الواحد...»[4]، وقال القرطبي في تفسيره:«واللفظ عام ومعناه خاص كقوله: (أم يحسدون الناس) يعني محمداً صلى الله عليه وآله...»[5]، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾[6]، وقد صح أنَّ القائل به هو

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) آل عمرن: ١٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ج٤ ص٢٧٩؛ تفسير الجلالين، السيوطي: ص٩١.

(٤) تفسير النسفي، النسفي: ج١ ص١٩٢.

(٥) تفسير القرطبي: ج٤: ص٢٧٩.

(٦)المنافقون: ٨.

عبد الله ابن أُبي بن سلول[١]، وهكذا جاء في آية المباهلة، قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٢]، حيث جاء لفظ (أنفسنا) بصيغة الجمع مع إن المراد به واحد، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذا (نساءنا) جاء بلفظ الجمع مع أن المراد منه امرأة واحدة، وهي فاطمة الزهراء عليها السلام، وكذا (أبناءنا) مع أنهما اثنان، وهما الحسن والحسين عليهما السلام[٣]، وكذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾[٤]، فقد ذكر الحسن: (أن قائل هذه المقالة هو يحيى بن أخطب، وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق: هو فنحاص بن عازوراء»[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[٦]، نزلت في رجل من المنافقين: «إما في الجلاس بن سويد، أو في نبتل بن الحرث، أو عتاب بن قشير»[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[٨]، نزلت في صبيح مولى حويطب بن عبد العزى[١]، وغيرها من

(١) جامع البيان: الطبري: ج٢٨ ص١٣٨ ح٢٦٤٦٣؛ تفسير القرطبي: ج٨ ص٢٠٦؛ وغيرها من كتب التفسير الأخرى الكثيرة.

(٢) آل عمران: ٦١.

(٣) صحيح مسلم: ج٤ ص١٨٧١ ح٢٤٠٤؛ تفسير الطبري: ج٣ ص٤٠٤ - ٤١٠؛ تفسير الكشاف، الزمخشري: ج١ ٣٦٨-٣٧٠؛ تفسير القرطبي: ج٤ ص١٠٤؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٠١ - ٣٠٢: ح٣٨٠٨؛ أحكام القرآن، للجصاص: ج٢ ص١١٥؛ فرائد السمطين: ج١ ص٣٧٧: ب٦٩: ح٣٠٧؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٢ ص٥٠٩؛ وغيرها من كتب الفريقين.

(٤) آل عمران: ١٨١.

(٥) انظر تفسير القرطبي: ج٤ ص٢٩٤.

(٦) التوبة: آية ٦١.

(٧) انظر تفسير القرطبي: ج٨ ص١٩٢؛ تفسير الخازن: ج٢ ص٢٥٣؛ الإصابة: ج٣ ص٥٤٩.

(٨) النور: ٣٣.

الاستعمالات القرآنية الكثيرة في ذلك، وعلى هذا الأساس لا مجال للإشكال والاعتراض على التعبير عن الواحد بلفظ الجمع.

ثانيا: استعمال الجمع وإرادة المفرد سائغ في لغة العرب

إن استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد استعمال سائغ في لغة العرب، وليس استعمالاً مستهجناً، لا سيما إذا كان الواحد معظماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[(٣)].

ثالثا: الاعتراض المذكور يتنافى مع الروايات المتواترة

إنّ نفس الاعتراض على التعبير عن الواحد بلفظ الجمع، يتضمن أن لا تكون الآية المباركة ـ آية الولاية ـ نازلة بحق علي بن أبي طالب عليه السلام بالخصوص، وهذا تكذيب ورفض لما تضافر من الروايات من طرق الفريقين في كونها نزلت في حق علي عليه السلام، فقد روى الثعلبي في تفسيره: «بينما عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم إذ أقبل رجل متعمم بالعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله، إلا قال الرجل: قال رسول الله؟ فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ج١٢ ص٢٤٤؛ أُسد الغابة، ابن الأثير: ج٣ ص١١؛ الإصابة تمييز الصحابة، ابن حجر: ج٢ ص١٧٦.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) السجدة: ١٣.

جندب بن جنادة البدري، أبو ذر الغفاري: سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلاّ صمتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا، يقول: علي قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله، أما إني صلّيت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر، فدخل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد، إني سألت في مسجد رسول الله، فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي راكعاً فأومى إليه بخنصره اليمنى، وكان يتختم فيها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي ﷺ فلما فرغ النبي من الصلاة، فرفع رأسه إلى السماء وقال:«اللّهم إن أخي موسى سألك، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[1] الآية.

فأنزلت عليه قرآنا ناطقاً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[2] اللّهم وأنا محمداً نبيك وصفيك، اللّهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أُشدد به ظهري».

قال أبو ذر: فو الله ما استتم رسول الله الكلمة حتى أنزل عليه جبرئيل من عند الله، فقال: يا محمد، إقرأ، فقال: وما أقرأ ؟ قال: إقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3][4].

وفي الدرّ المنثور أخرج عن الطبري في الأوسط وابن مردويه عن

(١) طه: ٢٥ - ٣١.

(٢) القصص: ٣٥.

(٣) المائدة: ٥٥.

(٤) تفسير الثعلبي: ج٤ ص٨٠ – ٨١

عمار بن ياسر قال: «وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأعلمه ذلك فنزلت على النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه، ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه»[1].

وأخرج أيضاً عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله في بيته ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ...﴾ إلى آخر الآية، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فدخل المسجد، جاء والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم يصلي، فإذا سائل فقال: يا سائل، هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: لا، إلا ذاك الراكع ـ لعلي بن أبي طالب ـ أعطاني خاتمه.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سلمة بن كهيل، قال تصدق علي بخاتمه وهو راكع، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾، وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية نزلت في علي بن أبي طالب، تصدق وهو راكع وأخرج ابن جرير عن السدي وعتبة بن حكيم مثله.

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: إذ نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، ونودي بالصلاة صلاة الظهر، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أعطاك أحد شيئاً؟ قال نعم، قال: من؟

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٣ ص١٠٥.

قال: ذاك الرجل القائم، قال: على أي حال أعطاكه؟ قال: وهو راكع. قال: وذلك علي بن أبي طالب، فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذلك وهو يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي رافع قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو نائم يوحى إليه....فاستيقظ النبي صلى الله عليه وآله وهو يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الحمد لله الذي أتم لعلي نعمه، وهيّأ لعلي بفضل الله إياه»[1]، وأخرج هذه الأحاديث أيضاً آخرون[2].

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ج٣ ص١٠٥ وما بعد.

(٢) أخرج بعض تلك الروايات الطبري في تفسيره: ص٣٨٩ - ٣٩٠ من طريق ابن عباس وعتبة بن حكيم ومجاهد.

وهكذا أخرجها الإسكافي في كتابه المعيار والموازنة: ص ٢٢٨.

والزمخشري في الكشاف: ج١ ص٦٤٩، ولم يضعف الحافظ ابن حجر العسقلاني هذه الروايات في حاشيته على الكشاف مع أنه ضعف غيرها.

والواحدي في أسباب النزول: ص١٣٣ من طريقين؛ والرازي في تفسيره: مج٦ ج١٢ ص٢٨ عن عطاء عن عبد الله بن سلام وابن عباس وأبي ذر؛ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة:ص١١٧ - ١١٨.

وسبط ابن الجوزي في التذكرة: ص٢٤ - ٢٥؛ والخوارزمي في مناقبه: ص٢٦٤ - ٢٦٥ بطريقين؛ والقاضي عضد الدين الإيجي في المواقف ج٣ ص٦١٤؛ وفي الذخائر ص١٠٢ من طريق الواقدي وابن الجوزي.

وابن كثير في تفسيره ج٢ ص٧٤ بطريق عن أمير المؤمنين (ع) ومن طريق ابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل عن ابن جرير الطبري بإسناده عن مجاهد والسدي، وعن الحافظ عبد الرزاق بإسناده عن ابن عباس وبطريق الحافظ ابن مردويه بالإسناد عن سفيان الثوري عن ابن عباس، ومن طريق الكلبي عن ابن عباس.

وحديث ابن سعيد الأشج الذي ذكره ابن كثير رواته كلهم ثقات، فالحديث صحيح على المباني الرجالية.

رابعا: الاعتراض غريب لم يعهد من الصحابة ولا من التابعين

بعد أن ثبت أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، فإن الكثير من الناقلين لهذه الأخبار هم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله والتابعين المتصلين بهم زماناً، وهؤلاء من العرب ولم تفسد لغتهم ولم تختلط بغيرها من اللغات بحيث أصبحوا لا يميزون بين الصحيح والسقيم من الاستعمالات اللغوية، ولو كان هذا الاستعمال لا تبيحه اللغة، ولا يعهده أهلها ولم تقبله طباعهم لكانوا أحق بالاعتراض عليه، ولم يؤثر ولم ينقل عن أحد منهم ذلك.

وأخرجه ابن كثير أيضا في البداية والنهاية: ج٧ ص٣٩٤ - ٣٩٥ عن الطبراني بإسناده عن أمير المؤمنين ومن طريق ابن عساكر عن سلمة بن كهيل؛ والصواعق، ابن حجر: ص ٦٣؛ وأحكام القران، لجصاص: ج٢ ص٥٥٨ وقد ذكرها في باب العمل اليسير في الصلاة، وقال: «وقوله تعالى: (ويؤتون الزكاة وهم راكعون) يدل على أن صدقة التطوع تسمى زكاة؛ لأن علياً تصدق بخاتمه تطوعاً»، فأرسل ذلك إرسال المسلمات؛ والآلوسي في روح المعاني: ج٦ ص١٦٧ وقال: (وغالب الأخباريين على أنها نزلت في علي عليه السلام، وقال في: ج٦ ص ١٨٦: (والآية عند معظم المحدثين نزلت في علي كرم الله وجهه)؛ والحاكم النيسابوري في معرفة علوم الحديث: ص ١٠٢؛ والقرطبي في تفسيره: ج٦ ص٢٢١؛ والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج١ ص٢٣٥ – ٢٣٦؛ والزرندي الحنفي في نظم درر السمطين: ص ٨٨؛ والسيوطي في كتابه لباب النقول في أسباب النزول ص٨١، وقال بعد نقل عدة كثيرة من الروايات: «فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً»؛ و في فتح القدير: ج٢ ص٥٣ قال المناوي: «أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس».

ولحسان بن ثابت أشعار في ذلك منها قوله:

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً ... فدتك نفوس القوم يا خير راكعِ
بخاتمك الميمون يا خير سد ... ويا خير شار ثم يا خير بايع
فأنزل فيك الله خير ولايةً ... فبيّنها في محكمات الشرائع

ذكرها الخوارزمي في المناقب: ص٣٩٦؛ وسبط ابن الجوزي في تذكرته: ص٢٥؛ ونظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٨٨.

خامسا: جواب الزمخشري

إنّ هذا التساؤل مطروح قديماً، وقد رده مفسرو أهل السنة كالزمخشري، حيث يقول في معرض جوابه عنه: «فإن قلت: كيف صح أن يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً، ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البّر والإحسان وتفقد الفقراء، حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروه إلى الفراغ منها»[1].

(١) الكشاف، الزمخشري: ج١ ص٦٤٩.

الخلاصة

١- إنّ استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد استعمال سائغ في القرآن في موارد كثيرة.

٢- استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد استعمال سائغ في لغة العرب، لاسيما إذا كان الواحد معظماً، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾.

٣- إنّ الاعتراض على تعبير الآية بلفظ الجمع وإرادة الواحد، يعني إنكاراً لما تسالمت وأجمعت عليه الأمة من نزول الآية بحق علي عليه السلام.

٤- إنّ الناقلين للأخبار الواردة في نزول الآية في حق علي عليه السلام هم من الصحابة والتابعين والمتصلين بهم، وهؤلاء من العرب الفصحاء، فلو كان هذا الاستعمال غير سائغ في اللغة لاعترضوا عليه، مع أنه لم ينقل عن أحد منهم ذلك.

٥- أجاب الزمخشري عن هذا السؤال بأن هذا الاستعمال لأجل ترغيب الناس في مثل هذا الفعل من البر والإحسان والحرص عليه والمسارعة إليه وعدم تأخيره بحيث إن الصلاة أيضاً لا تحول دون فعل الخير إن لزم أمر لا يقبل التأخير.

آية الولاية لا تعني الأولى بالتصرف

الشبهة:

إنّ كلمة المولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] لا تعني الأولى بالتصرف، فلا تدلّ على الإمامة؟

الجواب:

في مقام الإجابة على ذلك، ولإثبات أن معنى الولي هو الأولى بالتصرف لدينا مديات واسعة للاستدلال وعلى كل المستويات، سواء على المستوى اللغوي أم على مستوى الاستدلال القرآني أم الروائي.

الاستدلال على المستوى اللغوي:

عند التدبر فيما ذكره اللغويون من المعاني المتعددة لكلمة المولى، يتجلّى لنا أن هذا اللفظ ليس له إلاّ معنى واحد فقط، وهو الأولى بالشيء، وتختلف هذه الأولوية بحسب الاستعمال في كل مورد من موارده، كذلك كلمة الولي لها معنى واحد فقط، وهو الأولى، وهذا المعنى الواحد جامع لكل المعاني الأخرى، من الناصر والمحب و...، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلاّ بمناسبة لهذا المعنى، فالعبد مثلاً أولى بالانقياد لمولاه من غيره، والجار أولى بالقيام بحفظ حقوق الجوار من البُعداء، وهكذا.

---

(١) المائدة: ٥٥.

وهذه النظرية اختارها ابن البطريق (ت ٥٣٣ – ٦٠٠ هـ)[١]، ووافقه عليها غيره.

وإذا ثبت أن معنى المولى هو الأولى بالشيء، يكون ذلك هو المراد من آية الولاية؛ لأنه المعنى الوحداني والأصل للفظ الولي، وتختلف الموارد بحسبها، فيكون مفاد آية الولاية مفاد قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٢]، الأولى بالتصرف، ويشهد لذلك ما نقله ابن منظور في لسان العرب، عن ابن الأثير قوله: «وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الوالي»[٣]، وقريب من هذا المعنى ما ذكره بعض اللغويين في معاجمهم اللغوية.

الاستدلال على المستوى القرآني:

إنّ الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ تضمنت دلالات وافرة لإثبات المطلوب، ومراعاة للاختصار نكتفي بالإشارة المفهمة لبعض منها:

١- إنّ صيغة التعبير في الآية الشريفة جعلت الولاية بمعنى واحد، حيث قالت: ﴿إنما وليكم الله و...﴾ فلو كانت ولاية الله تعالى تختلف عن ولاية ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لكان الأنسب في التعبير أن تفرد بالذكر ولاية أُخرى للمؤمنين؛ لكي تحول

(١) عمدة عيون الأخبار، ابن البطريق: ص١١٤ – ١١٥.
(٢) الأحزاب: ٦.
(٣) لسان العرب: ابن منظور: ج١٥ ص٤٠٧؛ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٥ ص٢٢٧.

دون وقوع الالتباس، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فكرر لفظ الإيمان في الموضعين؛ بسبب تكرر معنى الإيمان وتغايره فيهما.

إذن لابد أن تكون الولاية في الآية المباركة بمعنى واحد في جميع الموارد التي ذكرت فيها، وهي بالأصالة لله تعالى، وبالتبع لرسوله صلى الله عليه وآله وللذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

وولاية الله تعالى في الآية المباركة ولاية عامّة وشاملة لولاية التصرف، والتدبير، والنصرة وغيرها، قال تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ﴾[2]، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾[3]، وغيرها من الآيات الدالة على ذلك.

٢- إن الولاية التي هي بالأصل لله عزّ وجلّ جعلها لنبيّه صلى الله عليه وآله بالتبع، فلرسول الله صلى الله عليه وآله الولاية العامّة على الأمّة، من الحكم فيهم، والقضاء في جميع شؤونهم، وعلى الأمة التسليم والطاعة المطلقة بلا ضيق أو حرج، كما في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[5].

خصوصاً وإننا لا نجد القرآن يعدّ النبي ناصراً للمؤمنين ولا في آية

---

(١) التوبة: ٦١.

(٢) يوسف: ١٠١.

(٣) الشورى: ٤٤.

(٤) النساء: ٥٩.

(٥) الأحزاب: ٣٦.

واحدة.

وهذا المعنى من الولاية الثابتة لله تعالى ورسوله، عُطفت عليه ولاية: (الذين آمنوا..)، وهذا يعني أن الولاية في الجميع واحدة؛ لوحدة السياق وهي ثابتة لله عزّ وجلّ بالأصالة، ولرسوله وللذين آمنوا بالتبع والتفضل والامتنان.

إذن الولاية الثابتة في الآية لعلي عليه السلام هي ولاية التصرف، وإن معنى الولي في الآية تعني الأولى بالتصرف، ومما يؤكد ذلك مجيء لفظ ﴿وليّكم﴾ مفرداً ونسب إلى الجميع بمعنى واحد، والوجه الذي ذكره المفسرون لذلك هو أن الولاية ذات معنى واحد، لله تعالى أصالة ولغيره بالتبع.

الاستدلال على المستوى الروائي:

هناك عدّة من القرائن والشواهد الروائية لإثبات المطلوب:

أولاً: لو كانت الولاية الثابتة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بمعنى النصرة، لما وجد فيها مزيد عناية ومزيّة ومدح لعلي عليه السلام، لأنها موجودة بين جميع المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1]، وعلي عليه السلام كان متصفاً بهذه المحبّة والنصرة للمؤمنين منذ أن رضع ثدي الإيمان مع صنوه المصطفى صلى الله عليه وآله.

ولكن لو أمعنّا النظر في الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله عقيب

(١) التوبة: ٧١.

نزول آية الولاية، لوجدنا أنها تثبت مزيّة ومنقبة عظيمة لعلي عليه السلام، ففي الرواية أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال بعد نزول الآية: «الحمد لله الذي أتم لعلي نعمه، وهيأ لعلي بفضل الله إياه»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله بعد نزول الآية أيضاً: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه»[2]، إذاً في الآية الكريمة مزيد عناية تفترق عن تولي المؤمنين بعضهم لبعض، وليس تلك المزية العظيمة إلاّ ولاية التصرف والإمرة.

ثانياً: إنّ الولاية التي خصّها رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام يوم غدير خم، هي ولاية تدبير وتصرّف؛ لأنها نفس ولاية النبي صلى الله عليه وآله، وهذا ما نلمسه من كيفية إعلان الولاية من قبله صلى الله عليه وآله، حيث قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم..»، وهذه الولاية -التي هي ولاية تصرف- هي نفسها الولاية التي تثبتها الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ..﴾ لعلي عليه السلام.

من هنا نجد أنّ النبي صلى الله عليه وآله عقّب ـ بعد نزول آية الولاية في حقّ علي عليه السلام ـ بقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه»،

(١) الدر المنثور، السيوطي: ج٣ ص١٠٦.

(٢) مسند أحمد: ج١ ص٨٤ ص١١٨، ص١١٩، ص١٥٢، ص٣٣١، ج٤ ص٢٨١، ص ٣٧٠، ص٣٧٢، ج٥ ص٣٤٧، ص٣٦٦، ص ٣٧٠، سنن ابن ماجه: ج١، ص٤٣ ح١١٦؛ الترمذي: ج٥ ص٢٩٧؛ المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٠٩-١١٦، ص١٣٤، ص٣٧١، ص٥٣٣؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٧ ص١٧، ج٩ ص١٠٤ -ص١٠٨ ص١٦٤؛ وقال فيه: «عن سعيد بن وهب... راوه أحمد ورجاله رجال الصحيح »؛ فتح الباري: ج٧ ص٦١؛ وقال فيه: «فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان »؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص٣٧٦ وما بعد، وغير ذلك من المصادر الكثيرة جداً، فراجع.

وهذا يكشف عن كون الولاية ولاية تصرّف، لا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار ذلك الحشد المتنوع من الروايات الذي يؤكّد على علي بن أبي طالب عليه السلام، ويقرن طاعته بطاعة الله ورسوله، كل ذلك يكشف عن أن ولايته عليه السلام هي ولاية التصرف، وأنه الأولى بالتصرف؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حق علي عليه السلام: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاك فقد عصاني»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «من يريد أن يحيا حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة»، قال الحاكم أيضاً: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[2].

وعن عبد الرحمن بن عثمان قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو آخذ بضبع علي بن أبي طالب، وهو يقول: «هذا أمير البررة، قاتل الفجرة، منصور من نصره مخذول من خذله، ثم مدّ بها صوته»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3].

وغيرها الكثير من الروايات التي تشاركها بالمضمون ذاته.

ثالثاً: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طلب من الله تعالى أن يشدّ عضده بأخيه

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٨، تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر: ٤٢: ص٣٠٧

(٢) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٨ - ١٢٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٩.

علي عليه السلام، كما شدّ الله تعالى عضد موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام، فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ..﴾ بشرى لرسول الله صلى الله عليه وآله، بجعل علي عليه السلام وليّاً وخليفة من بعده، وهذا يدلل على أن الولاية لعلي عليه السلام لم تكن مجرد نصرة ومحبة، بل كانت ولاية أولوية بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كما هو الحال في هارون عليه السلام، باعتبار أولويته بالأمر والإمرة بعد موسى عليه السلام، عندما خلّفه في قومه.

رابعاً: احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أولويته بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بآية الولاية، حيث قال عليه السلام مخاطباً لجمع من الصحابة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنشدكم الله: أتعلمون حيث نزلت: ﴿يا أيها الذين آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وحيث نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وحيث نزلت: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، قال الناس: يا رسول الله: أخاصّة في بعض المؤمنين، أم عامة لجميعهم؟ فأمر الله عز وجل نبيّه صلى الله عليه وآله أن يعلمهم ولاة أمرهم، وأن يفسّر لهم من الولاية ما فسّر لهم من صلاتهم، وزكاتهم، وحجهم، فنصبني للناس بغدير خم»[1]، وهذا يكشف عن كون المراد بالآية هو الأولى.

وبذلك يتحصّل أن معنى الولي هو الأولى بالتصرف، وأنّ الآية بصدد جعل الولاية لعلي عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) المناقب، ابن المغازلي الشافعي: ص٢٢٢، فرائد السمطين: ج ١ ص٣١٢، ينابيع المودة للقندوزي: ج ١ ص٣٤٦، شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ص ٢٩٥، فرائد السمطين: ج١ ص٣١٢.

كيف تستدل الشيعة بشأن النـزول؟

الشبهة:

الشيعة يستدلون بشأن نزول آية الولاية على الإمامة ؟

الجواب:

بعد أن أطبقت الأمّة وأجمع المحدثون والمفسرون على نـزول الآيـة المباركة في الإمام علي عليه السلام مع صراحة الآية في إثبات الولايـة، ومباركـة النبي صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام بقوله:«الحمد لله الذي أتم لعلي النعمة»، لا يبقـى أي مجال لمثل هذه التشكيكات والشبهات، سواء كـان الاسـتدلال بالآيـة استدلالاً مباشراً، أم كـان عـن طريـق شـأن النـزول، الـذي هـو عبـارة عـن الأحاديث المتواترة والصحيحة والصريحة عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله التـي أمرنـا الله تعالى بالتمسك بها بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْـهُ فَانتَهُوا﴾[1]، وعليه فـلا ينبغـي التهـاون والتقليـل مـن شـأن هـذه الأحاديـث القطعية، كما يظهر ذلك من كلام صاحب الشبهة.

ويمكن أن نحقق استيعاباً جيداً لمسألة ولاية علي بـن أبـي طالـب عليه السلام، وذلك من خلال الآيات القرآنية والنصوص النبوية التي تعرضت لبيان هذا المعنى، فضلاً عما أشاعته آية الولاية من مناخ سـائد حيـال هـذه المسألة، من تقديم التهاني والتبريكات مـن قبـل الصحابة إلـى علـي عليه السلام الـصحابة وإنشاد الشعر والمديح بهذه المناسبة العظيمة، وهذا يكفي لسدّ كل منافـذ الريب والتشكيك، ومعالجة ما يطرأ على الأذهان من التباسات.

---

(١) الحشر: ٧.

الخلاصة

لا مجال لمثل هذه التشكيكات بعد أن أجمعت الأمة على نزول الآية في شأن علي عليه السلام، وسواء كان الاستدلال بالآية ذاتها أم من طريق شأن النزول الثابت قطعاً كونه بخصوص علي عليه السلام فهو يثبت المطلوب، ولا معنى للإصغاء لمثل هذه الأوهام.

المعروف أن عليا فقير فكيف يتصدق ؟

الشبهة:

إنّ علياً كان فقيراً فكيف يتصدق بالخاتم إيتاءً للزكاة ؟

الجواب:

ما أكثر المدعيات التي ترفع من دون أي دليل ولا برهان يدعمها، ومن أغرب المدعيات التي تثار للتشكيك في صحة نزول آية الولاية في الإمام علي عليه السلام هذا الإشكال الآنف الذكر، إلا أننا توخياً لدرء مثل هذه التشكيكات التي تطرأ على بعض الأذهان نقول:

أولاً: إن لفظ الزكاة لغة شامل لكل إنفاق لوجه الله تعالى، ونلمس هذا المعنى في عدّة من الآيات المباركة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1]، وكذا ما قاله القرآن بحق إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾[2]، وغيرها من الآيات التي تشاركها في المضمون، ومن المعلوم أنه ليس في شرائعهم عليهم السلام الزكاة المالية المصطلحة في الإسلام.

ومن هنا فقد استعمل القرآن لفظ الزكاة في الآية الشريفة بمعناها اللغوي الشامل لكل إنفاق لوجه الله تعالى أي الزكاة المستحبة « زكاة تطوع »؛ ولذا نرى أن الجصاص ـ في أحكام القران ـ فهم أن المراد بالزكاة في الآية، هي زكاة التطوع، حيث قال: «قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(١) مريم: ٣١.
(٢) الأنبياء: ٧٣.

﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، يدلّ على أن صدقة التطوع تسمى زكاة؛ لأن علياً تصدق بخاتمه تطوعاً، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾»[1].

ثانياً: لو فرضنا أن المراد من الزكاة في الآية هي الزكاة الواجبة، فليس من الغريب أن يمتلك الإمام علي عليه السلام أوّل نصاب من مال الزكاة وهو مقدار «٢٠٠ درهم»، ومن ملك ذلك لا يعدّ غنياً، ولا يُطلق عليه اسم الغني شرعاً.

ثالثاً: بعد أن ثبت نزول الآية في الإمام علي عليه السلام بإجماع الأمة واتفاق المفسرين والمحدثين، ولم ينكر أحد على الإمام علي عليه السلام تصدّقه بالخاتم، وإنما الكل فهم المزية والكرامة له عليه السلام لا يبقى أي مجال للإنكار والتشكيك.

ومن هنا نلاحظ أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بادر بالمباركة للإمام علي عليه السلام عقيب نزول الآية الكريمة، وقام الشعراء بإنشاء القصائد الطافحة بالمديح والثناء على الإمام علي عليه السلام، كل ذلك نتيجة طبيعية للمناخ الذي أشاعته الآية في أوساط المسلمين، من إثبات الولاية للإمام علي عليه السلام، فإذا ثبت نزول الآية في الإمام علي عليه السلام بالدلائل والبينات القاطعة لا معنى للاستنكار والتشكيك، خصوصاً وأن رسول الله صلى الله عليه وآله حمد الله على هذه النعمة التي أتمها لعلي عليه السلام، وبارك الصحابة بأقوالهم وأشعارهم للإمام علي عليه السلام تلك المنقبة.

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص: ج٢ ص٥٥٨.

الخلاصة

١- إنّ لفظ الزكاة شامل لكلِّ إنفاق لوجه الله تعالى واستعملها القرآن بذلك.

٢- لو سلمنا أن لفظ الزكاة في الآية استعمل في الزكاة الواجبة التي هي أقل نصابها ٢٠٠ درهم، فإن من يملك هذا المبلغ لا يعد غنياً شرعاً.

٣- قام الإجماع على نزول آية الولاية في حق الإمام علي عليه السلام ولم ينكر أحد آنذاك ما استنكره صاحب الشبهة، بل أُنشد الشعر والمديح والثناء على الإمام علي عليه السلام، مع مباركة الصحابة.

آية البلاغ تدل على أنه ﷺ لم يبلغ سابقاً

الشبهة:

إنّ استدلال الشيعة بآية البلاغ على الإمامة يبطل كل الاستدلالات السابقة التي يستدلون بها؛ لأنّ آية البلاغ مدنية، فتدل على أنّه ﷺ لم يبلغ سابقاً.

الجواب:

أولاً: لابد أن نفهم كيفية تعاطي الرسول الأكرم ﷺ مع المفاهيم والمبادئ الإسلامية المهمة التي تمثل الأساس في منظومة الدين الإسلامي، والتي ينبغي التأكيد عليها من قبله ﷺ أكثر من غيرها، ومن جملة المفاهيم الأساسية هي الإمامة، حيث نلمس غاية الانسجام ومنتهى الملائمة بين جميع البيانات السابقة لإثبات الإمامة والتنصيص عليها، فكل تلك المواقف والبيانات كانت تتناسب مع خطورة وأهمية مبدأ كمبدأ الإمامة والولاية بعد رسول الله ﷺ، فلابد من تأسيسه وتشييد أركانه وجعله وعياً إسلاميا عاماً، وآية البلاغ جاءت ضمن ذلك السياق وتلك الخلفية، فهي نزلت في ذلك الظرف لتحمل في طياتها العديد من الأمور المهمة التي تتعلق بحقيقة الإمامة منها:

١- أنها جاءت لتصرح بقضية مهمة جداً، وهي أن ترك تنصيب علي ابن أبي طالب عليه السلام للولاية مساوق لترك تبليغ الرسالة بأكملها، وهذا ما يتجلّى واضحاً عند التأمل في الآية ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ..﴾[1]، وعلى ضوء ذلك تعرف السر في نزول هذه الآية المباركة في أواخر حياة الرسول الأكرمﷺ، حيث تكشف عن أهمية الإمامة والولاية في المنظومة الدينية، ومن هذا المنطلق يظهر لك سبب ذلك الحشد المتنوع من النصوص القرآنية والروائية التي تؤكد على ضرورة وأهمية موقع الإمامة في الإسلام بأجمعه، ذلك لكي ينطلق الإسلام في قيادة جديدة تكون في جميع مجالاتها وآفاقها امتداداً للقيادة النبوية، لتبقى المسيرة مستمرة والرسالة محفوظة.

ومما يؤكد أهمية الإمامة والولاية هو ما نجده واضحاً في أقوال الرسول الأكرم ﷺ بعد تبليغ مقام الولاية وتعيين الولي للناس، حيث قالﷺ: «فليبلغ الشاهد الغائب»[2]، فإن اهتمامهﷺ الشديد في إيصال خطابه الشريف إلى جميع المسلمين يكشف عن خطورة الأمر، وأنه مما تتوقف عليه ديمومة الإسلام.

بالإضافة إلى ما يكتنف الآية المباركة من القرائن الحالية الكثيرة والواضحة الدالة على أهمية هذا الأمر وتأثيره المباشر على مسيرة الإسلام، كنزولهﷺ في حر الهجير والسماء صافية، والمسلمون واقفون على الحصباء والرمضاء التي كادت تتوقد من حرارة الشمس، حتى أنه نقل الرواة من حفاظ الحديث وأئمة التاريخ أنه لشدة الحر وضع بعض الناس ثوبه على رأسه، وبعضهم استظل بمركبه، وبعضهم استظل بالصخور ونحو

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) كما جاء ذلك في أكثر المصادر الروائية والتفسيرية التي نقلت حديث الغدير، وقد ذكر ابن حجر أنها«قد بلغت التواتر»، لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني: ج١ ص٣.

ذلك.

وكذلك أمره ﷺ برجوع مَن تقدم وتقدم مَن تأخر.

مضافاً إلى حضور ذلك الجمّ الغفير من الصحابة والمسلمين الذين حضروا لأداء مناسك الحج من سائر أطراف البلاد الإسلامية، وغير ذلك من الأمور التي تدل على خطورة الأمر وأهميته.

٢- إنّ آية البلاغ التي بلّغها الرسول الأكرم ﷺ في أواخر حياته، جاءت تحمل في طياتها الإشارة إلى قضية مهمة جداً في الدين الإسلامي، وهي تحديد معالم أطروحة الإمامة في الإسلام، مؤكدة على أن الإمامة شاملة لكل الأبعاد القيادية السياسية منها والحكومية والمرجعية وغيرها، وأن منصب الخلافة والحكومة يمثل أحد أبعاد الإمامة، وهذا هو موضع النزاع مع أتباع مدرسة الخلفاء، حيث أنهم يختزلون دور الإمام في الحاكمية فقط، فإذا لم يستلم الحكومة لا يكون إماماً، على خلاف معتقد الشيعة الإمامية الاثني عشرية، التي تعتقد إن منصب الحاكمية يمثل أحد أبعاد الإمامة لا جميعها.

٣- إنّ آية البلاغ جاء تبليغها بصيغة الإعلان الرسمي للولاية والإمامة والتتويج العام للإمام علي عليه السلام أمام المسلمين، ويشهد لذلك كيفية التبليغ، حيث جمّع رسول الله ﷺ الناس وأمر أن يردَّ مَن تقدم منهم ومَن تأخر عنهم في ذلك المكان، وجمعت له ﷺ أقتاب الإبل وارتقاها آخذاً بيد أخيه علي عليه السلام معمماً له أمام الملأ صادعاً بإبلاغ الولاية، ثم إنه ﷺ طلب بنفسه البيعة من الناس لعلي عليه السلام، وبادر الناس لبيعته عليه السلام وسلّموا عليه بإمرة

المؤمنين، وهنأوا النبي صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام، وأول من تقدم بالتهنئة والبخبخة، أبو بكر ثم عمر بن الخطاب وعثمان و.....[(١)]، وقد روى الطبري في كتابه الولاية بإسناده عن زيد بن أرقم إن النبي صلى الله عليه وآله قال:«قولوا أعطيناك على ذلك عهداً من أنفسنا، وميثاقاً بألسنتنا، وصفقة بأيدينا، نؤديه إلى أولادنا وأهلنا لا نبتغي بذلك بدلا»[(٢)].

ثم استئذان حسان بن ثابت من الرسول صلى الله عليه وآله لنظم أبيات في الواقعة تدل على أنه لم يفهم من الحديث غير معنى الخلافة والولاية.

وكذلك يؤكد كل ما قلناه احتجاج أمير المؤمنين علي عليه السلام بحديث الغدير في مواضع عديدة، حيث كان يحتج على أولئك الذين تركوا وصية رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله عليه السلام:«أنشدكم بالله أمنكم مَن نصبه رسول الله يوم غدير خُم للولاية غيري؟ قالوا: اللهم، لا»، وفي موضع آخر «قال أنشدكم بالله: هل فيكم أحد قال له رسول صلى الله عليه وآله مَن كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، ليبلغ الشاهد الغائب، غيري ؟ قالوا: اللهم، لا»[(٣)].

---

(١) مسند أحمد: ج٤ ص٢٨١؛ المعيار والموازنة، الأسكافي: ص٢١٢؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٥ ص٢٠٣؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج٦ ص٢٨٢ ح١٢٠؛ تذكرة الخواص، ابن الجوزي: ص٣٦؛ نظم درر السمطين: ص١٠٩؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٣ ص١٣٤؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٥ ص٨؛ المصنف لابن أبي شيبة الكوفي: ج٧ ص٥٠٣؛ شواهد التنزيل: الحاكم الحسكاني: ج١ ص٢٠٠؛ ثمار القلوب: ص٦٣٧؛ وغيرها.

(٢) كتاب الولاية: محمد بن جرير الطبري: ص ٢١٤- ٢١٦.

(٣) انظر: مسند أحمد: ج١ ص٨٤؛ ج٤ ص٣٧٠؛ ج٥؛ ص٣٦٦، ص٣٧٠؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١٠٤، ص١٠٧؛ المصنف، أبي شيبة الكوفي: ج٧ ص٤٩٩؛ كتاب السنة: عمرو بن أبي عاصم: ص٥٩١، ص٥٩٣؛ خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٩٦؛ مسند أبي يعلى: ج١ ص٤٢٨ – ٤٢٩ ح٥٦٧؛ ج١١ ص٣٠٧ح٦٤٢٣؛ المعجم الصغير: الطبراني: ج١ ص٦٤ – ٦٥؛ المعجم

٤- لم يكتف الله تبارك وتعالى بكل البيانات السابقة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى أنزل في ولاية علي عليه السلام تلك الآيات الكريمة تتلى على مرّ الأجيال بكرة وعشيّاً، ليكون المسلمون على ذكر من هذه القضية في كل حين، وليعرفوا رشدهم والمرجع الذي يجب عليهم أن يأخذوا عنه معالم دينهم ويتبعوهُ في قيادته.

٥- لو اقتصر في تبليغ الإمامة على تلك البيانات الخاصة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمقتصرة على حضور بعض الصحابة، لضاعت وأصبحت روايات ضعافاً، ولما وصلت إلينا بشكل واضح ومتواتر كما جاءتنا آيات وروايات البلاغ وذلك بسبب منع تدوين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في عهد الخلفاء ولتولي بني أمية وأعداء أهل البيت عليهم السلام تدوين الحديث فيما بعد.

الخلاصة

أولاً: إنّ تعاطي القرآن الكريم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع المفاهيم الأساسية في الإسلام – كالإمامة – يختلف عن غيرها من المفاهيم الأخرى، ولذا نجد أن النبي صلى الله عليه وآله أكد عليها مراراً وشيد أركانها، مستثمراً كل مناسبة يمكن استثمارها في ذلك، ومن هنا نلتمس أسباب كثرة البيانات والتصريحات المتكررة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك لكي يكون الاهتمام والتبليغ متناسباً مع أهمية ذلك الأمر، ولذا نرى الانسجام

الأوسط: ج٢ ص٣٢٤؛ المعجم الكبير: ج٥ ص١٧١؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١١ ص٣٣٢؛ الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص١٩٥؛ وغيرها.

والملائمة بين التبليغات النبوية والآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد وبالخصوص آية البلاغ التي جاءت ضمن الاهتمامات القرآنية بمسألة الإمامة، وقد حملت آية البلاغ العديد من المعطيات المهمة في مسألة الإمامة منها:

١- إنّ الآية المباركة جاءت لتبين أن ترك تنصيب الإمام علي عليه السلام للولاية مساوق لترك تبليغ الرسالة بأجمعها، كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ ومما يؤكد أهمية هذا التبليغ للإمامة ملاحظة الظروف التي رافقت عملية التبليغ من شدّة الحرّ وأمر الرسول صلى الله عليه وآله برجوع المتقدم ولحوق المتأخر والجمع الغفير الذي حضرها، كل ذلك يدل على أهمية الأمر وخطورته.

٢- إنّ تبليغ الرسول صلى الله عليه وآله للآية في أواخر حياته جاء مؤكّداً على بيان أطروحة الإمامة في الإسلام وأنها شاملة لكل الأبعاد القيادية السياسية والدينية والحقوقية والقضائية، وأن منصب الخلافة والحكومة يمثل أحد أبعاد الإمامة، وهذا هو محل النزاع بين السنة والشيعة، حيث أن السنة يختزلون دور الإمام في الحاكمية فقط.

٣- إنّ آية البلاغ جاءت بصيغة الإعلان الرسمي لولاية الإمام علي عليه السلام كما هو واضح من خلال عملية التنصيب وطريقته ومباركة الصحابة له بالولاية وإنشاء الشعر ونحوها، وكذلك احتجاجه عليه السلام بحديث الغدير في مناسبات عديدة على أحقيته عليه السلام في الخلافة.

ثانياً: إنّ الله تعالى لم يقتصر على أمر الرسول صلى الله عليه وآله بالتبليغ لولاية الإمام

علي عليه السلام، بل هنالك عدّة من الآيات جاءت مؤكّدة لتلك الولاية لتتلى بكرة وعشياً على مرّ الأجيال وتكون شاهدة وحجة عليهم.

ثالثاً: لو اقتصر في تبليغ الولاية على البيانات الخاصة المقتصرة على حضور بعض الصحابة، سوف يُعرّضها ذلك للضياع، لا سيما مع ملاحظة منع تدوين السنة، أو تكون من الأخبار الضعاف، ولذا كان تبليغها في واقعة الغدير كفيلاً بأن يجعلها تصل إلى حدّ التواتر وإجماع المسلمين، الذي لا يمكن تجاوزه.

لا وجود لاسم علي في القرآن

الشبهة:

إن القرآن الكريم لم ينص على إمامة علي عليه السلام وإلاّ لذكر اسمه فيه.

تمهيد:

لكي تكون الإجابة واضحة لابد من الالتفات إلى نقطتين أساسيتين، هما:

الأولى: القرآن تبيان لكل شيء

لا ريب أن القرآن هو الكتاب المنزل لهداية الناس فيه تبيان كل شيء، والسنة النبوية مُفصّلة ومبينة له، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، فأحدهما مكمل للآخر، والإسلام كله، من عقائد وأحكام وسائر علومه وأصوله موجود في القرآن الكريم، أما شرحه وتفسيره وتجسيده، فنجده في سنة النبي صلى الله عليه وآله من خلال حديثه وسيرته المباركة، ولذا نجد أن الله تعالى قرن طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وآله، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[3]، وكذلك قرن معصية الرسول صلى الله عليه وآله بمعصيته تعالى، حيث

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) الأنفال: ٢٠.

قال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢)، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٣)، وغيرها من الآيات الكريمة.

الثانية: يجب اتباع ما أمر به الله ورسوله ﷺ

إنّ الله تعالى لم يجعل الخيرة للمؤمنين فيما يقضي الله ورسوله به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾(٤)، وبيّن الله تعالى أن الرسول ﷺ حجة على الخلق في قوله وفعله، وأن الله جعله إماماً يقتدى به، فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٥)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(٦)، وهذه مفردة مهمة جداً يجب الالتفات إليها جيداً.

وهناك روايات كثيرة متضافرة تؤكد وتحث على الأخذ بسنة الرسول ﷺ، وتنهى عن الإعراض عن سنته ﷺ والاكتفاء بالقرآن وحده، وكان ذلك رائجاً ومعرفاً في أقال الصحابة وتعاملهم، من ذلك ما ورد في صحيح البخاري عن علقمة، عن عبد الله قال: «لعن الله الواشمات

(١) الجن: ٢٣.
(٢) الشعراء: ٢١٦.
(٣) النساء: ٦٥.
(٤) الأحزاب: ٣٦.
(٥) الحشر: ٧.
(٦) النجم: ٣-٤.

الموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وآله ومن هو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1] ؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه»[2]، وكذا وردت هذه الرواية بنصها في صحيح مسلم[3].

ومن الروايات التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المجال، ما جاء في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه، ومسند أحمد عن أبي عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[4]، وفي مسند أحمد بلفظ «ما أجد هذا في كتاب الله»[5].

ومنها ما ورد في مسند أحمد أيضاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا أعرفنَّ أحداً منكم أتاه عني حديث وهو متكئ في أريكته،

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) صحيح البخاري: ج٣ ص٢٨٤ ح٤٨٨٦.

(٣) صحيح مسلم: ج٣ ص١٦٧٨ ح٢١٢٥ باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة.

(٤) انظر: سنن أبي داود السجستاني، باب لزوم السنة: ج٤ ص٢٠٥ ح٤٦٠٥؛ سنن الترمذي: ج٤ ص١٤٤ ح٢٨٠١، كتاب العلم؛ باب ما نهى عنه؛ سنن ابن ماجه، المقدمة: ج١ ص٦ - ٧، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله والتغليظ على من عارضه.

(٥) مسند أحمد: ج٦ ص٨.

فيقول: أُتلُوا عليَّ به قرآناً»[١]، وقال حسان بن ثابت، كما في مقدمة الدارمي:«كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وآله بالسُنة كما ينزل عليه بالقرآن»[٢]، إلى غير ذلك من الروايات والأقوال، وإنّما هذه نبذة عمّا ورد في الحث على الأخذ بسنة الرسول صلى الله عليه وآله والنهي عن مخالفته والتشديد على من يهمل السنة بحجة الاكتفاء بكتاب الله.

وعلى هذا الأساس يتضح أن جميع أحكام الإسلام موجودة في القرآن الكريم، إلا أنه لا يمكن معرفة تفاصيلها والوقوف على حقائقها من دون الرجوع إلى سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فإننا في إقامة الصلاة ـ مثلاً ـ لا نعرف كيف نصلّي من دون أن نأخذ من حديث الرسول صلى الله عليه وآله كيفيتها وشروطها وعدد ركعاتها وسجداتها وأذكارها ومبطلاتها، وكذلك في الحج، حيث لا يمكن أداء مناسكه من دون الرجوع إلى سنته صلى الله عليه وآله واستيضاح شروطه وواجباته ومواقيته وأشواط الطواف وصلاته، وتفاصيل السعي والتقصير وسائر مناسك الحج الأُخرى.

إذن لابدّ من الرجوع إلى القرآن والسنة النبوية معاً لأخذ تعاليم الإسلام منهما، أما من أراد الاكتفاء بالقرآن وحده دون السنة، فأدنى ما نقول بحقه: إنه جاهل بما ورد في القرآن نفسه، الذي يدعو لإطاعة الرسول صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٣]، وقد قال الألباني في هذا المجال:«فحذار أيها المسلم أن تحاول فهم القرآن مستقلاً

(١) مسند أحمد: ج٢ ص٣٦٧؛ سنن ابن ماجه، المقدمة: ج١ ص٩ ـ ١٠ ح٢١، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله والتغليظ على من عارضه.
(٢) سنن الدارمي، المقدمة: ج١ ص١٤٥، باب السنة قاضية على كتاب الله.
(٣) الحشر: ٧.

عن السنة، فإنك لن تستطيع ذلك ولو كنت في اللغة سيبويه زمانك»[1]، فمقولة حسبنا كتاب الله مقولة مخالفة لصريح القرآن الكريم.

الجواب:

بعد تلك الإطلالة السريعة نقول لصاحب الشبهة بأن عدم ذكر اسم علي عليه السلام صريحاً في القرآن يرجع إلى الأسباب التالية:

أولا: عدم ذكر الاسم لحكمة إلهية

إن عدم ذكر اسم علي في القرآن لعله لحكمة إلهية خفيت علينا، إذ ما قيمة عقولنا كي تحيط بكل جوانب الحكم والمصالح الإلهية، فكم من الأمور التي قد خفيت أو أخفيت علينا مصالحها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2]، والاعتراض على حكم الله تعالى خلاف التسليم والخضوع لأمره عزّ وجلّ.

ثانيا: الرسول الأكرم نصّ على إمامة علي عليه السلام

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد نص على إمامة علي أمير المؤمنين عليه السلام باسمه الصريح كما في حديث الغدير المتواتر، وحديث الدار، وحديث المنزلة، وغيرها في مواطن كثيرة جداً، فإذا ثبت هذا بشكل قاطع عنه صلى الله عليه وآله وهو القرآن الناطق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد أقام الحجة علينا بأن الإمام بعده علي عليه السلام تثبت إمامته بلا ريب، وإذا لم يذكر القرآن اسم عليّ

(١) صفة صلاة النبي، الألباني: ص ١٧١.
(٢) المائدة: ١٠١.

فإن ذلك لا يضر ولا يؤثر في قيمة الحجة التي أقامها الرسول صلى الله عليه وآله على الإمامة؛ لأن تبليغه وبيانه وقوله صلى الله عليه وآله هو قول الله تعالى.

وممّا يؤكد هذا الوجه ما أجاب به الإمام الصادق عليه السلام بسند معتبر صحيح عندنا، حينما سأله أبو بصير عن السبب في عدم ذكر اسم علي عليه السلام صريحاً، عن أبي بصير حيث قال:«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ..﴾، فقال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام، فقلت له: إن الناس يقولون: فما له لم يسم علياً وأهل بيته عليهم السلام في كتاب الله عزّوجلّ؟ قال: فقال: فقولوا لهم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسر ذلك لهم..»[(١)].

ثالثا: ذكر الوصف أبلغ في التأثير من ذكر الاسم

من الواضح أن ذكر الوصف أوقع تأثيراً في تحديد المصداق من ذكر الاسم، لذا ذكر علماء اللغة أن اسم العَلَم ليس أعرف المعارف، بل الكثير منهم جعل اسم العَلَم أدنى درجة من أسماء المعرفة، والسر في ذلك، كما ينص عليه أهل اللغة والبلاغة، أن اسم العَلَم قد يتوخى منه معنى الصفة، فإذا جاء اسم عليّ عليه السلام في القرآن فقد يحصل إيهام بأن المراد منه الصفة أي العالي، وعلى هذا الأساس بين القرآن الكريم المصداق بشكل صريح، وأن الولي هو المتصف بكونه يؤدي الزكاة وهو راكع ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(٢)]،

(١) أصول الكافي، الكليني: ج١ ص٢٨٦ -٢٨٧.
(٢) المائدة: ٥٥

الذي تواترت الروايات من طرق الشيعة والسنة على أن المراد به هو علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

رابعا: ذكر علي في القرآن يدعو البعض لانتحال اسمه

لو فرضنا أن القرآن ذكر الاسم صريحاً فلا يعني حسم الخلاف في ذلك، بل قد يكون أدعى للخلاف؛ لأنه يكون وسيلة وداعية لاستعارة الأسماء والألقاب لذوي النفوس المريضة، لكي يجعل الاسم منطبقاً عليه، كما نلمس ذلك واضحاً من انتحال لقب أمير المؤمنين الخاص بعلي عليه السلام، والذي هنّأه به عمر بن الخطاب، كما جاء ذلك في حديث الغدير الذي جاء متضافراً في كتب أهل السنة[2]، حتى وصل الأمر بمعاوية ويزيد أن يلقبوا أنفسهم بهذا اللقب حتى صار تقليداً معمولاً به فسمي كل من يتولى الحكم ولو ظلماً وعدواناً بـ(أمير المؤمنين).

خامسا: لو ذكر اسم عليٍ لحذفه المنافقون

لو فرضنا أن القرآن ذكر اسم عليّ عليه السلام صريحاً لبادر المنافقون لرفعه وحذفه من الكتاب الكريم فيقع التصرف والتحريف في القرآن الكريم، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ القرآن الكريم، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ

---

(١) جامع البيان، الطبري: ح٦ ص٣٨٩ - ٣٩٠ من طريق ابن عباس وعتبة بن حكيم ومجاهد،الكشاف،الزمخشري:ج١ ص٦٤٩.

(٢) انظر: مسند أحمد: ج٤ ص٢٨١؛ المعجم الكبير: ج٥ ص٢٠٣ - ٢٠٤؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج٦ ص٢٨٢؛ ثمار القلوب: ص٦٣٧ ح١٠٦٨؛ المعيار والموازنة: ص٢١٢؛ وما بعدها؛ المصنف لأبي شيبة الكوفي: ج٧ ص٥٠٣؛ نظم درر السمطين: ص١٠٩؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٣ ص١٣٤؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٢٠٠؛ وغيرها.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ولاشك أن الحكمة الإلهية شاءت حفظ القرآن الكريم من طرقه الطبيعية قدر الإمكان، كما سوف يتضح ذلك عند الإجابة عن شبهة التحريف.

سادسا: ذكر الاسم لا يعني حسم النزاع

إنّ ذكر الاسم صريحاً في القرآن لا يعني حسم الخلاف في ذلك من جهة أخرى؛ لأننا نجد أن كثيراً من الأمور التي ذكرت في القرآن بصراحة تامة وقع الخلاف فيها بعد ذلك، كما في المتعة التي ورد ذكرها في القرآن بكل صراحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2]، ومع ذلك نجد أن الخلاف والنزاع وقع فيها فيما بعد، حيث ادّعي نسخها بقول عمر بن الخطاب.

سابعا: ذكر الاسم في القرآن داعية لاتهام الشيعة

لو افترضنا أن اسم علي عليه السلام ذكر في القرآن، فليس من البعيد أن يُقال أن ذلك من وضع الرافضة، كما نجد هذا الافتراء واضحاً في الروايات الصريحة الواردة في فضائل أهل البيت عليهم السلام، ولا غرابة في ذلك على الذين ختم الله على قلوبهم، فإن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله صرح باسمه عليه السلام على مرأى ومسمع (١٢٠) ألف صحابي، بشكل لا يشوبه ريب، ومع ذلك بادر المنافقون إلى إنكاره ورفضه، وزعم بعضهم أن ذلك من الموضوعات.

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) النساء: ٢٤.

ثامنا: لا ينبغي التشكيك في إمامة علي عليه السلام

على ضوء ما سلف نود أن نلفت نظر المستشكل في إمامة علي عليه السلام بعدم ذكر اسمه في القرآن، إلى أنه بعد قيام الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على الإمامة لا ينبغي التشكيك والترديد وإثارة الشبهات في ذلك استناداً إلى شبهات واهية كهذه، وأن لا نكون كقوم بني إسرائيل، الذين أخذوا يطلبون من نبي الله موسى عليه السلام المزيد من الحجج بعد أن أظهر لهم الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى، حتى أنهم طلبوا من موسى أن يريهم الله تعالى جهرة، حيث قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[1].

الخلاصة

في المقدمة ينبغي الالتفات إلى نقطتين أساسيتين:

الأولى: إنّ القرآن الكريم تبيان لكل شيء، لكن ليس باستطاعة أحد معرفة واستخراج هذه المعارف منه، لذا كانت السنّة النبوية مبينة ومفصلة له، ومن هنا قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وآله كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

الثانية: إنّ الله تعالى أمرنا بالأخذ بما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يجوز

(١) البقرة: ٥٥.
(٢) النساء: ٥٩.
(٣) الأنفال: ٢٠.

الاعتراض على حكم الله أو أي قضاء الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

وبعد هذا نقول: إنّ السبب في عدم ذكر اسم علي عليه السلام في القرآن يرجع إلى ما يلي:-

أولاً: إنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد نص على إمامة علي عليه السلام باسمه الصريح، ولا فرق في الحجية بين القرآن وقول رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تواتر ذلك عنه صلى الله عليه وآله في مواطن متعددة كما في حديث الغدير وحديث الدار والمنزلة ونحوها، سيما أن القرآن الكريم لم ترد فيه كثير من الأحكام الأساسية في الإسلام كتفاصيل الصلاة والصيام ونحوها.

ثانياً: نقول: إنّ عدم ذكر اسم علي عليه السلام صريحاً في القرآن يعود لحكمة إلهية اقتضت ذلك، وما أكثر الأشياء التي يفعلها الله تعالى ويأمر بها من دون إطلاعنا على حكمته في ذلك.

ثالثاً: إنّ ذكر الوصف أبلغ تأثيراً وتأكيداً من ذكر الاسم، كما هو معروف عند اللغويين، وقد ذُكر وصف الإمام علي عليه السلام في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1]، وقد تواترت الروايات بعدم انطباق هذه المواصفات إلاّ على علي عليه السلام.

رابعاً: لو فرض ذكر اسم علي عليه السلام في القرآن، لبادر المنافقون لرفعه والتجاوز على القرآن الكريم، فمن منطلق الحكمة الإلهية في الحفاظ على سلامة القرآن من التحريف لم يذكر اسمه عليه السلام فيه.

---

(١) المائدة: ٥٥.

خامساً: لو افترضنا أن اسم علي عليه السلام ذكر في القرآن الكريم، فإن ذلك لا يعني حسم الخلاف، كما هو الحال في آية المتعة الصريحة في مشروعيتها، والتي جُسدت وطُبقت تطبيقاً عملياً من قبل الصحابة، إلاّ أن عمر جاء وألغى هذا الحكم القرآني وهدد كل مَن يمارسه.

سادساً: لو فرض وجود اسم علي عليه السلام في القرآن لقال البعض إنه من وضع الرافضة.

سابعاً: بعد أن قامت الحجج والبراهين على ولاية علي عليه السلام بشكل لا يشوبه ريب، فلا معنى لمثل هذه المبررات الواهية التي لا أساس لها.

ثامناً: إنّ وجود اسم علي عليه السلام في القرآن سيكون داعياً لاستعارته وجعله منطبقاً على بعض القيادات الحكومية، كما هو الحال في كثير من الألقاب التي خصها رسول الله صلى الله عليه وآله بعلي عليه السلام، لكنها نسبت بعد ذلك إلى غيره، كما هو الحال في لقب الصدّيق والفاروق وأمير المؤمنين.

آية التطهير لا تختص بأئمة الشيعة

الشبهة:

إن أهل البيت في آية التطهير تعني كل من يلتقي بالنبي في هاشم.

الجواب:

لقد شدّد القرآن الكريم والسنة النبوية، على تعيين المراد من مفهوم أهل البيت عليهم السلام في موارد متعددة، وحسبك ما ورد من الروايات الصحيحة التي تصرح بأسمائهم على طريقة الحصر واحداً بعد الآخر، وهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ما قلنا بأن النبي صلى الله عليه وآله كان شديد الحرص على تشخيص وحصر أهل البيت عليهم السلام درءاً للتشكيكات التي قد تثار من ذوي النفوس المريضة.

وبالتأمل في تفاصيل الواقعة نلمس اكتنازها الكثير من الدلائل الواضحة، التي تثبت حصر أهل البيت في الآية المباركة بالخمسة أصحاب الكساء، وإليك بعض تلك الشواهد والقرائن الصريحة:

تشخيص النبي صلى الله عليه وآله لأهل البيت بأسمائهم، كما في رواية عبد الله بن جعفر، حيث قال: «لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرحمة هابطة قال: ادعوا لي، ادعوا لي، فقالت صفية: من يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: أهل بيتي علياً وفاطمة والحسن والحسين، فجيء بهم فألقى عليهم النبي كساءه، ثم رفع

يديه، ثم قال: اللّهم هؤلاء آلي فصلّ على محمد وعلى آل محمد، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد صحت الرواية على شرط الشيخين، أنه علّمهم الصلاة على أهل بيته كما علّمهم الصلاة على آله[1].

ولا يخفى ما في كلمة: « اللّهم هؤلاء آلي » من الدلالة على حصر أهل البيت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ونفي ذلك العنوان عن غيرهم، كما لا يخفى على كلّ من عرف أساليب العرب في الكلام.

٢- من أجل التأكيد على الحصر وتحديد أهل البيت عليهم السلام بأفراد معينين نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله يحصرهم تحت كساء واحد في مواقف متعددة وروايات متضافرة:

منها: ما جاء في رواية أبي سلمة، حيث قال: فدعا حسناً وحسيناً، وفاطمة، فأجلسهم بين يديه، ودعا علياً فأجلسه خلفه فتجلل هو وهم بالكساء، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[2].

ومنها: ما رواه ابن كثير في تفسيره قال: «حدثنا شداد بن عمار قال:

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٨.

(٢) جامع البيان، الطبري: ج٢٢ ص١٢؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٩ ص٢٦؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص١١٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٣ ص٢٠٣.

دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا علياً رضي الله عنه فشتموه، فشتمته معهم، فلما قاموا، قال لي: شتمت هذا الرجل ؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم، قال: ألاّ أخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي رضي الله عنه، فقالت: توجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فجلست أنتظره، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهم، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساءه، ثم تلا صلى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق»[1].

ومنها: ما أخرجه أحمد وغيره عن أمّ سلمة، قالت: «فأخذ صلى الله عليه وآله فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت - أم سلمة -: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وآله: إنك إلى خير، إنك إلى خير»[2].

ومنها: ما عن أمّ سلمة أيضاً، قالت:«فلما رآهم مقبلين مدّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يده إلى كساء كان على المنامه، فمده وبسطه،

(١) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٢؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٦٧.
(٢) مسند أحمد: ج٦ ص٢٩٢، تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٢.

وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[١].

ومنها: ما جاء كذلك عن أمّ سلمة، قالت: فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط فجللهم نبي الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا ؟ قالت: فو الله ما أنعم، وقال: إنك إلى خير»[٢].

ومنها: ما ورد في رواية أخرى عن أم سلمة أيضاً قالت: «بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قالت الخادم: إن فاطمة وعلياً بالسدّة، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: (قومي فتنحي عن أهل بيتي)»[٣].

ومنها: ما عن أمّ سلمة أيضاً، قالت: «إن هذه الآية نزلت في بيتي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت يا رسول الله: ألست من أهل البيت ؟ فقال ﷺ: «إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي»[٤].

ومنها: ما ورد عن عائشة، قالت: «لقد رأيت رسول الله ﷺ دعى عليا وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم، فألقى عليهم ثوباً فقال: (أللهم

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٢ – ٤٩٣، مسند أحمد: ج٦ ص٢٩٨ .
(٢) جامع البيان، الطبري: ج٢٢ ص١٢ – ١٣، تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٣.
(٣) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٣.
(٤) جامع البيان: ج٢٢ ص١١، تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٣.

هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)، قالت: فدنوت منهم، فقلت يا رسول الله: وأنا من أهل بيتك ؟ فقال صلى الله عليه وآله: تنحي فإنك على خير»[1].

ومنها: ما عن سعد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة رضي الله عنهم، فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال:«ربي هؤلاء أهلي وأهل بيتي»[2].

وهذا الأسلوب العملي من أبلغ أساليب الحصر، لسدّ كل منافذ الالتباس، حيث تخطى الرسول صلى الله عليه وآله دلالات الكلام بحصرهم تحت كساء واحد، ليكون أبلغ في الحصر وأقوى في الدلالة.

٣ـ لقد صرّح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في نفس الآية التي هي محل البحث تصريحاً لا يبقى فيه مجال للشك والريب، حيث قال صلى الله عليه وآله:«نزلت الآية في خمسة، فيّ، وفي علي وفاطمة وحسن وحسين»[3].

ومن هنا نجد أن كل المذاهب الإسلامية أجمعت على كيفية واقعة الكساء، وأنه صلى الله عليه وآله لما نزل عليه الوحي «بآية التطهير » ضمّ الحسنين وأباهما وأُمهما إليه، ثم غشّاهم ونفسه بذلك الكساء تمييزاً لهم عن سائر الأبناء والأنفس والنساء، ومن ثم بلّغ الأمة بالآية المباركة وهو على تلك الحال،

(١) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٤.

(٣) الدر المنثور، السيوطي: ج٦ ص٦٠٤؛ خصائص الوحي المبين، الحافظ ابن البطريق: ص١٠٦؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٤٠، ص٤٥، ص١٣٧؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١٦٧؛ ترجمة الإمام الحسن، ابن عساكر: ص٦٩.

لكي يقطع الطريق عن كل من يطمع بمشاركتهم، سواء كان من أزواجه أم من الصحابة أم غيرهم، فقال صلى الله عليه وآله وهم في معزل عن الناس كافة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾، فأزاح النبي صلى الله عليه وآله بحجبهم في كسائه كل ما يطرأ على الأذهان من ريب وشك.

٤ـ وإمعاناً في التأكيد ولسدّ كل منافذ التشكيك والريب، أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يتلو هذه الآية الكريمة كل يوم على باب بيت فاطمة الزهراء الذي فيه علي والحسنان وأمهما عليهم السلام، بمرأى ومسمع من المسلمين، وهناك عدد وافر من الروايات التي تثبت ذلك:

منها: ما ورد عن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله قال: رأيت رسول الله إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة رضي الله عنهما، فقال صلى الله عليه وآله: «الصلاة الصلاة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾»[1]، وفي بعض الروايات تسعة أشهر، وفي بعضها الآخر، قال نفيع بن حارث: قلت: يا أبا الحمراء من كان في البيت ؟ قال: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[2].

ومنها: عن ابن عباس قال:«شهدنا رسول الله صلى الله عليه وآله تسعة أشهر، يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول: (السلام عليكم

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤ ص٢٩٠؛ تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٢؛ التاريخ، البخاري: ج٩ ص٢٥ – ٢٦؛ كنى البخاري، للبخاري: ص٢٥ – ٢٦؛ أسد الغابة، ابن الأثير: ج٥ ص٦٦؛ جامع البيان، الطبري: ج٢٢ ص١٠؛ الدّر المنثور: ج٦ ص٦٠٦؛ فتح القدير، الشوكاني: ج٤ ٢٨٠؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ ص٧٤-٧٥.

(٢) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٧٤، نظم درر السمطين: ص٢٣٩.

ورحمة الله وبركاته أهل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾) كل يوم خمس مرات»[1].

ومنها: ما ورد عن أبي بُرزة، قال:«صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله سبعة عشر شهراً، فإذا خرج من بيته أتى باب فاطمة عليها السلام فقال: (السلام عليكم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾) كل يوم خمس مرات»[2].

ومنها: ما رواه ابن كثير في تفسيره عن أنس بن مالك، قال: «إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يمرّ بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: (الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾)، ثم قال ابن كثير: ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عفان»[3].

٥- كذلك من القرائن التي تشهد على حصر أهل البيت بالنبي وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام، دون غيرهم، وجود الحشد الكبير من الروايات الدالة على أن الرسول صلى الله عليه وآله حصرهم بالخمسة عليهم السلام في مواقف أخرى غير حادثة الكساء:

---

(١) الدر المنثور السيوطي: ج٦ ص٦٠٦.

(٢) انظر مسند أحمد: ج٣ ص٢٥٩؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢: ص١٣٩؛ انظر مجمع الزوائد: ج٩ ص١٦٩؛ المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٥٨، وقال: هذا حديث الصحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه؛ أسد الغابة، ابن كثير: ج٥ ص٥٢١؛ مسند الطيالسي: ص٢٧٤؛ وغيرها من المصادر.

(٣) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٢؛ وكذا نقله مسند أحمد: ج٣ ص٢٥٩ ص٢٨٥.

منها ما ورد عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت الآية: ﴿قل تعالوا ندعوا...﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن والحسين فقال: «اللّهم هؤلاء أهلي».

ولذا نجد الواحدي يقول بالحرف الواحد إنّ الآية « آية التطهير» نزلت في خمسة: «النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين»[(١)].

٦- مما يدل أيضاً على عدم شمول آية التطهير لكل بني هاشم، أن الآية جاءت بصدد إثبات العصمة للخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام كما سيأتي، ونحن لم نجد أحداً من بني هاشم ادّعى العصمة لنفسه غير العترة الطاهرة، ولم تثبت العصمة بالأدلة والبراهين القاطعة إلاّ لهم عليهم السلام دون غيرهم.

٧- كذلك من الشواهد الدالة على الحصر ما ورد من الروايات الدالة على أن التمسك بأهل البيت عليهم السلام يكون عاصماً عن الضلال، كما هو مفاد حديث الثقلين: «إنّي تارك..» الذي ورد فيه لفظ أهل البيت، فكيف يكون كل بني هاشم من أهل البيت الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم والتمسك بهم؟ مع أن في بني هاشم من هو الجاهل والفاسق ومن لا يصلح أن يُتمسك به وبهديه، بل منهم من نزلت في ذمه وهلاكه سورة قرآنية، كأبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[(٢)].

وعلى هذا الأساس يتضح أن العناية والاهتمام والتأكيد الذي أولاه

(١) أسباب النزول، الواحدي: ص٢٣٩.
(٢) المسد: ١-٥.

الرسول صلى الله عليه وآله بإعلان أهل البيت عليهم السلام بأسمائهم، وحصرهم بهذه الأساليب المختلفة من البيان، مقرونة بأساليب متنوعة من العمل والتصدي المباشر بالفعل، فيسميهم حيناً بأسمائهم، ويميزهم حيناً آخر، فيقول «هؤلاء أهل بيتي» أو «اللّهم هؤلاء آلي»، ويلفهم حيناً ثالثاً بكساء واحد يجللهم فيه جميعاً، لدرجة أن أم المؤمنين زوجته صلى الله عليه وآله أم سلمة تمنت، بل طلبت منه أن تكون معهم، إلا أنه صلى الله عليه وآله ردّها بلطف ورأفة، قائلاً لها: إنك على خير، وكذا إعلانه بأسمائهم أمام الناس وأمام الملأ واحداً واحداً، والمواظبة على تكرار هذا الإعلان لستة أشهر أو سبعة أو ثمانية أو تسعة ـ على اختلاف الروايات ـ أمام بيت الزهراء عليها السلام في كل يوم خمس مرات في أوقات الصلاة وفي غيرها.

مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يفعل ذلك إلا لحكمة وقصد، كل ذلك يكشف عن أمر جليل وكبير له آثاره وأبعاده في تاريخ المسلمين وحياتهم ودينهم فيما بعد.

٨ ـ الملاحظة الجديرة بالذكر أيضاً أن الدليل الذي اعتمده القائل بدخول كل بني هاشم في أهل البيت عليهم السلام كان معتمده رأياً لزيد بن أرقم، ولم يكن ابن أرقم في صدد نقل رواية عن رسول صلى الله عليه وآله وإنما هو بصدد ذكر رأيه وتحليله الخاص، حيث أخرج أحمد في مسنده عن زيد ابن أرقم، قال:«قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً خطيباً فينا بماء يُدعى خماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال: أما بعد، ألا يا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي عزّ وجلّ فأجيب،

وإني تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله عزّ وجلّ فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغّب فيه، قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم»[١].

ومن الواضح لا يمكن ترجيح تحليل ورأي زيد بن رقم على تلك النصوص المتضافرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وما مارسه صلى الله عليه وآله من أساليب مختلفة للدلالة على أن أهل البيت عليهم السلام هم الخمسة أصحاب الكساء.

(١) مسند أحمد: ج٤ ص٣٦٧.

الخلاصة

١- إنّ الرسول صلى الله عليه وآله شخّص وحدد أسماء أهل البيت في آية التطهير، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كما في رواية عبد الله بن جعفر المتقدمة، ثم دعاؤه بـ(اللهم هؤلاء آلي) الذي لا تخفى دلالته على الحصر في أهل البيت عليهم السلام على كل من له أدنى معرفة بأساليب العرب في الكلام.

٢- وجود عدد وافر من الروايات الصحيحة من طرق العامة تؤكد على أن رسول الله صلى الله عليه وآله جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين تحت كساء واحد وقال:«هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وهذا أسلوب عملي من أبلغ أساليب الحصر، لسد كل المنافذ أمام المشككين، بحيث تجاوز صلى الله عليه وآله دلالات الكلام بهذا العمل ليكون أوقع وآكد في الدلالة.

٣- أجمعت المذاهب الإسلامية على كيفية الواقعة، وكيف أخذ النبي صلى الله عليه وآله الكساء ولف به الحسنين وأباهما وأمهما، ثم غشّاهم ونفسه بذلك تمييزاً لهم عن سائر الأبناء والأنفس والنساء، وقد صرح صلى الله عليه وآله تصريحاً لا يبقى فيه مجال للشك والريب حين قال صلى الله عليه وآله:«نزلت الآية في خمسة: (فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة)».

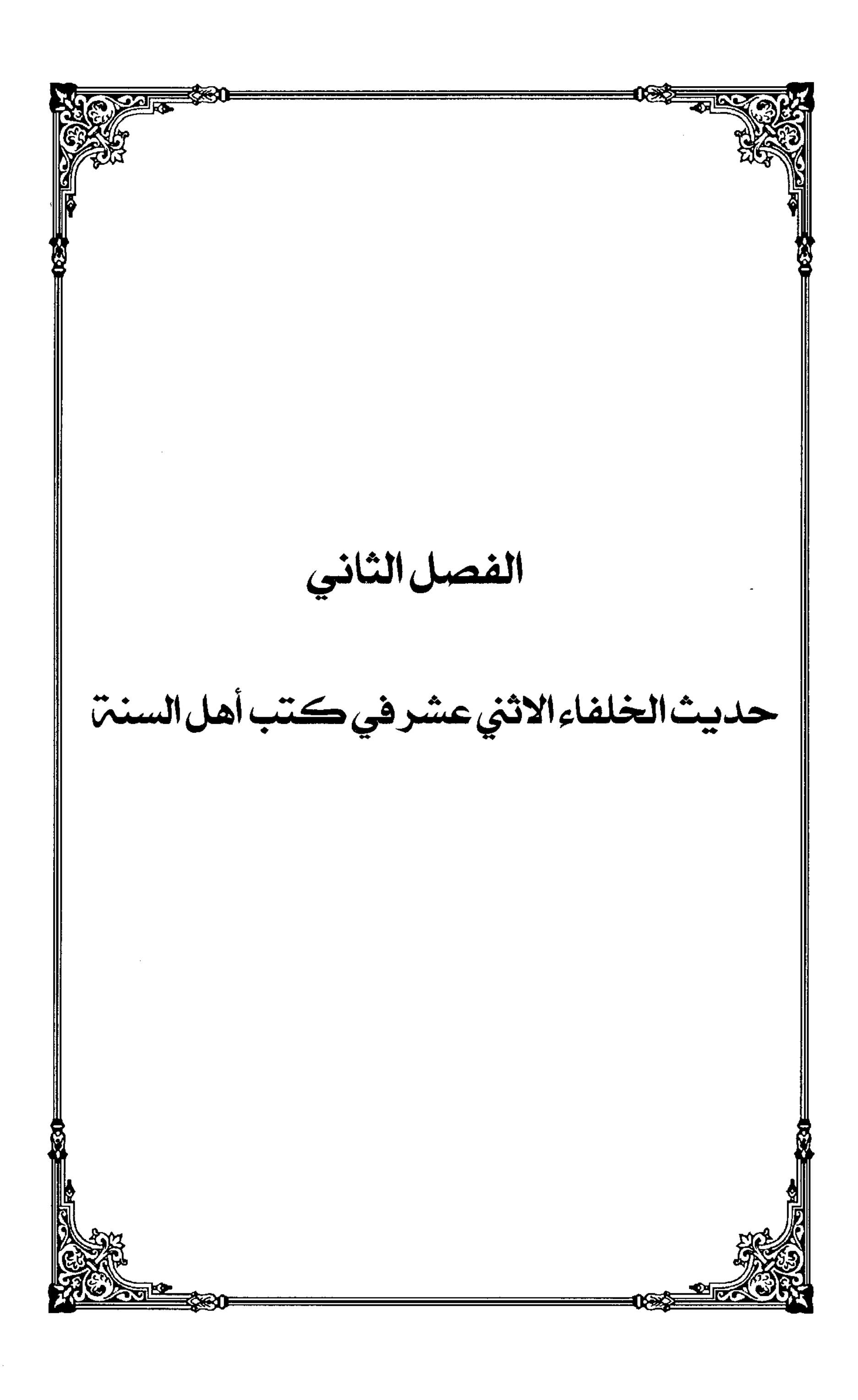
٤- تأكيداً وإمعاناً في حصر نزول آية التطهير في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام أخذ النبي صلى الله عليه وآله يأتي في كل يوم وفي كل وقت صلاة ولمدّة سبعة أو ثمانية أو تسعة أشهر حسب اختلاف الروايات إلى باب

فاطمة عليها السلام ويتلو الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا الأسلوب يعتبر خطة إعلامية متقنة، لتأكيد اختصاص آية التطهير بأهل البيت عليهم السلام.

٥- من الشواهد الأخرى في المقام أيضاً أن آية التطهير جاءت بصدد إثبات العصمة لأهل البيت عليهم السلام الذين قامت الأدلة والبراهين على عصمتهم عليهم السلام وفي الوقت ذاته لم نجد أحداً سواء من بني هاشم أم من أزواج النبي ممن ادعى العصمة لنفسه، وهذا يُشكّل دليلاً قاطعاً على نزول آية التطهير في أهل البيت عليهم السلام.

٦- ما جاء في جملة من الروايات التي أمرنا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بالتمسك بأهل البيت عليهم السلام، كحديث الثقلين ونحوه، فلو كان عنوان أهل البيت يشمل بني هاشم وأزواج النبي صلى الله عليه وآله فكيف يجوز التمسك بهم للنجاة والفوز في الدار الآخرة مع وجود بعض الفاسقين والكافرين من بني هاشم كأبي لهب وأمثاله.

٧- إنّ دليل القائل بشمول آية التطهير لبني هاشم إنما هو رأي لزيد ابن أرقم وليس رواية يرويها عن الرسول صلى الله عليه وآله، ورأي زيد بن أرقم ليس وحياً لكي يكون دليلاً على المقام.



الفصل الثاني

حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة

مدخل

لقد احتلت مسألة تولي الخلافة والقيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مجالاً واسعاً وحيّزاً كبيراً في الفكر والواقع الإسلامي، حيث كشفت سقيفة بني ساعدة عن الطموحات الواسعة لجملة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله في تولّي ذلك المنصب، كما كشفت أيضاً عن طبيعة الصراع الشديد الذي تجاذب أطرافه المجتمعون من الصحابة آنذاك.

وانبثق عن ذلك الاجتماع قيادات لحكومة سياسية مفاجئة، اعترض عليها زعماء الأنصار وأتباعهم، كما غاب عنها كبار الصحابة من المهاجرين، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

واستطاعت تلك القيادات الحكومية بتدبير مسبق بينها أن تكسب الموقف، وتخلق رأياً عامّاً لصالحها، وتجبر الرافضين على السكوت عن إعلان المعارضة لها.

وحيث إنّ النظرية السنية آمنت بمبدأ الإهمال، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهمل مسألة الخلافة، ولم يضع مخططاً واضحاً لقيادة الأمة بعد وفاته، كان من الطبيعي أن تكتسب الخلافة شرعيتها في الذهنية السنّيّة مما انبثق عن السقيفة من حكومة.

وأما النظرية الشيعية في مسألة الخلافة، فهي قائمة على مبدأ التخطيط الإلهي المسبق لقيادة الأمة بعد وفاة نبيِّها، ورفض فكرة الإهمال في مسألة مصيرية في حياة الأمة، وهي الخلافة.

وإذا كانت النظرية الشيعية قائمة على فكرة التخطيط المسبق لمسألة

وفي مقام الجواب عن هذا التساؤل نقول:

إنّ القرآن الكريم والسنة النبويّة حافلان بالبيانات التفصيليّة لرسم معالم الحكومة والخلافة الإلهية بعد النبي الأكرمﷺ، ولا نريد الخوض في كل ما ورد في هذا المجال لأنّ هذا يجرّنا إلى مبحث الإمامة، ولكن نريد التوقف قليلاً عند أحد جوانب السنة النبوية المباركة، وهو ما تضمنته من تأكيد على فكرة الاثني عشر خليفة الذين يقومون بالأمر بعد النبيﷺ وتكون عزة الإسلام باتّباعهم والتمسك بهم.

وسنحاول في هذا الفصل استعراض أهم الروايات الشريفة التي تضمنت مبدأ خلافة الاثني عشر خليفة من المصادر السنية المعتبرة، والوقوف على أهم التفسيرات والتوجيهات التي أبداها أعلام أهل السنة حول تلك الأحاديث مع تقييم تلك التفسيرات.

ومن ثم ننتقل إلى بيان التفسير الواقعي لتلك الأحاديث، مدعوماً بالشواهد الواضحة والحقائق الناصعة.

حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة

الشبهة المطروحة حول الحديث

حاول البعض أن يشكك في فكرة الاثني عشر خليفة قائلاً: إن فكرة الاثني عشر التي يدعيها الشيعة الإمامية، فكرة يهودية تعود إلى زعيم يهودي قديم ورد في كتاب دانيال، وإن دعوى وجودها في صحيح البخاري، كذب !!.

وإن حديث الخلفاء الاثني عشر الموجود في صحيح مسلم يتكلم عن أن الإسلام يبقى عزيزاً منيعاً في عهدهم، وأن هؤلاء الأئمة تجتمع عليهم الأمّة، كما في سنن أبي داود، وكل هذه الصفات لا تنطبق على أئمّة الشيعة !![1].

وفي مقام الجواب عن هذه الشبهة نقول:

إنّ البعض قد يتنكر لمبادئه التي أسّسها، وصحّحها، واعتمد عليها إذا وجدها تصبّ في مصلحة من يخالفه الرأي.

وهذا ما نلمسه عند صاحب الشبهة، حيث أنكر حديث الاثني عشر خليفة الذي تثبته الصحاح المعتبرة، التي اعتمد عليها وجعلها أصح الكتب بعد القرآن الكريم، وذلك عندما وجده يسجل رقماً إيجابياً في إثبات حقّانية المذهب الشيعي.

ولا يخفى على القارئ ما في تكذيبه للحديث من إنكار لحقيقة مهمة

(١) مقتبس من كلام عثمان الخميس على قناة المستقلة.

يسيراً للكتب الحديثية المعتبرة عند أهل السنة، لوجدناها مشحونة بالروايات الصحيحة والصريحة التي نصّت على الاثني عشر خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، بمواصفاتهم وخصوصياتهم.

حديث الاثني عشر في كتب أهل السنة:

وإليك جملة من المصادر التي نقلت هذه الحقيقة، المتسالم عليها عند أعلام السنة:

١- أخرج البخاري وأحمد والبيهقي وغيرهم بسندهم، عن جابر بن سمرة، قال: **«سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: يكون اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: كلّهم من قريش»**[١].

قال البغوي: هذا حديث متفق على صحته[٢].

٢- وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة، قال: **«دخلت مع أبي على النبي صلى الله عليه وآله فسمعته يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي، ما قال؟ قال: كلّهم من قريش»**[٣].

٣- وأخرج مسلم أيضاً، وأحمد ـ واللفظ للأول ـ عن جابر بن سمرة، قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً، ثم تكلّم النبي صلى الله عليه وآله بكلمة خفيت عليَّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام: باب ٥١، ج٤ ص٣٧٥ ح٧٢٢٢ - ٧٢٢٣؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٨٧ ص ٩٠ ص ٩٦؛ دلائل النبوة، البيهقي: ج٦ ص٥١٩.

(٢) شرح السنة، البغوي: ج٧ ص٤٢٢ ح٤١٣٢.

(٣) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص١٤٥٢؛ كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش؛ وقد نقل مسلم هذا الحديث بتسعة طرق.

رجلاً، ثم تكلّم النبي صلى الله عليه وآله بكلمة خفيت عليَّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: كلّهم من قريش»[١].

٤- وأخرج مسلم أيضاً، وأحمد، والطيالسي، وابن حبان، والخطيب التبريزي، وغيرهم، عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **«لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: كلّهم من قريش»**[٢].

٥- وأخرج مسلم ـ واللفظ له ـ وأحمد، وابن حبان، عن جابر بن سمرة، قال: انطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي أبي فسمعته يقول: **«لا يزال هذا الدين عزيزا منيعاً إلى اثني عشر خليفة، فقال كلمة صمّنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلّهم من قريش»**[٣].

٦- وأخرج مسلم ـ واللفظ له أيضاً ـ وأحمد، عن جابر بن سمرة قال: **«سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم جمعة، عشية رجم الأسلمي يقول: لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلّهم من قريش»**[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه: وكذا مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٩٨ ص١٠١؛ قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج١ ق٢ ص٧١٩: «وهذا إسناد صحيح على شرطهما».

(٢) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص١٤٥٣؛ كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش؛ ومسند أحمد بن حنبل: ج٥ ص٩٠ ص١٠٠؛ مسند أبي داود الطيالسي: ص١٠٥ ص١٨٠؛ مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي: ج٣ ص١٦٨٧؛ وقال التبريزي: «متفق عليه»؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص٤٤.

(٣) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص١٤٥٣؛ كتاب الإمارة؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٩٨ ص١٠١؛ وفي ص٩٦ قال: «عزيزاً منيعاً ظاهراً على من ناواه ولا يضره من فارقه أو خالفه»؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص٤٤.

(٤) صحيح مسلم،النيسابوري: ج٣ ص١٤٥٣؛ كتاب الإمارة؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٨٨ ص٨٩؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: ج١ ق٢ ص٧٢٠.

الله صلى الله عليه وآله: يكون من بعدي اثنا عشر أمير اً، ثم تكلم بشيء لم أفهمه، فسألت الذي يليني، فقال: قال: كلّهم من قريش» (١).

٨- وأخرج أبو داود حديث الخلفاء الاثني عشر بطريقين صحيحين (٢)، قال في أحدهما: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، قال: فكبّر الناس وضجوا، ثم قال كلمة خفيّة، قلت لأبي، يا أبه ما قال؟ قال: كلّهم من قريش» (٣).

٩- وأخرج أحمد، وأبو نعيم، والبغوي عن جابر بن سمرة، قال: «سمعت **رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يكون بعدي اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»** (٤).

١٠- وأخرج أحمد بن حنبل في المسند -واللفظ له- والحاكم النيسابوري في المستدرك، عن جابر بن سمرة، قال: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في حجة الوداع: لا يزال هذا الدين ظاهراً على من ناواه، لا يضره مخالف، ولا مفارق، حتى يمضي من أمتي اثنا عشر أميراً كلهم، ثم خفي من قول رسول الله صلى الله عليه وآله... قال: يقول: كلّهم من قريش»** (٥).

١١- وأخرج أبو عوانة أيضاً في مسنده، عن جابر بن سمرة، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيفاً لا يضره من ناوأه حتى تقوم الساعة**

(١) سنن الترمذي: ج٣ ص٣٤٠؛ قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٩٢ ص٩٤ ص٩٩ ص١٠٨.
(٢) صححهما الألباني في صحيح سنن أبي داود: ج٣ ص١٩ ح ٤٢٨٠.
(٣) سنن أبي داود: ج٤ ص٨٦؛ كتاب المهدي وفيه: «ثم لغط القوم وتكلّموا» وفي نفس الصفحة «فجعل الناس يقومون ويقعدون».
(٤) مسند أحمد، ابن حنبل: ج١٥ ص٩٢؛ حلية الأولياء: ج٤ ص٣٣٣؛ شرح السنة، البغوي: ج٧ ص٤٢٢ ح ٤١٣١؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص٤٣؛ قال البغوي: «هذا حديث صحيح».
(٥) مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٨٧-٨٨؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص٦١٨.

رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيفاً لا يضره من ناوأه حتى تقوم الساعة إلى اثني عشر خليفة، كلهم من قريش»[1].

١٢- وأخرج ابن حجر والقسطلاني والخطيب البغدادي قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تهلك هذه الأمة حتى يكون فيها اثنا عشر خليفة، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق»[2].

١٣- وأخرج أحمد، والحاكم في المستدرك، والهيثمي في مجمع الزوائد عن الطبراني في المعجم الأوسط، والكبير، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال أمر أمتي صالحاً حتى يمضي اثنا عشر خليفة...»[3].

١٤- وأخرج أحمد في مسنده، والهيثمي في مجمع الزوائد، وابن حجر في المطالب العالية، والبوصيري في مختصر الإتحاف، عن مسروق، قال: «أما سألت النبي صلى الله عليه وآله كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ قال: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك [ثم] قال: نعم ولقد سألناها، فقال: اثنى عشر كعدة نقباء بني اسرائيل»[4].

---

(١) مسند أبي عوانة: ج٤ ص٣٦٩ ح٦٩٧٦.

(٢) فتح الباري: ج١٣ ص١٨٤؛ تاريخ بغداد: ج٤ ص٢٥٨.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص٦١٨؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٩٧ ص١٠٧؛ مجمع الزوائد: ج٥ ص١٩٠؛ قال الهيثمي: «رجال الطبراني رجال الصحيح»، ورواه عن جابر في ص١٩١ وقال: «رجاله ثقات».

(٤) مختصر الاتحاف، البوصيري: ج٦ ص٤٣٦ ح٤٩٣٣؛ وكذا انظر مسند أحمد، ابن حنبل ج١ ص٣٩٨؛ المستدرك، ج٤ ص٥٠١؛ المطالب العالية: ج٥ ص٤٦؛ مجمع الزوائد: ج٥ ص١٩٠؛ وهذا حديث حسنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: ج١٣ ص٨٣؛ وابن حجر الهيتمي في تطهير الجنان واللسان (ضمن الصواعق المحرقة): ص١٩، ونقله السيوطي في تاريخ الخلفاء: ص١٥.

الأكرم صلى الله عليه وآله من طرق أهل البيت عليهم السلام حول الخلفاء الاثني عشر، إلاّ أن ما تقدم يكفي لإثبات المطلوب.

وعلى ضوء ما سلف يتضح أن حديث الاثني عشر خليفة حقيقة إسلامية صادرة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مسلّمة لا غبار عليها، فلا مجال لما يقال من أنها فكرة يهودية أخذها الشيعة من كتاب دانيال!.

ولعل المستشكل لم يكن مطلعاً على الشخص الذي رجع إلى كتب اليهود وأخذ منها، بعد عجزه عن تفسير حديث الاثني عشر، كما نقل ذلك ابن حجر العسقلاني، عن أبي الحسين ابن المنادي، حيث قال: «قال أبو الحسين ابن المنادي، في الجزء الذي جمعه في المهدي: (يحتمل في معنى حديث (يكون اثنا عشر خليفة) أن يكون هذا بعد المهدي، الذي يخرج في آخر الزمان، فقد وجدت في كتاب دانيال، إذا مات المهدي....»[1].

ومن هنا لا نجد مجالاً لإنكار هذه الروايات المتواترة، ولذا التجأ العلماء من الفريقين إلى تفسيرها دون تكذيبها.

من هم الخلفاء الاثنا عشر؟

بعد أن اتفق المسلمون على هذه الحقيقة التي كشف النقاب عنها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن الخلفاء من بعده اثنا عشر خليفة، نجد أن الكثير من محدثي ومفسري أهل السنة واجهوا إشكالية صعبة في تعيين الخلفاء الاثني عشر؛ لأنهم من جهة إن أخذوا بظواهر النصوص - الواردة في الخلفاء الاثني عشر - فإن ذلك يتناقض، ويتنافى مع ما تسالموا عليه في

(١) نقلاً عن فتح الباري: ج١٣ ص١٨٤.

الخلفاء الاثني عشر - فإن ذلك يتناقض، ويتنافى مع ما تسالموا عليه في مسألة الخلافة لديهم، ولما رووه صحيحاً عن رسول الله ﷺ أن الخلافة من بعده ثلاثون عاماً، ثم تكون ملكاً عضوضاً، ومن جهة أُخرى إنّ رفض هذه النصوص لا تسمح به القوة السَنَدية التي تملكها، وعلى هذا الأساس تباينت الآراء وتناقضت التفاسير حول هذه الحقيقة وتضاربت التصريحات والردود بعضها مع البعض الآخر، فتجدهم تارة يعبرون بـ (وقع لي فيه شيء) أو (قيل) أو (الذي يغلب على الظن)، أو (والله أعلم بمراد نبيه)، وإكثارهم من قول (والله أعلم) بين الحين والآخر، مما يكشف عن تخبطهم، وحيرتهم في تفسير حديث الخلفاء تفسيراً واقعياً صحيحاً، وإليك أبرز تلك المحاولات التفسيرية:

محاولات أهل السنة في تفسير حديث الخلفاء

المحاولة الأولى: لابن العربي

قال: «فعددنا بعد رسول الله ﷺ اثني عشر أميراً فوجدنا أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً والحسن ومعاوية ويزيد ومعاوية بن يزيد، ومروان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد بن مروان والسفاح...» إلى أن قال: «وإذا عددنا منهم اثني عشر انتهى العدد بالصورة إلى سليمان، وإذا عددناهم بالمعنى كان معنا منهم خمسة: الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز، ولم أعلم للحديث معنى!!»[1].

(١) شرح صحيح الترمذي، ابن العربي: ج٩ ص٦٨.

المحاولة الثانية: لابن المهلب

قال: «لم ألق أحداً يقطع في هذا الحديث ـ يعني بشيء معين ـ فقوم قالوا يكونون بتوالي إمرتهم، وقوم قالوا يكونون في زمن واحد كلهم يدعي الإمارة، قال: والذي يغلب على الظن أنه (عليه الصلاة والسلام) أخبر بأعاجيب تكون بعده من الفتن، حتى يفترق الناس في وقت واحد على اثني عشر أميراً، قال: ولو أراد غير هذا لقال يكون اثنا عشر أميراً يفعلون كذا، فلما أعراهم من الخبر عرفنا أنه أراد أنهم يكونون في زمن واحد»، وعلق ابن حجر على ذلك بقوله: «وهو كلام من لم يقف على شيء من طرق الحديث غير الرواية التي وقعت في البخاري هكذا مختصرة»[(١)].

المحاولة الثالثة: للسيوطي

قال فيها: «فقد وجد من الاثني عشر خليفة: الخلفاء الأربعة، والحسن ومعاوية وابن الزبير وعمر بن عبد العزيز، هؤلاء ثمانية، ويحتمل أن يضم إليهم المهتدي من العباسيين؛ لأنه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، وكذلك الطاهر لما أوتيه من العدل، وبقي الاثنان المنتظران أحدهما المهدي؛ لأنه من آل بيت محمد صلى الله عليه وآله»[(٢)].

وقد علّق عليه الأستاذ أبو ريّة بقوله: «ولم يبين المنتظر الثاني!! ورحم الله من قال في السيوطي: إنه حاطب ليل»[(٣)].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج١٣ ص١٨٢.

(٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي: ص١٦.

(٣) أضواء على السنة المحمدية: ص٢٣٥.

المحاولة الرابعة: لأبي الحسين ابن المنادي

قال في الجزء الذي جمعه في المهدي: «يحتمل في معنى حديث (يكون اثنا عشر خليفة) أن يكون هذا بعد المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، فقد وجدت في كتاب دانيال: إذا مات المهدي ملك بعده خمسة رجال من ولد سبط الأكبر، ثم خمسة من ولد السبط الأصغر، ثم يوصي آخرهم بالخلافة لرجل من ولد السبط الأكبر، ثم يملك بعده ولده، فيتم بذلك اثنا عشر ملكاً كل واحد منهم إمام مهدي»[(١)]، وقد ردّه ابن حجر بقوله: «والوجه الذي ذكره ابن المنادي ليس بواضح»[(٢)].

المحاولة الخامسة: للقاضي عياض

قال النووي: «وقال القاضي عياض في جواب القول: أنه وليَ أكثر من هذا العدد؟، قال: وهذا اعتراض باطل؛ لأنه (صلى الله عليه وسلم) لم يقل: لا يلي إلا اثنا عشر خليفة، وإنما قال: يلي، وقد ولي هذا العدد، ولا يضر كونه وجد بعدهم غيرهم... ويحتمل أوجهاً أُخر، والله أعلم بمراد نبيه»[(٣)].

المحاولة السادسة: لابن الجوزي

حيث قال في كشف المشكل: «قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث وتطلبت مظانّه، وسألت عنه فلم أقع على المقصود به؛ لأن ألفاظه مختلفة، ولا أشك أنّ التخليط فيها من الرواة، ثم وقع لي فيه شيء...»[(٤)].

---

(١) نقلاً عن فتح الباري: ج١٣ ص١٨٤.
(٢) فتح الباري: ج١٣ ص١٨٥.
(٣) شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٢ ص٢٠١ - ٢٠٣.
(٤) فتح الباري: ج١٣ ص١٨٣.

أمية قال: «وأوّل بني أميّة يزيد بن معاوية، وآخرهم مروان الحمار، وعدتهم ثلاثة عشر، ولا يعدّ عثمان ومعاوية، ولا ابن الزبير؛ لكونهم صحابة، فإذا أسقطنا منهم مروان بن الحكم - للاختلاف في صحبته، أو لأنه كان متغلباً بعد أن اجتمع الناس على عبد الله بن الزبير - صحّت العدّة»(١).

وقال ابن حجر في معرض تعليقه على كلام ابن الجوزي: «وأمّا محاولة ابن الجوزي... ظاهر التكلف»(٢).

المحاولة السابعة: للبيهقي

قال فيها: «وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم وقع الهرج والفتنة العظيمة، ثم ظهر ملك العباسية، وإنما يزيدون على العدد المذكور، إذا تركت الصفة المذكورة فيه أو عد منهم من كان بعد الهرج المذكور فيه»(٣).

وردّه ابن كثير بقوله: «فهذا الذي سلكه البيهقي وقد وافقه عليه جماعة، من أنّ المراد بالخلفاء الاثني عشر المذكورين في هذا الحديث هم المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق، الذي قدّمنا الحديث فيه بالذم والوعيد فإنه مسلك فيه نظر... وعلى كل تقدير فهم اثنا عشر، قبل عمر بن عبد العزيز، فهذا الذي سلكه على هذا التقدير يدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية، ويخرج منهم عمر بن عبد العزيز، الذي أطبق الأئمة على شكره وعلى مدحه، وعدّوه من

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج١٣ ص١٨٣.
(٢) المصدر نفسه: ج١٣ ص١٨٥.
(٣) نقله عن البيهقي ابن كثير في البداية والنهاية: ج٦ ص٢٧٩.

الخلفاء الراشدين»[١].

وفي نهاية المطاف يتضح تعثر المحاولات التي تحركت في إنجاز هدفها، وأنتجت تفسيرات تختزل في داخلها التكلّف والحيرة والارتباك.

التفسير الواقعي لحديث الاثني عشر

أمّا الشيعة الإمامية، فلم يحتاجوا إلى مزيد بحث، وعناء، في تفسير أحاديث الخلفاء الاثني عشر، وأنهم العترة الطاهرة، المتمثلة في أهل البيت عليهم السلام بشكل واضح، لا سيما بملاحظة الروايات التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وما تضمنته من روح استدلالية لا تقبل الترديد في إثبات المطلوب.

وقبل أن نلج في البحث، لابد من تقديم نقطة منهجية تساهم في بناء إطار واضح ومحدد للموضوع وتحول دون الوقوع في الاشتباه.

وهي أننا يتوجب علينا أن نلقي الضوء على تلك الروايات الواردة في الخلفاء الاثني عشر؛ لنبصر ما تضمنته تلك الروايات من خصائص ومواصفات ومميزات للخلفاء الاثني عشر، حيث نجد في بعضها التعبير بأن (عزةّ الإسلام ونصرته تكون بهم)، وأن (بقاء الدين إلى قيام الساعة بهم)، وأن (وجودهم مستمر إلى آخر الدهر)، وأن (قيام الدين إلى قيام الساعة بهم)، وأنهم (القيمين على الدين)، و (إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها)، وأن (صلاح أمر الأمة والناس بهم)، وأنهم (كلهم يعمل بالهدى ودين الحق)، وأنهم (كلهم من قريش)، وأنهم (لا يضرهم خذلان من خذلهم ولا عداوة من عاداهم)، وأنهم

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٧٩ - ٢٨٠.

(كعدة نقباء بني إسرائيل)، والأهم من ذلك كله تحديدهم بعدد (اثني عشر) بلا زيادة أو نقصان.

وبملاحظة هذه الامتيازات، والخصوصيات، التي يتصف بها الخلفاء الاثنا عشر، لا يتردد أحد في صدقها، وانطباقها على أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ولكي تكون الإجابة واضحة لا تحتمل اللبس، والإيهام، نشير إلى عدّة قرائن وشواهد، نلمس من خلالها جوهر وحقيقة الأحاديث، وتفسيرها تفسيراً واقعياً، وإليك جملة من تلك الشواهد والقرائن التي توجب القطع واليقين بأن المراد بالخلفاء الاثني عشر هم أهل البيت عليهم السلام:

جملة من الشواهد على المراد الواقعي

١- إذا أنعمت النظر في بعض الخصائص والمميزات التي تضمنتها نصوص الاثني عشر خليفة، من قيام الدين بهم، وقيموميتهم على الدين فهم **«اثنا عشر قيماً من قريش، لا يضرهم من خذلهم، ولا عداوة من عاداهم»**(١)، **«لا يزال الدين قائماً»**(٢)، وكونهم **«أمان لأهل الأرض»**(٣)، **«أمان لأمتي»**(٤)، «فإذا

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج٢ ص١٩٦، وفي ص٢٥٦ نقل فيها عبارة «لا يضرهم عداوة من عاداهم»؛ المعجم الأوسط، الطبراني: ج٣ ص٢٠١، نقل فيه عبارة «لا يضرهم من خذلهم»؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٩١ وذكر «أن رجاله ثقات» ونقل فيه عبارة «عداوة من عاداهم»؛ الحد الفاصل، الرامهرمزي: ص٤٩٤.

(٢) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص١٤٥٣؛ كتاب الإمارة؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٥ ص٨٦ ص٨٨ ص٨٩؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: ج٢ ص٦٥٤ ح٩٦٤.

(٣) المستدرك: ج٣ ص١٤٩؛ وقال فيه «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وغير ذلك من المصادر.

(٤) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤٢٦، ذخائر العقبى، أحمد بن عبد الله الطبري: ص١٧.

هلكوا ماجت الأرض بأهلها»[١]، لاسيما إذا ضممنا إليها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله صحيحاً ومتواتراً، أن «الأرض لا تخلو من حجة»[٢]، وكذا «من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية»[٣]، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان»[٤]، يتجلى لنا أنها تسجل بمجموعها معنى مشتركاً فيما بينها، وهو أن هذه الخصوصيات لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا كان أولئك الخلفاء الاثنا عشر على شكل سلسلة واحدة متكاملة ومتناسقة ومتوالية زماناً، وهذا لا ينسجم ولا ينطبق إلاّ على العترة الطاهرة عليهم السلام، على العكس من تفاسير علماء السنة المتقدمة، التي تطغى عليها حالة من التشويش والتكّلف وعدم التناسق، والتواصل فيما بينها.

٢- من الخصوصيات الأخرى التي سجلتها روايات الاثني عشر إلى جانب الخصوصية الأولى، هي صفة (بقاؤهم ما بقي الدين، حتى تقوم الساعة)، وهذه الحقيقة لا تتجسد إلاّ في أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومن أوضح ما يثبت ذلك:

---

(١) المعجم الكبير الطبراني: ج٢ ص١٩٦ ح١٧٩٤؛ كنز العمال: ج١٢ ص٣٤ ح٣٣٨٦١.

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج٥٠ ص٢٥٥؛ انظر: المناقب، الخوارزمي: ص٣٦٦؛ انظر: تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٦؛ انظر: ينابيع المودة: ج١ ص٨٩

(٣) صحيح ابن حبان: ج١٠ ص٤٣٤، انظر: مسند أحمد، ابن حنبل: ج٣ ص٤٤٦؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج١٩ ص٣٨٨؛ سنن البيهقي: ج٨ ص١٥٦؛ المعيار والموازنة: ص٢٤؛ المعجم الأوسط، الطبراني: ج٦ ص٧٠؛ مجمع الزوائد: ج٥ ص٢١٨ ص٢٢٤ ج٩: ص١١١ ص١٢١؛ مسند الطيالسي: ص٢٥٩؛ مسند أبي يعلى: ج١٣ ص٣٦٦ ح٧٣٧٥.

(٤) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص١٤٥٢ ح١٨٢٠؛ مسند أحمد، ابن حنبل: ج٢ ص٢٩ ص٩٣؛ السنن الكبرى: البيهقي: ج٣ ص١٢١؛ فتح الباري: ج١٣ ص١٠٤؛ الجامع الصغير: ج٢ ص٧٥٦ ح٩٩٦٩؛ وغيرها من المصادر الأخرى.

أ- حديث الثقلين «إنّي تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض؛ فانظروا كيف تخلّفوني فيهما»[1] والنفي التأبيدي للافتراق بين الكتاب والعترة الطاهرة لا يتحقق إلاّ بديمومة أهل البيت عليهم السلام، وبقائهم ما بقي القرآن والدين، وإلاّ فلو فرض افتقاد أهل البيت عليهم السلام في فترة معينة، يلزم من ذلك افتراق القرآن عن العترة، وهو ينافي حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ب- الاعتقاد بوجود الإمام الثاني عشر، وأنه الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، وأنه من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه حي يرزق - كما هو معتقد الشيعة الإمامية - يسجل التقاءً جلياً مع مضمون روايات الخلفاء الاثني عشر في خصوصية كون بقائهم ما بقي الدين إلى قيام الساعة، لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأحاديث السابقة الذكر: «لا تخلو الأرض من حجة»، و«من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية».

٣- تشبيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الخلفاء الاثني عشر من بعده بنقباء بني إسرائيل، وحواريي عيسى - كما تقدم - يدل على كون الخلفاء أوصياء منصبين بتعيين خاص، كما هو الحال بالنسبة لنقباء موسى وحواريي عيسى عليه السلام، وهذا التنصيب والتعيين يفرضه عظم وحجم المسؤولية الملقاة على عاتق النقيب، بحسب تعبير الآية؛ لأن النقيب هو الأمين والرئيس

---

(١) أخرج الحديث مسلم في صحيحه: ج٤ ص١٨٧٣ ح٢٤٠٨؛ والترمذي في سننه: ج٥ ص٣٢٨، ٣٢٩؛ وأحمد في مسنده: ج٣ ص٥٩؛ وغيرها من المصادر العديدة جداً، والحديث متفق على صحته بين الفريقين، بل إن له طرقاً عديدة جداً تصل إلى حد التواتر.

الكبير، المقدّم على القوم، الذي يتعرّف أخبارهم، وينقّب عن أحوالهم، ويعرف مناقبهم، ودخيلة أمرهم، ويدبّر مصالحهم، وقد أخرج السيوطي في تفسيره عن ابن جرير بن الربيع: «قال: النقباء، الأمناء»[١]، ونقل الفخر الرازي في ذيل آية ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ : **«إن النقيب هاهنا فعيل بمعنى مفعول، يعني اختارهم على علم بهم، قال الأصم: هم المنظور إليهم، والمسند إليهم أمور القوم وتدبير مصالحهم»**[٢].

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **«اثنا عشر خليفة، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق، لا يضرهم من خذلهم»**[٣]، وهذا هو الدور الذي أُنيط بأهل البيت عليهم السلام، كما روي عن عمر، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: **«في كل خلوف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عزّ وجلّ فانظروا من توفدون»**[٤].

وعلى هذا الأساس يثبت لأوصياء وخلفاء نبينا صلى الله عليه وآله ما ثبت لأوصياء موسى وعيسى عليهما السلام من التنصيب والتعيين الخاص، وهو ما لم يثبت لغير أهل البيت عليهم السلام.

٤- المؤهلات والخصائص الاستثنائية، التي يمتلكها أهل البيت عليهم السلام،

---

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٣ ص٤٠.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي: ج٦ ص١٨٨-١٨٩.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني: ج٢ ص١٩٦، ٢٥٦؛ المعجم الأوسط: ج٣ ص٢٠١؛ انظر: فتح الباري: ج١٣ ص١٨٤.

(٤) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٢٣١؛ انظر: ذخائر العقبى، محب الدين الطبري: ص١٧؛ انظر: ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص١١٤.

والتي يفرضها واقعهم وسيرتهم العملية بين المسلمين بإجماع أهل العلم، وعلى جميع المستويات الفكرية، والإيمانية والروحية والنفسية والرسالية وغيرها، تحتم على الباحث المنصف تفسير الحديث بهم، ويمكن أن نلمس ذلك من خلال ما يأتي:

أولا: النصوص القرآنية كآية المودة، وآية هل أتى، وآية التطهير والاصطفاء وغيرها، وكذلك الأحاديث النبوية، من حديث الثقلين، وحديث السفينة، وحديث الكساء، وغيرها.

ثانيا: الواقع التاريخي الذي برهن وبكل وضوح وصدق على عمق تجسيدهم عليهم السلام للمفاهيم الإسلامية والرسالية، وعمق تحمّلهم لأدوارهم، وقيامهم بالمسؤوليات التي أُوكلت لهم، فإن كل الدراسات التي عنيت بتدوين ودراسة التاريخ تؤكّد حقيقة التميّز في شخصياتهم، ومؤهلاتهم العلمية والقيادية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها، لا سيما إذا أبصرنا تلك التصريحات الصادرة من رجاليين ومؤرخين وباحثين ممن عاصروا الأئمة عليهم السلام، وممن لم يعاصروهم، فقد أجمعت هذه الكلمات على الاعتراف لأهل البيت عليهم السلام بالموقع المتفرد والاستثنائي في العلم والورع والخُلُق والفضل والشرف والسمو والكمال والحسب والنسب وأهليتهم للإمامة والخلافة، كما نقلنا ذلك مفصلاً في الجواب عن شبهة متقدمة، وإليك بعض تلك الشواهد:

ألف- قول أحمد بن حنبل: «**ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من**

الفضائل، ما جاء لعلي بن أبي طالب عليه السلام»[1]، وفضل أمير المؤمنين عليه السلام ودوره في الإسلام غني عن البيان فلا نطيل فيه الحديث.

ب- وأما فضل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ودورهما في الإسلام، ودفاعهما عن شريعة جدّهما صلى الله عليه وآله، وما قاما به من إصلاح في الأمة الإسلامية، ووقوفهما سداً منيعاً أمام كل المحاولات التي تستهدف النيل من الرسالة الإسلامية، لما يحملانه من خصائص، ومميزات وقد تواترت الروايات في علو شأنهما وسمو مقامهما، كل ذلك جعل لهما الدور الفاعل في التأثير البليغ في المسلمين، سواء على الصعيد الفكري، أو الاجتماعي، أو غيرهما، كل ذلك في زمن أصبحت الحياة الإسلامية فيه مسرحاً للخلافات، والجرائم والآثام، وأصبحت فيه الحكومة ملكاً عضوضاً يتوارثه بنو أمية فيما بينهم بالقهر والغلبة، وقد انبرى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام في ذلك الحين لمعالجة الواقع المرير، وقد جاء في مجامع أحاديث السنة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حق ابنه الحسن عليه السلام: **«إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**[2]، وقال صلى الله عليه وآله في حق ابنه الحسين عليه السلام: **«حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه، الحسن والحسين سبطان من الأسباط»**[3].

---

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٠٧.

(٢) صحيح البخاري: ج٢ ص١٧٩ ح٢٧٠٤؛ الصواعق المحرقة، ابن حجر: ص٢٩١، وغيرها من المصادر الكثيرة جداً من الفريقين.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني: ج٣ ص٣٢ ج٢٢ ص٢٧٤، الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٥٧٥، فيض القدير في شرح الجامع الصغير، المناوي: ج٣ ص٥١٣، التاريخ الكبير، البخاري: ج٨ ص٤١٥، البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٢٢٤، وفي صحيح الجامع الصغير، الألباني: ج١ ص٦٠٢ ح٣١٤٦، قال عن الحديث بأنه: (حسن)، وغيرها من المصادر الكثيرة.

ولذا قام الإمام الحسين عليه السلام ثائراً على الظلم آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مضحياً بنفسه وأهل بيته في سبيل إعلاء كلمة الحق، طالباً الإصلاح في أمة جده صلى الله عليه وآله عندما لاحظ الممارسات البعيدة عن روح الدين والأخلاق من قبل الحكومة آنذاك، حينما اتخذت الإسلام ستاراً لتغطية جرائمها وممارساتها المتهتكة، ولذا قال عليه السلام عندما خرج متوجها إلى الكوفة: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[1]، وقد قال الذهبي في مدحهما وبيان موقعهما القيادي في الأمة عليهما السلام: «فمولانا الإمام علي من الخلفاء الراشدين وابناه الحسن والحسين فسبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدا شباب أهل الجنة، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك»[2].ولا نطيل الحديث في ذلك بعد أن ثبت أنهما عليهما السلام إمامان قاماً أو قعداً.

ج- قول مالك في الإمام زين العابدين: «سُمّي زين العابدين لكثرة عبادته»[3].

د- قول أبي حنيفة عندما سئل: من أفقه من رأيت؟ قال: «ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد»[4].

هـ - قول الذهبي في ترجمته للإمام المهدي المنتظر عليه السلام: «ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة، وأنه صاحب الزمان، وأنه حي لا يموت

---

(١) مقتل الحسين، الخوارزمي: ص٢٧٣، الفتوح، ابن أعثم الكوفي: ج٥ ص٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢٠.

(٣) نور الأبصار، الشبلنجي: ص١٩١.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٦ ص٢٥٧، تذكرة الحفاظ، الذهبي: ج١ ص١٦٦.

حتى يخرج، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً. فوددنا ذلك ـ والله ـ فمولانا علي: من الخلفاء الراشدين، وابناه الحسن والحسين: فسبطا رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيدا شباب أهل الجنة، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر، ومن سادة العلماء العاملين يصلح للإمامة.

وكذلك ابنه أبو جعفر الباقر: سيد إمام، فقيه، يصلح للخلافة.

وكذا ولده جعفر الصادق: كبير الشأن، من أئمة العلم، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى: كبير القدر، جيد العلم، أولى بالخلافة من هارون.

وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن، له علم وبيان، ووقع في النفوس، صيّره المأمون ولي عهده لجلالته.

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه.

وكذلك ولده الملقب بالهادي: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري. رحمهم الله تعالى»[(١)].

٥- إنّ من الملاحم التي نصّت عليها أحاديث الاثني عشر خليفة، هو حصول المعاداة والخذلان لأولئك الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كالتعبير بأنهم «لا يضرهم من خذلهم»[(٢)]، «ولا تضرهم عداوة من عاداهم»[(٣)].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٣ ص١٢٠، ١٢١.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني : ج٢ ص١٩٦، تاريخ ابن كثير: ج٦ ص٢٨٧.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني: ج٢ ص٢٥٦، مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٩١؛ فتح الباري، ابن حجر: ج١٣ ص١٨٢.

ولا يخفى أنه جرى على أهل البيت عليهم السلام ما لم يجر على غيرهم من خذلان ومعاداة، ابتداءً من أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام الحسن والحسين عليهما السلام، ومن بعدهم العترة الطاهرة من أبناء الحسين عليه السلام، وقد تنبأ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله عندما قال: **«إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً»**[1].

وهذا شاهد آخر، يدعم كون الخلفاء الاثني عشر هم أهل البيت عليهم السلام، حيث خذل أمير المؤمنين بعد أن عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وآله بالولاية أمام جموع الناس في واقعة الغدير وغيرها، وقد تنبأ أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك الخذلان عندما قال وهو آخذ بضبع علي بن أبي طالب عليه السلام: **«هذا أمير البررة قاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله»**[2]، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله له: **«إن الأمة ستغدر بك بعدي»**[3]، وكذا الإمام الحسن عليه السلام، حيث خذلته الأمة، حتى تمكن معاوية من السلطة، ودسّ إليه السّم فقتل شهيداً مظلوماً.

وأمّا الإمام الحسين عليه السلام، فلا يخفى كيفية خذلان الأمة له ولأصحابه السبعين نفراً، حتى قتلوهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، وحملوهم إلى

(١) سنن ابن ماجه: ج٢ ص١٣٦٦ وقد قواه من طريق صاحب المستدرك، المصنف: ابن أبي شيبة الكوفي: ج٧ ص٥٢٧؛ كتاب السنة: ص٦١٩ ح١٤٩٩؛ الدر المنثور، السيوطي: ج٦ ص٥٨، ميزان الاعتدال: ج٢ ص٤١٦ ذكرها بطرق مختلفة ومتعددة ولم يضعّفها، سير أعلام النبلاء: ج٦ ص١٣١؛ لسان الميزان، ابن حجر: ج٣ ص٢٨٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين، الحاكم:ج٣ ص١٢٩ قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»؛ تاريخ بغداد: ج٣ ص١٨١؛ تاريخ مدينة دمشق: ج١٥ ص٨٨

(٣) المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٤٢، ١٤٣ قال:«صحيح»؛ البداية والنهاية: ج٦ ص٢٤٤؛ دلائل النبوة: ج٦ ص٤٤٠؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٤٤٧-٤٤٨؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٤ ص١٠٧.

طاغية عصره يزيد بن معاوية، وأمّا بقية الأئمة عليهم السلام فلا يخفى ما عانوه من جرّاء الظلم، والتضييق عليهم، وزجهم في السجون من قبل السلطات الحاكمة، فكانوا ما بين مسموم وسجين و.....

وعلى الرغم من كل المحاولات التي استهدفت طمس معالمهم، وإخفاء حقيقتهم ودورهم، إلاّ أنهم عليهم السلام مارسوا دورهم على أكمل وجه، وحافظوا على الخط الإسلامي الأصيل المتمثل بتربية أمة صالحة على العكس من الحكومات الظالمة آنذاك، التي اكتفت برفع شعار الإسلام؛ لتمرير مخططاتها وأهدافها.

٦- من الشواهد التي تكشف عن كون المقصود من الخلفاء الاثني عشر هم أهل البيت عليهم السلام، هو أن بعض روايات الاثني عشر خليفة نصّت على أن الخلفاء الاثني عشر كلّهم من بني هاشم، حيث جاء عن جابر بن سمرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «بعدي اثنا عشر خليفة، ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته؟ قال: قال: كلهم من بني هاشم»(١).

ولعلّنا لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن لفظ «كلهم من بني هاشم» ؛ إما أن يكون قد أُسقط من باقي الروايات، أو أنه خفي على الراوي جراء حصول الضجة واللغط في ذلك المجلس، الذي ذكر فيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هذا الحديث، كما خفي عليه لفظ «كلهم من قريش» فسأل من بجنبه، فأثبت له لفظ «كلهم من قريش» فقط، ولعلّ الشخص الذي أثبت له اللفظ لم يسمع قول النبي صلى الله عليه وآله: «كلهم من بني هاشم» فلم يثبته له، أو لأجل مآرب وغايات في صدور القوم، منعت من إثبات بقية الحديث لجابر، وهذا يعني أن لفظ

(١) ينابيع المودة: ج٢ ص٣١٥ ح٩٠٨.

«كلهم من قريش» لم يسمعها الراوي من لسان النبي صلى الله عليه وآله مباشرة، وهذا هو ما فهمه القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري، حيث قال: «وعن أبي داود من طريق الشعبي عن جابر بن سمرة: لايزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، قال: فكبر الناس وضجّوا، فلعل هذا هو سبب خفاء الكلمة المذكورة على جابر»[(١)].

ولذا نقول إن الرواية الواردة عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وآله هي بعض حديث، ويشهد على ذلك نفس الواقعة، وكيفية إثبات الحديث لجابر، حيث جاء فيه: «لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، قال فكبر الناس وضجوا فقال كلمة خفية، فقلت لأبي يا أبه ما قال؟ فقال أبي: إنه قال كلهم من قريش»[(٢)].

وفي رواية أخرى بلفظ «صمّنيها الناس»[(٣)]، قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «قوله: فقال كلمة صَمَّنيها الناس» هو بفتح الصاد وتشديد الميم المفتوحة، أي أصموني عنها، فلم أسمعها؛ لكثرة الكلام ووقع في بعض النسخ (صمّتنيها الناس) أي سكتوني عن السؤال عنها»[(٤)]، وجاء ذلك المعنى بألفاظ أخرى من قبيل: «فكبّر الناس وضجّوا»[(٥)]، «فضج الناس»[(٦)]، وفي لسان آخر «اثنا عشر كلّهم، ثم لغط القوم، وتكلموا، فلم أفهم قوله بعد كلّهم»[(٧)]، ومما

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ج١٥ ص٢١٢ ح٧٢٢٢.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ج١٣ ص١٨١؛ انظر: سنن أبي داود، السجستاني: ج٤ ص٨٦ ح٤٢٨٠.
(٣) صحيح مسلم: ج٣ ص١٤٥٣.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٢ ص٢٠٣.
(٥) سنن أبي داود، السجستاني: ج٤ ص٨٦ ح٤٢٨٠؛ مسند أحمد: ج٥ ص٩٨؛ تاريخ بغداد: ج٢ ص١٢٤ ج١٤ ص٣٩٦.
(٦) مسند أبي عوانة: ج٤ ص٣٦٩.
(٧) مسند أحمد: ج٥ ص٩٩؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٢ ص١٩٦.

يؤكد كون الرواية لم تنقل كاملة - بل سقطت منها الكلمة التي هي على خلاف أهداف وأهواء القوم- ما أخرجه القندوزي الحنفي عن جابر بن سمرة قال: «كنت مع أبي عند النبي صلى الله عليه وآله فسمعته يقول: (بعدي اثنا عشر خليفة) ثم أخفى صوته، فقلت لأبي ما الذي أخفى صوته؟ قال: قال: (كلهم من بني هاشم)، وعن سماك بن حرب مثله»[1]، ومن ذلك يتضح أن كلمة «كلهم من بني هاشم» كانت موجودة في الحديث، ولعل الرسول صلى الله عليه وآله قال: «كلهم من قريش من بني هاشم»، وهذا ما استشعره بعض علماء السنة كابن الجوزي، حيث قال في «كشف المشكل»: «قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث، وتطلبت مظانه، وسألت عنه، فلم أقع على المقصود به؛ لأن ألفاظه مختلفة، ولا أشك أن التخليط فيها من الرواة»[2]، ويدعم هذا القول ما ذهب إليه ابن العربي، بعد عجزه عن تفسير حديث الاثني عشر، تفسيراً واقعيا، قال: «ولعلّه بعض حديث»[3]، مما يؤكد سقوط كلمة «كلهم من بني هاشم» من الحديث.

٧- الاثنا عشر خليفة أمان لأهل الأرض، إذا ذهبوا ماجت الأرض بأهلها، وإذا مضوا لا يبقى الدين قائماً، ويفقد المسلمون منعتهم وصلاحهم، وهذه المعاني التي جاءت في حديث الاثني عشر تلتقي وتتلائم تمام الملائمة مع الروايات التي نقلها الفريقان بحق أهل البيت عن رسول الله صلى الله عليه وآله كقوله: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي ذهب

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص٣١٥ ح٩٠٨.

(٢) نقلاً عن فتح الباري: ج١٣ ص١٨٣.

(٣) شرح صحيح الترمذي: ج٩ ص٦٨.

أهل الأرض»[١].

٨- قد افترضت نصوص الاثني عشر أن أولئك الخلفاء «كلهم يعمل بالهدى ودين الحق»، كما فهم هذا المعنى أيضا ابن كثير في تفسيره عندما قال: «ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق، ويعدل فيهم»[٢]، ولا يجد المتتبع تفسيراً واحداً من التفاسير لهذا الحديث، يجمع فيه اثني عشر خليفة كلّهم يعمل بالهدى ودين الحق، خصوصاً مع ما ذكرناه من وجوب كون أولئك الخلفاء سلسلة متكاملة، ومتناسقة ومتوالية زماناً، وهذا ما يثبت لنا عدم مصداقية أي تطبيق واقعي للحديث، سوى أهل البيت عليهم السلام، الذين جعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله هداة مهديين من بعده، وأمر بالتمسك بهديهم، وجعلهم عدلاً للقرآن الكريم لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض.

٩- من الخصائص المهمة التي تضمنتها أحاديث الاثني عشر قيموميّة أولئك الخلفاء على الدين والأمة «اثنا عشر قيماً»، ولاشك أن القيموميّة تستدعي الرقابة والوصاية على الدين، وعلى الأمّة الإسلامية، وهذا المعنى لم يُدّع لأحد، ولا ادّعاه غير أهل البيت عليهم السلام، وهذا هو مقتضى كونهم عدلاً للقرآن الكريم، وأيضاً مقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «في كل خلوف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل، فانظروا من

(١) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤٢٦؛ ذخائر العقبى، الطبري: ص١٧؛ انظر: المستدرك: الحاكم: ج٢ ص٤٤٨ ؛ قال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٠ ص٢٠؛ النزاع والتخاصم: المقريزي: ص١٣٢؛ وغيرها.
(٢) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٣٤.

توفدون»[١].

١٠- إنّ الصخب، واللغط، والضجة المفتعلة، وقيام القوم وقعودهم، وتصميتهم لجابر والحاضرين يثير الانتباه، ويستدعي الريب، ويكشف أن في الأمر شيئاً، لا يريد القوم وصوله إلى مسامع الحاضرين، ولم تكن هذه الحادثة فريدة نوعها، بل فعل ذلك القوم أيضا عندما ضجّوا، وتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله حينما قال: «ائتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعدي أبداً»، فوقعت حينها الضجّة المفتعلة، حتى قال بعضهم: إن النبي ليهجر، وليس ذلك إلاّ للحرص على الخلافة، وطمعاً بالملك والسلطان والإمارة. وهو الذي قد أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله عند مخاطبته لأصحابه بقوله: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»[٢].

١١- حديث ابن مسعود المتقدم، يكشف عن أن الصحابة هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الخلفاء من بعده وهذا يلفت النظر إلى نقطتين:

الأولى: أنه ليس من المنطقي أن يسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله عن الأمراء الذين يتسلّطون على رقاب الناس بالقهر والغلبة، وهو ذلك الرسول العظيم الذي ختم الرسالات فلا نبي بعده.

إذن لابد أن يكون السؤال عن الخلفاء الذين نصبهم رسول الله صلى الله عليه وآله من بعده، وهم أهل بيته عليهم السلام بنص حديث الغدير وحديث الثقلين وغيرهما،

(١) الصواعق المحرقة: ٢٣١.
(٢) صحيح البخاري: ج٤ ص٣٥٥ ح٧١٤٨؛ صحيح ابن حبان: ج١٠ ص٣٣٤؛ وغيرهما من المصادر الكثيرة.

وهذا ديدن وطريقة اعتادها الصحابة آنذلك، فقد سألوا أبا بكر وعمر عن الذي يلي الأمر من بعدهما.

الثانية: أن النبي ﷺ أراد من الإمرة والخلافة من يكون مؤهلاً ومستحقاً لها، فلا معنى لحمل الحديث على أمثال معاوية ويزيد ومروان والوليد وأمثالهم، الذين عاثوا في الأرض فساداً، ولعبوا بمقدرات الأمة الإسلامية بما شاءوا ورغبوا، فالمراد من الخليفة هو من يستمد سلطته من الشارع الأقدس، ومن أجل ذلك ذكر شارح سنن أبي داود في شرحه (عون المعبود) أن: **«السبيل في هذا الحديث، وما يتعقبه في هذا المعنى أن يحمل على المقسطين منهم، فإنهم هم المستحقون لاسم الخليفة على الحقيقة»**[(١)].

١٢- بعد أن صدع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بذكر الخلفاء من بعده، وأنهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش ومن بني هاشم، وكلهم يعمل بالهدى ودين الحق، لم يكتف بذلك ـ ولعله لما حصل من الضجة واللغط المفتعل ـ بل قام خطيباً، بعد رجوعه من حجة الوداع في طريقه إلى المدينة في غدير خم، ونصب علياً خليفة من بعده، فعين أول خليفة من الخلفاء الاثني عشر، وبادر بعد ذلك قائلاً: **«إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»**[(٢)]، حينها عرف الناس من هم الخلفاء بعد رسول الله ﷺ فأتم بذلك الحجة

---

(١) عون المعبود: ج١١ ص٢٤٥.

(٢) المصنف، أبي شيبة الكوفي: ج٦ ص٣٠٩، كتاب السنة، عمرو بن أبي عاصم: ص٣٣٧ ح٧٥٤ ص٦٢٩ ح١٥٤٩؛ مسند أحمد: ج٥ ص١٨٢؛ المعجم الكبير: ج٥ ص١٥٣ ح٤٩٢١ ص١٥٤ ح٤٩٢٢؛ مجمع الزوائد: ج١ ص١٧٠ قال الهيثمي: (رواه الطبراني ورجاله ثقات)، وكذا في ج٩ ص١٦٢ وقال في ص١٦٣: «رواه أحمد وإسناده جيد»؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٤٠٢ ح٢٦٣١؛ الدر المنثور: ج٢ ص٢٨٥.

على الخلق، لكي يسدّ بذلك منافذ الريب والتشكيك، ولـئلا يقـول أحـد: إني لم أسمع، أو خفي علي، أو صمّنيها أو صمّتنيها الناس!!.

١٣- مـا ورد مـن الأحاديـث المتـضافرة التـي نـصّت علـى إمامـة أهـل البيت عليهم السلام والتي تناولـت الأئمـة الاثنـي عـشر بـذكر أسـمائهم علـى نحـو التفصيل، وهي كثيرة جدّاً نكتفي بذكر بعضها:

١- ما جاء في فرائد السمطين للحمويني المـصري[1]: «**عن مجاهـد عـن ابن عباس قال: قدم يهودي على رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له: نعثل، فقال: يا محمد إنـي أسألك عن أشياء - إلى أن قال -: فأخبرني عن وصيك من هو؟، فما مـن نبـي إلاّ وله وصي، وإنّ نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال: نعم، إنّ وصيي والخليفة من بعدي علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعـده سـبطاي: الحـسن ثـم الحسين، يتلوه تسعة من صلب الحسين أئمة أبرار، قال: يا محمد فسمهم لي؟**

قال: نعم، إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، ثم ابنه علي، ثم ابنه الحسن، ثم الحجة ابن الحـسن أئمـة عدد نقباء بني اسرائيل، فهذه اثنا عشر»[2].

٢- ونقل الحمويني أيضاً في فرائده: عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أيها النـاس

---

(١) أطرى عليه الذهبي ت/ ٧٤٨ هـ في تذكرة الحفاظ قال: الإمام المحدث الأوحد الأكمـل فخر الإسلام صدر الدين، إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الخراساني الجـويني شـيخ الـصوفية.. كان شديد الاعتناء بالرواية وتحصيل الاجزاء، حسن القراءة مليح الشكل مهيباً ديناً صـالحاً. مـات سنة اثنتين وعشرين وسبع مائة. تذكرة الحفاظ، الذهبي: ج٤ ص١٥٠٦.

(٢) فرائد السمطين، الحمويني: ج٢ ص١٣٣ ص١٣٤ ح٤٣١، وبنفس الألفـاظ مـا جـاء في ينـابيع المودة للقندوزي، ج٣ ص٢٨٢.

إن الله عزّ وجلّ أمرني أن أنصب لكم إمامكم والقائم فيكم بعدي ووصيي وخليفتي... ولكن أوصيائي منهم: أوّلهم أخي، ووزيري، ووارثي، وخليفتي في أمتي، وولي كل مؤمن بعدي، هو أوّلهم ثم ابني الحسن، ثم ابني الحسين، ثم التسعة من ولد الحسين واحداً بعد واحد حتى يردوا عليّ الحوض..»[١] - وهكذا ينقل الحمويني ذلك في مواطن عديدة، وروايات عديدة وبطرق مختلفة فراجع.

٣- الحافظ أبو محمد بن أبي الفوارس في كتابه (الأربعين)[٢].

كذلك أخرج ذكر الخلفاء من أهل بيت النبي ﷺ بأسمائهم.

٤- العلامة أبو مؤيد موفق بن أحمد المتوفى (سنة ٥٦٨) في كتابه (مقتل الحسين): ذكر الخلفاء أيضاً بأسمائهم المتقدمة[٣].

٥- العلامة فاضل الدين محمد بن محمد بن إسحاق الحمويني الخراساني في (منهاج الفاضلين)[٤].

٦- كذلك الحمويني في (درر السمطين)[٥].

٧- العلامة الشيخ إبراهيم بن سليمان في كتاب (المحجة على ما في

(١) فرائد السمطين، الحمويني، السمط الأول: ج١ ص٣١٥ـ٣١٨ ح ٢٥٠.
(٢) شرح احقاق الحق للسيد المرعشي: ج١٣ ص٥٩؛ نقلاً عن كتاب الأربعين، ابن أبي الفوارس: ص٣٨.
(٣) مقتل الحسين، الخوارزمي: ص١٤٦-١٤٧.
(٤) شرح إحقاق الحق للسيد المرعشي: ج١٣ ص٦٨؛ نقلاً عن كتاب منهاج الفاضلين، الحمويني: ص٢٣٩.
(٥) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي النجفي: ج٤ ص٩٣- ٩٤؛ نقلاً عن كتاب درر السمطين، الحمويني: ص٧٢٢.

ينابيع المودة)[١] أيضا ذكرهم بأسمائهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

٨- العلامة المولى محمد صالح الكشفي الحنفي الترمذي، في كتابه (المناقب الرضوية)[٢].

إلى غير ذلك من الروايات المتضافرة التي تؤكد هذا المعنى.

وعلى ضوء ما سلف، يتحصل أن العترة الطاهرة يمثلون امتداداً طبيعياً لحركة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في جميع أبعاد الحياة، وقد فرضوا شخصيتهم رغم أنف الأعداء، وقد أجمعت الأمة على أعلميتهم وأهليتهم للخلافة، وأنهم الأسوة الحسنة، ويعد ذلك من أفضل الأدلة لإثبات أحقيتهم، وأهليتهم للإمامة والقيادة، وعصمتهم، لأنهم عليهم السلام جسدوا النظرية الإسلامية على الواقع العملي، فعندما نرصد حياة الأئمة عليهم السلام، و كيف كانوا إسلاماً متحركاً على الأرض، وقرآناً ناطقاً يعيش بين الناس، نستنتج مباشرة أن هذا المستوى الرفيع من الأسوة والقدوة لا يمكن أن تعكسه إلاّ شخصيات معصومة، استجمعت فيها الصفات التي تؤهلها لأن تكون منبع الهداية للبشرية، لذا أجمعت الأمة على أن هؤلاء العترة لهم من الخصائص والمميزات ما لم تكن لغيرهم، رغم ما عانوه من ظلم واضطهاد، فهم الذين تنطبق عليهم خصوصيات الاثني عشر، التي بينها النبي صلى الله عليه وآله في أحاديث الأثني عشر المتقدمة، ولكن أصحاب المطامع آلوا على أنفسهم إلاّ أن يُقصوا وينحّوا أهل البيت عليهم السلام عن مناصبهم ومراتبهم التي رتبهم الله فيها، ولم يكتفوا بذلك بل تمادوا في تعريض أهل

(١) المحجة على ما في ينابيع المودة، الشيخ هاشم بن سليمان: ص٤٢٧.
(٢) المناقب المرتضوية، محمد صالح الترمذي: ص١٢٧.

البيت عليهم السلام لألوان الظلم والاضطهاد، والمعاملة السيئة الفظة الغليظة، التي يندى لها الجبين، وتعتصر منها القلوب ألماً ومرارة، ولم يكن لهم ذنب سوى أنهم كانوا الامتداد الإلهي لخط الرسالة، وكانوا أمناءها، والرقباء عليها، فهم الثقل الموازي للقرآن الكريم.

إذن، ينبغي علينا كمسلمين أن نستنير بنور هؤلاء الهداة الميامين، ونكون بذلك ممتثلين لأوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله.

ومما تقدم اتضحت الإجابة بخصوص ما قد يقال: من أن وصف عزة الإسلام بأولئك الخلفاء الاثني عشر لا ينطبق على أئمة الشيعة، حيث الموقع السامي والريادي والمكانة العظيمة التي يمتلكها أهل البيت عليهم السلام في نفوس الأمة الإسلامية، وهو ما أكده علماء السنة في أغلب كتبهم، وبالإضافة إلى ذلك نقول:

إنّ عزة الإسلام وصلاحه وبقائه إلى قيام الساعة، من المهام، والوظائف الأساسية، التي أناط رسول الله صلى الله عليه وآله مسؤوليتها، وتحقيقها بأهل البيت عليهم السلام، كما يكشف عن ذلك حديث الثقلين وحديث الغدير، وأنهم عدل القرآن، وأنّ النجاة والأمان والعزّة عند الله لا تنال إلا بالاعتصام والتمسك بهم، ومن يتبعهم يكون عزيزاً بعزّة الله، مرضياً عنده تعالى.

كما أخرج ذلك الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»**[1]، ثم علّق عليه قائلاً: هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

---

(١) المستدرك، الحاكم: ج٣ ص١٤٩.

وبنفس المضمون ما ورد في عدّة كثيرة من المصادر عن عمر: أن النبي ﷺ قال: «في كل خلوف من أمتي عدول أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل، فانظروا من توفدون»[١].

وعن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول ﷺ: «من سرّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوال علياً، وليوال وليّه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، رزقوا فهما وعلماً، ويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي»[٢].

وعن عمار بن ياسر، قال رسول الله ﷺ: «أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، من تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله عزّ وجلّ، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله تعالى، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عزّ وجلّ». قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني بإسنادين أحسب فيهما جماعة ضعفاء، وقد وثقوا»[٣].

وقد أخرجها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق بطرق كثيرة[٤].

وعن وهب بن حمزة قال: «صحبت علياً إلى مكة فرأيت منه بعض ما أكره، فقلت لأن رجعت لأشكونّك إلى رسول الله ﷺ، فلما قدمت لقيت رسول الله ﷺ

---

(١) ذخائر العقبى، محي الدين الطبري: ص١٧؛ الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ص٣٥٢؛ رشفة الصادي، أبو بكر الحضرمي: ص١٧؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص١١٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٢٤٠؛ حلية الأولياء، الحافظ أبي نعيم الأصفهاني: ج١ ص٨٦

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١٠٨، ١٠٩.

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٢٣٩ وما بعدها.

فقلت: رأيت من علي كذا وكذا، فقال: لا تقل هذا فهو أولى الناس بكم بعدي»[١].

وعن زيد بن أرقم قال: قال النبي ﷺ: «من أحب أن يحيا حياتي ويموت موتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فإن ربي عز وجل غرس قصباتها بيده، فليتولّ علي بن أبي طالب، فإنه لن يخرجكم من هديي ولن يدخلكم في ضلالة»[٢]، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٣].

إلى غير ذلك من المصادر الكثيرة، والروايات المتواترة معنى ومضموناً، مع صحتها وصراحتها، وأدنى ما نجيب عمّن أراد التشكيك بها: أنها تفيد القطع واليقين؛ لتعدد ألفظها، وكثرة طرقها، والمصادر التي نقلتها، فهي أحاديث نبوية يقوي بعضها بعضاً لإثبات مضمونها بالقطع واليقين، وهو وجوب التمسك بولاية أهل البيت عليهم السلام وإتّباع هديهم.

إذن بأهل البيت عليهم السلام وباتباعهم تتحقق عزة الإسلام والحفاظ على وجوده الحقيقي وقيمه ومبادئه الأصيلة، من التقوى والإخلاص والاستقامة والصلاح وغيرها من المعارف الروحية والقيم الأخلاقية، وليست عزّة الإسلام بالتظاهر بالإسلام، واتخاذه شعاراً للتسلط على رقاب الناس بالقهر والغلبة، ومن هنا نجد أن الحكم الإسلامي على يد الظلمة تحول إلى ما كان عليه قبل الإسلام من كونه ملكاً عضوضاً لا يحمل من قيم الإسلام شيئاً.

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج٢٢ ص١٣٥؛ مجمع الزوائد: ج٩ ص١٠٩؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج٤ ص ٤٧٠- ٤٧١.
(٢) المعجم الكبير، الطبراني: ج٥ ص١٩٤.
(٣) المستدرك، الحاكم: ج٣ ص١٣٠.

إذن عزة الإسلام لا تتحقق إلاّ في حفظ الإسلام الحقيقي، الذي لا يتحقق إلاّ باتباع أهل البيت عليهم السلام.

الأمة لم تجتمع على أهل البيت عليهم السلام

وأما عبارة «كلهم تجتمع عليه الأمـة»، وأن أهل البيت عليهم السلام ما أجتمعت عليهم الأمة. فجوابها:

١- إنّ رواية الاثني عشر خليفة المتضمنة لعبارة «كلهم تجتمع عليه الأمة» لم ترد في الكتب الحديثية، والمصادر السنية، إلاّ في سنن أبي داود ومسند البزار، ولم يخرجاها إلاّ بسند واحد ضعيف، كما ذكر ذلك الألباني، في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حيث قال: «وأخرجه أبو داود (٢٠٧/٢) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن أبيه، عن جابر بلفظ: لا يزال هـذا الدين قائماً، حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم تجتمع عليه الأمة، كلّهم من قريش، وأخرجه البزار «١٥٨٤ ـ كشف» عن أبي جحيفة نحوه، وهذا سند ضعيف، رجاله كلهم ثقات، غير أبي خالد هذا، وهو الأحمسي...، وقد تفرد بهـذه الجملة «كلهم تجتمع عليه الأمة»، فهي منكرة»[1]، والتضعيف ذاته ذكره أيضاً في تعليقته على سنن أبي داود، حيث قال بعد أن أورد الحديث: «صحيح: دون قوله (تجتمع عليه الأمة)»[2].

٢ - من الشواهد التي تؤكد عدم صحة صدور هذه العبارة من النبي صلى الله عليه وآله هو عدم انطباقها على الواقع أصلاً، حيث لم نجد شخصاً اجتمعت عليه

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: مج١، ق٢، ص ٧٢٠ ح٣٧٦.
(٢) صحيح سنن أبي داود الألباني: ج٣ ص١٩ ح٤٢٧٩.

الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، بل البعض ممن ادعي كونه من الخلفاء الاثني عشر، لم يجتمع عليه أغلب الأمة، فضلاً عن جميعها.

ولذا قال ابن كثير في البداية والنهاية: «فإن قال: أنا لا اعتبر إلاّ من اجتمعت الأمة عليه، لزمه على هذا القول أن لا يعد علي بن أبي طالب عليه السلام ولا ابنه؛ لأن الناس لم يجتمعوا عليهما؛ وذلك أن أهل الشام بكمالهم لم يبايعوهما...، ولم يقيد بأيام مروان، ولا ابن الزبير كأنّ الأمّة لم تجتمع على واحد منهما»[١].

وهذا ما اعترف به ابن حجر العسقلاني أيضا في فتح الباري[٢].

٣ـ إن أكثر من أُدعي اجتماع الأمة عليه، كيزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، والوليد، ومروان الحمار، وغيرهم لم يكن متوفراً على خصائص الخلفاء الاثني عشر، من كونهم يعملون بالهدى ودين الحق، وأنهم قيمّون على الدين، والدين قائم بهم، وغير ذلك من الصفات السامية، التي تقدم ذكر بعضها.

الخلاصة

١- إنّ حديث الاثني عشر حقيقة صادرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تواترت الروايات من الفريقين بنقلها بألسن مختلفة، كلها تشير إلى مضمون واحد، ومن هذه الروايات قوله صلى الله عليه وآله: «لا يزال هذا الأمر صالحاً حتى يكون اثنا عشر أميراً»[٣].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٨٠.
(٢) فتح الباري: ج١٣ ص١٨٢.
(٣) مسند أحمد: ج٥ ص٩٧ ص١٠٧؛ المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص٦١٨؛ انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٩٠ وقد صححه.

٢- إنّ أهل السنة لم يتمكنوا أن يقدموا تفسيراً واقعياً لحقيقة الاثني عشر خليفة، وإن تفسيراتهم المضطربة والمتناقضة فيما بينها خير شاهد على عجزهم عن فهمها وتفسيرها، على الرغم مما ارتكبوه من تكلف ظاهر على حدّ تعبير بعضهم، لا سيما وأن البعض[1] قد أوكل تفسير حديث الاثني عشر إلى الله تعالى بعد أن عجز عن تفسيره تفسيراً صحيحاً.

٣- إنّ الخصائص والمميزات التي تحملها أحاديث الاثني عشر، لا تنطبق في الواقع الخارجي إلاّ على أهل البيت عليهم السلام، فمثل صفة «صلاح أمر الأمة والناس بهم» و «كلهم يعمل بالهدى ودين الحق» و«إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها» ونحوها لا تنسجم ولا تنطبق إلاّ على عترة أهل البيت عليهم السلام، فضلاً عما يحمله أهل البيت عليهم السلام من خصائص ومميزات استثنائية، وما يحملونه من مؤهلات علمية وعملية بإجماع أهل العلم، وعلى جميع المستويات الفكرية والروحية ونحوها، كل هذا يؤكد ويدعم كون حديث الاثني عشر لا يمكن انطباقه إلاّ على أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٢ ص٢٠٣.



الفصل الثالث

غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

الشبهة:

١- ما الفائدة من وجود إمام غائب ؟

٢- إنّ الحجة عند الشيعة لا تقوم إلاّ بإمام، فكيف يترك الإمامة ويغيب ؟

الجواب:

قبل البدء ينبغي ذكر تمهيد مختصر له مدخلية في الإجابة.

تمهيد:

إنّ الشريعة التي جاء بها الدين الإسلامي ما هي -في مجملها، وحقيقتها، وبكل جوانبها- إلاّ خطّة إلهيّة أُعدّت بإحكام، ووضعت من أجل ترشيد المجتمع البشري نحو الأصلح والأقوم، وبلوغ السعادة في الدارين.

وقد وعد الله تعالى البشرية -التي عانت طوال حياتها من الظلم، والجور- أن يسودها العدل والأمان في الأرض.

قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

إلاّ أنّ تحقق هذا الهدف على أرض الواقع يتوقف على توفّر شرائطه،

---

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) القصص: ٥.

التي شاء الله عزّ وجلّ بحكمته أن تكون من طرقها الطبيعية، وضمن ما هو المألوف، لا بشكل إعجازي وخارق لما هو المعتاد.

وحيث إنّ الله تعالى ـ لحكمته ولطفه بعباده ـ قد نصّب أولياء هداة معصومين، يمثلون امتداداً طبيعياً للرسالة المحمّديّة، فهم أُمناء الوحي والرسالة، وحجّة الله على العباد، وهم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، أوّلهم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وآخرهم الإمام المهدي عليه السلام، وقد ثبت ذلك مسبقاً، بمقتضى عدد وافر من الآيات القرآنية، كآية الولاية، وآية أولي الأمر، وآية التطهير، وآيات البلاغ في الغدير، وآية المودة في القربى[(١)] وغيرها، مضافاً إلى عدد كبير جداً من الأحاديث النبويّة التي رواها أصحاب الصحاح من أهل السنة، كحديث الثقلين المتواتر الذي مفاده أنّ أهل البيت عليهم السلام لن يفترقوا عن القرآن حتى يردوا على رسول الله صلى الله عليه وآله الحوض[(٢)]، فكما أنّ القرآن باقٍ إلى يوم القيامة كذلك أهل البيت عليهم السلام، وكحديث الخلفاء الاثني عشر «كلّهم من قريش»[(٣)]، وحديث السفينة[(٤)]، وأهل بيتي عليهم السلام أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض[(٥)] وأتاهم ما يوعدون، وغير ذلك من الأحاديث الدالّة على بقاء الإمامة الإلهية، واستمرارها في الأرض.

---

(١) الآيات: المائدة: ٥٥، النساء: ٥٩، الأحزاب: ٣٣، المائدة: ٦٧.

(٢) السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٤٥ ص١٣٠؛ خصائص أمير المؤمنين: النسائي: ص٩٣؛ المعجم الصغير، الطبراني: ج١ ص١٣١ ص١٣٥.

(٣) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٥ ص٨٧ – ٨٨

(٤) مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٩ ص١٦٨، المعجم الأوسط، الطبراني: ج٦ ص٨٥

(٥) شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٤٢٦، ذخائر العقبى، الطبري: ص١٧.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ خلفائي، وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي، الاثنا عشر، أوّلهم عليّ، وآخرهم ولدي المهديّ»[١].

وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام - الذي يمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الأئمة الهداة- مصلحاً للبشرية، ومحققا للهدف النهائي، والثمرة الكبيرة والمرجوة من رسالات السماء وبعث الأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

إذن فلابدّ - بحسب التخطيط الإلهي- من إقامة العدل، والسلام في العالم، بعد انتشار الظلم والجور والفساد في ربوع الأرض وأرجائها، وهو ما نشاهده ونراه بالحس والعيان في كل حدب وصوب، وهذا ما يتطابق مع ما تنبّأ به رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «تملأ الأرض ظلماً وجوراً، ثم يخرج رجل من عترتي، يملك سبعاً أو تسعاً، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً»[٣]، فكما أنّ الأرض مُلئت وستُملأ بالجور والفساد والظلم، لا بدّ لها من يوم تُملأ فيه عدلاً وقسطاً، على يد الإمام المهديّ المنتظر عجل الله فرجه.

إلاّ أنّ النقطة الجديرة بالذكر هي أنّ تحقق هذا الهدف، وهو إقامة

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج ٣ ص٢٩٥.

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) سنن أبي داود، السجستاني: ج٤ ص٧١٢ ح٤٢٧٦؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٣ ص٢٨ ص٣٦ ص٧٠؛ المستدرك الحاكم: ج٤ ص٥٥٧؛ وانظر مجمع الزوائد: الهيثمي: ج٧ ص ٣١٤، وقال فيه: «رواه الترمذي وغيره باختصار، رواه أحمد بأسانيد، وأبو يعلى باختصار، ورجالهما ثقات»؛ وانظر: المصنف: الصنعاني: ج ١١ ص٣٧٢- ٣٧٣.

العدل والقسط في الأرض، يتوقف على توفر شرائطه التي أراد الله تعالى بحكمته أن تكون من الطريق الطبيعي لا الإعجازي، وهذا ما جرت عليه السنن الإلهية في هذا العالم، فقد قال تبارك وتعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1] وقال تعالى أيضاً: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3] وقال: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[4] وغير ذلك من الآيات المباركة، التي تكشف عن أنّ التخطيط الإلهي لجريان السنن في هذا العالم مبنيّ على السير الطبيعي للبشرية، إلاّ في الظروف الخاصّة والاستثنائية، التي تقتضي فيها الحكمة الإلهية إنجاز الهدف والوصول إليه عن طريق الإعجاز وخرق المعتاد، وذلك كإثبات أصل نبوة الأنبياء مثلاً.

وإقامة العدل على هذه الأرض جاء ضمن ذلك الإطار، فلكي يتحقق على أرض الواقع ويحين أجله، لابد من اكتمال جميع شرائطه، وعلى ضوء ذلك كانت غيبة إمامنا المهدي عليه السلام جزءاً من هذا التخطيط والحكمة الإلهية، من أجل أن تكتمل باقي الشرائط لظهور الحق وإقامة العدل، تلك الشرائط التي يتحقق معظمها في أحضان الغيبة، وهذا ما أخبر به رسول

(١) الأنفال: ٣٧.
(٢) الأنفال: ٤٢.
(٣) آل عمران: ١٥٤.
(٤) آل عمران: ١٤٠ – ١٤٢.

الله صلى الله عليه وآله في روايات عديدة من كتب الفريقين:

منها: ما أخرجه الأربلي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: **لما أنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ منكم﴾**[1]، قلت: يا رسول الله عرفنا الله ورسوله، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك، فقال صلى الله عليه وآله: **«هم خلفائي من بعدي يا جابر، وأئمة الهدى بعدي، أوّلهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرأه عنّي السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميّي وكنيّي، وحجّة الله في أرضه، وبقيّته في عباده محمد بن الحسن بن عليّ، ذلك الذي يفتح الله عز وجل على يده مشارق الأرض ومغاربها، وذلك الذي يغيب عن شيعته، وأوليائه، غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان»**، فقال جابر: فقلت: يا رسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال صلى الله عليه وآله: **«أي والذي بعثني بالحق، إنهم ليستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سر الله، ومخزون علم الله، فاكتمه إلاّ عن أهله»**[2].

وعن علي بن علي الهلالي، عن أبيه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله في شكاته التي قبض فيها فإذا فاطمة رضي الله عنها عند رأسه. قال: فبكت حتى ارتفع صوتها، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله طرفه إليها فقال: حبيبتي فاطمة،

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) ينابيع المودّة، القندوزي: ج٣ ص٣٩٩.

ما الذي يبكيك فقالت: أخشى الضيعة بعدك، فقال: يا حبيبتي، أما علمت أن الله -عزّ وجلّ- اطلع إلى الأرض اطلاعة فاختار منها أباك فبعثه برسالته، ثم اطلع إلى الأرض اطلاعة فاختار منها بعلك، وأوحى إلي أن أنكحك إياه يا فاطمة، ونحن أهل بيت قد أعطانا الله سبع خصال لم تعط لأحد قبلنا ولا تعطى أحداً بعدنا. أنا خاتم النبيين، وأكرم النبيين على الله، وأحب المخلوقين إلى الله عزّ وجلّ وأنا أبوك، ووصيي خير الأوصياء، وأحبهم إلى الله، وهو بعلك، وشهيدنا خير الشهداء، وأحبهم إلى الله، وهو عمك حمزة بن عبد المطلب، وعم بعلك، ومنا من له جناحان أخضران يطير مع الملائكة في الجنة حيث شاء، وهو ابن عم أبيك، وأخو بعلك، ومنا سبطا هذه الأمة، وهما ابناك الحسن والحسين، وهما سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما -والذي بعثني بالحق- خير منهما. يا فاطمة -والذي بعثني بالحق- إن منهما مهدي هذه الأمة إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً وتظاهرت الفتن، وتقطعت السبل، وأغار بعضهم على بعض، فلا كبير يرحم صغيراً ولا صغير يوقر كبيراً، فيبعث الله عزّوجلّ عند ذلك منهما من يفتح حصون الضلالة، وقلوباً غلفاً يقوم بالدين آخر الزمان كما قمت به في أول الزمان، ويملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً يا فاطمة لا تحزني ولا تبكي، فإن الله عزّوجلّ أرحم بك وأرأف عليك مني، وذلك لمكانك من قلبي، وزوجك الله زوجاً، وهو أشرف أهل بيتك حسباً وأكرمهم منصباً، وأرحمهم بالرعية، وأعدلهم بالسوية، وأبصرهم بالقضية، وقد سألت ربي عزّ وجلّ أن تكوني أول من يلحقني من أهل بيتي، قال علي رضي الله عنه: فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله لم تبق فاطمة رضي الله عنها بعده إلا خمسة

وسبعين يوماً حتى ألحقها الله عزّ وجلّ به صلى الله عليه وآله. رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه: الهيثم بن حبيب، قال أبو حاتم: منكر الحديث وهو متهم بهذا الحديث[1].

أقول: ولم يجدوا في الهيثم بن حبيب مطعناً سوى روايته لهذا الحديث في فضائل أهل البيت عليهم السلام وله نظائر كثيرة!!.

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لفاطمة نبينا خير الأنبياء وهو أبوك وشهيدنا خير الشهداء وهو عم أبيك حمزة، ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة حيث شاء وهو ابن عم أبيك جعفر، ومنا سبطا هذه الأمة الحسن والحسين وهما ابناك ومنا المهدي.

رواه الطبراني في الصغير وفيه قيس بن الربيع وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله ثقات[2].

ومنها: ما جاء عن جابر بن عبد الله الأنصاري أيضاً: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خَلقاً وخُلقاً، تكون له غيبة وحيرة، تضل فيها الأمم، ثم يقبل كالشهاب الثاقب، فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً»**[3]، وغير ذلك من الروايات، الدالة على ضرورة الغيبة، من أجل اكتمال شرائط الظهور، وإقامة العدل والقسط، وذلك من خلال تخطي البشرية لمراحل عديدة من التمحيص والفتن والحيرة، والابتلاء.

---

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج9 ص165 — 166.
(2) المصدر نفسه: ج9 ص166.
(3) ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج3 ص386.

وهذا ما أقرّ به الألباني أيضاً في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حيث قال: «فماذا عسى أن يفعل المهدي لو خرج اليوم، فوجد المسلمين شيعاً وأحزاباً، وعلمائهم – إلاّ القليل منهم – اتخذهم الناس رؤوساً!، لما استطاع أن يقيم دولة الإسلام إلاّ بعد أن يوحّد كلمتهم، ويجمعهم في صف واحد، وتحت راية واحدة، وهذا بلا شك يحتاج إلى زمن مديد، الله أعلم به»[1].

هوية الغيبة

إنّ غيبة الإمام عليه السلام تعني خفاء عنوانه غالباً، وليس اختفاء شخصه عن الأنظار، وإن كان خفاء المعنون قد يتحقق أيضاً في بعض الأحيان كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات على ما سيأتي لاحقاً، ولكي يتضح هذا المعنى يتعين التذكير بأن الإمامة لطف من الله تعالى، ولولا خليفة الله في الأرض لساخت بأهلها.

دوام الإمامة واستمرارها لطف إلهي

لا شك أن النبوّة وبعثة الأنبياء من أعظم الألطاف الإلهية في حق البشرية، وذلك من أجل إيصالها إلى كمالها اللائق بها، وإلى مصالحها والأهداف التي خُلقت من أجلها، والتي لا يمكن لعقول البشر القاصرة أن تدركها أو تقف على كنهها، فالنبوّة جاءت في ضمن سياق هداية الله عزّ وجلّ للبشر وتوجيههم الوجهة التي خلقوا من أجلها.

ومن أعظم تلك الألطاف الإلهية بعثة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله بالرسالة

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: ج٤ ص٤٢.

الخاتمة والدين الإسلامي، ليظهره على الدين كلّه، ولو كره المشركون.

ومما لا ينبغي الشك فيه أيضاً أن الإمامة، وقيادة الأمّة - في الجوانب الفكرية والدينية والسياسية- بعد رسول الله صلى الله عليه وآله استمرار لذلك اللطف الإلهي، وإتمام لتلك النعمة، وذلك من أجل الإبقاء والحفاظ على روح الإسلام ومعالمه، وضمان استمرارها ورشدها ونموها إلى قيام الساعة.

فاستمرار وجود الإمام في كل زمان لطف من الله تعالى من أجل حفظ الدين وصلاحه ورفعته وعزته، وكذلك لأجل الحفاظ على كرامة الأمة الإسلامية، والإبقاء على هويتها وكيانها، فهو أمان للأمّة من الهلاك والضلال والغواية، بل هو أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب ذهب أهل الأرض، ولولاه لساخت الأرض وماجت بأهلها، وقد أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله على تلك الحقيقة الخطيرة والمحورية في حياة الأمة عندما قال: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»[(١)] ، وقد أمرنا بالتمسك بهم في حديث الثقلين، وأنبأ عن عدم افتراقهم عن القرآن الكريم، حتى يردا عليه الحوض، ثم قال صلى الله عليه وآله: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[(٢)] .

---

(١) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤٢٦؛ ذخائر العقبى، محب الدين الطبري: ص١٧؛ وانظر المستدرك، الحاكم: ج٣ ص٤٥٧ ج٢ ٤٨٨، حيث قال في ذيل الحديث: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) صحيح مسلم، مسلم: ج٧ ص١٢٣؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤ ص٣٦٧؛ سنن الدارمي، الدارمي: ج٢ ص٤٣٢؛ سنن البيهقي، البيهقي: ج٢ ص١٤٨؛ وغيرها من المصادر.

لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها

إذن فالحجّة باقية ومستمرة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة، ولولا تلك الحجة التي نصبها من بعده صلى الله عليه وآله ـ بأمر من الله عزّ وجلّ ـ لساخت الأرض بأهلها، وقد تواتر هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ألسنة مختلفة من الروايات، منها قوله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يوعدون»[(١)].

مضافاً إلى تأكيد أهل البيت عليهم السلام على هذه الحقيقة، كقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «اللّهم وإنك لا تخلي الأرض من قائم بحجة؛ إما ظاهر مشهور، أو خائف مغمور، لئلا تبطل حجج الله، وبيّناته»[(٢)].

وكذا ما أخرجه القندوزي الحنفي، عن الحموي المصري في كتابه «فرائد السمطين» عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن جدّه علي بن الحسين عليه السلام قال: «نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وقادة الغرّ

---

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٢ ص٤٤٨، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٤٢٦؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٠ ص٢٠؛ وانظر الجامع الصغير، السيوطي: ج٢: ص٦٨٠، وانظر فيض القدير، المناوي: ج٦ ص٣٨٧؛ وقال المناوي: «لكن تعدد طرقه ربما يصيره حسناً»؛ النزاع والتخاصم، المقريزي ص١٣٢، مع اختلاف في اللفظ.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٠ ص٢٥٥، تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٦؛ وقريب منه في تذكرة الحفاظ، الذهبي: ج١ ص١٢، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، الحلواني: ص٥٧، كنز العمال، المتقي الهندي: ج ١٠ ص٢٦٣، (أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف والمرهبي في العلم ونصر في الحجة)، المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي: ص٨١، مناقب أمير المؤمنين: محمد بن سليمان القاضي: ج٢ ص٢٧٥، دستور معالم الحكم: ابن سلامة: ص٨٤، وقريب منه في ينابيع المودة: القندوزي الحنفي: ج١ ص٧٥.

المحجّلين، ونحن أمان لأهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء، وبنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا يُنزّل الله الغيث، وتنشر الرحمة، وتخرج بركات الأرض، ولولا ما على الأرض منّا لساخت بأهلها.

ثم قال: ولم تخل الأرض منذ خلق الله الأرض من حجّة فيها؛ إما ظاهر مشهور، أو غائب مستور، ولا تخلو الأرض إلى أن تقوم الساعة من حجة فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله»[١].

قال سليمان الأعمش: فقلت، لجعفر الصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب»[٢]، فنجد أن الإمام زين العابدين عليه السلام يشير بقوله هذا إلى ما ذكره جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، بقوله: «في كل خلوف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عزّ وجلّ، فانظروا بمن توفدون»[٣]، وقوله صلى الله عليه وآله المتقدم: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»[٤]. وأولئك العدول من أهل بيته ـ الذين هم أمان لأهل الأرض ـ هم الاثنا عشر خليفة الذين نصبهم خلفاء من بعده، وجعلهم قيّمين على هذا الدين، وقال صلى الله عليه وآله

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٧٥ و ج٣ ص ٣٦٠-٣٦١.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٧٦ ج٣ ص٣٦١.

(٣) الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، باب الأمان ببقائهم: ص٣٥٢؛ ذخائر العقبى، محب الدين الطبري: ص١٧؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص١١٤.

(٤) المستدرك على الصحيحين، الحاكم: ج٢ ص٤٤٨؛ قال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٤٢٦، ذخائر العقبى، الطبري: ص١٧، ونحوهُ النزاع والتخاصم، المقريزي: ص١٣٢.

في حقهم: «إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها»[(١)].

إذن، لا بد في كل زمان من إمام عادل، معصوم، لا يفترق عن القرآن، من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، يكون أماناً لأهل الأرض، به تتحقق عزّة الإسلام وصلاح الأمّة.

الغيبة لطف إلهي

أمّا في زماننا هذا، فإن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف من أهل البيت هو خليفة الله في أرضه، كما هو واضح من الروايات المستفيضة عن الرسول صلى الله عليه وآله، منها قوله: «فإن فيها خليفة الله المهدي»[(٢)]، ولذا نجد المناوي في كتابه (فيض القدير) في ذيل هذه الرواية يشير إلى أن الإمام المهدي هو الإنسان الكامل، وهو خليفة الله في أرضه، حيث قال: «فإن قلت ما حكمة إضافته إلى الله، وهلاّ قال الخليفة ؟ قلت: هو إشارة إلى أنه إنسان كامل قد تجلى عن الرذائل، وتحلّى بالفضائل، ومحل الاجتهاد والفتوة، بحيث لم يفته إلاّ مقام النبوة»[(٣)].

إلاّ أن الأمر المهم الذي ينبغي الالتفات إليه، هو أنه عليه السلام غائب مستور، إذ أن الإمام المهدي عليه السلام يمتاز عن بقية آبائه عليهم السلام بخصوصية إضافية، وهي أن الإرادة الإلهية شاءت أن يقام العدل في هذه الأرض على يده المباركة، وشاءت أيضاً أن لا يكون قيام العدل إلاّ في ضمن الشروط الطبيعية، لا بالطريق الإعجازي - كما تقدم - وحيث إن شرائط الظهور

(١) كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٢ ص٣٤، المعجم الكبير: الطبراني: ج٢ ص١٩٦ (بألفاظ أخرى).
(٢) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ج٥ ص٢٧٧، ونحوه في المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٦٤؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص١٠٠ ح٦٤٨.
(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج١ ص٤٦٦ ح٦٤٨.

وإقامة العدل ـ من طرقها الطبيعية التي أرادها الله تعالى لها ـ غير متوفرة إلى يومنا الحاضر، فلا بد من استمرار الغيبة، والخفاء حتى توفر شرائط الظهور ويأذن الله عزّ وجلّ بالظهور، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى إن وجود الإمام المهدي عليه السلام ظاهراً بين الناس يجعله عرضة للقتل - كما سيأتي - ومن هنا كانت الغيبة للإمام، وحفظه من كيد الأعداء، لطفاً من الله تعالى بعباده، من أجل تحقيق الهدف الإلهي وثمرة الأديان بإقامة العدل والقسط في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

ومما تقدم يتبين أن غيبة الإمام والحجة عجل الله فرجه الشريف إنما هي حالة استثنائية في حياة البشرية، وبالخصوص في حياة الأمّة الإسلامية ـ لأن الحالة الطبيعية هي وجوده بين أشياعه وأتباعه يتعاطى معهم بشكل معلن ومباشر ـ وذلك من أجل الحفاظ عليه، وادّخاره لذلك اليوم الموعود.

حقيقة الغيبة: خفاء الهوية والعنوان لا خفاء الشخصية

لا شك أن الحالات الاستثنائية يقتصر فيها على ما ترتفع به الضرورة، وحيث إن الضرورة هي احتجابه عليه السلام عن الناس، بما يوجب نجاته والمحافظة عليه من براثن الظلم والعدوان، فمقدار الغيبة حينئذ يقتصر فيه على خفاء العنوان، واستتار الهوية ليس أكثر، وإن كانت الضرورة قد تقتضي خفاء المعنون أيضاً على ما أشارت إليه بعض الروايات؛ لأن هذا المقدار من الغيبة كاف لرفع حالة الاستثناء، فهو عجل الله فرجه الشريف موجود بشخصه

(١) الحديد: ٢٥.

الكريم في وسط الناس، وليست غيبته باختفاء جسمه عن الأنظار، كاختفاء الجن، أو الملائكة أو غير ذلك، بل إنّ الناس يرون الإمام المهدي عليه السلام بشخصه المبارك، ولكن من دون أن يكونوا عارفين له أو ملتفتين إلى حقيقته وشخصه وهويته، وهذا ما نصّت عليه جملة من الروايات:

منها: ما ورد عن الإمام علي عليه السلام، حيث قال: «**إذا غاب المتغيب من ولدي عن عيون الناس، وماج الناس بفقده، أو بقتله، أو بموته، اطلعت الفتنة، ونزلت البليّة... فوربّ عليّ إن حجتها عليها قائمة، ماشية في طرقها، داخلة في دورها وقصورها، جوّالة في شرق هذه الأرض وغربها، تسمع الكلام، وتسلّم على الجماعة، ترى ولا تُرى، إلى الوقت والوعد، ونداء المنادي من السماء، ألا ذلك يوم فيه سرور ولد عليّ وشيعته**»[1] وهذه الرواية أكدت على خفاء العنوان كما هو واضح وإن أشارت في الأثناء إلى خفاء العنوان والمعنون معاً أيضاً في بعض الأحيان.

ومنها: ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «**فما تنكر هذه الأمّة أن يكون الله يفعل بحجته ما فعل بيوسف، وأن يكون صاحبكم المظلوم، المجحود حقّه، صاحب الأمر يتردّد بينهم، ويمشي في أسواقهم، ويطأ فرشهم، ولا يعرفونه، حتى يأذن الله له أن يعرفهم نفسه، كما أذن ليوسف، حين قال له إخوته: ﴿أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾[2]**»[3].

---

(١) الغيبة: محمد بن إبراهيم النعماني: ص١٤٣.

(٢) يوسف: ٩٠.

(٣) الغيبة، النعماني: ص١٦٤.

ومنها: ما جاء أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «في القائم سنّة من موسى، وسنة من يوسف، وسنّة من عيسى، وسنّة من محمد صلى الله عليه وآله ... وأما سنّة يوسف فإن إخوته كانوا يبايعونه، ويخاطبونه، ولا يعرفونه»[1].

وفي رواية أُخرى: «وسنّة من يوسف بالستر، يجعل الله سبحانه بينه وبين الخلق حجاباً يرونه، ولا يعرفونه»[2].

ومنها: ما ورد كذلك عن أبي عبد الله عليه السلام: «يفقد الناس إمامهم، وإنه يشهد الموسم، فيراهم ولا يرونه»[3] والمراد من عدم الرؤية عدم معرفته عجّل الله فرجه بشخصه وعنوانه، بقرينة ما يأتي وما تقدم من الروايات.

ومنها: قول محمد بن عثمان العمري، وهو أحد سفراء ووكلاء الإمام المهدي عجّل الله فرجه في غيبته الصغرى: «والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة، يرى الناس ويعرفهم، ويرونه ولا يعرفونه»[4].

ما الفائدة من الإمام الغائب ؟

بعد الوقوف على حقيقة وهوية الغيبة، وأنها ليست إلاّ استتار العنوان فقط وإن كان استتار المعنون قد يحصل أيضاً كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات، وهو ما يقع لأجل تقدير بعض الظروف والضرورات المقتضية لذلك، يتضح أن الإمام المهدي عجّل الله فرجه حاضر بوجوده المبارك بين

(١) كمال الدين، الصدوق: ص٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٥١؛ الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي: ج٢ ص٩٣٧.
(٣) أصول الكافي، الكليني: ج١ ص٣٣٨.
(٤) من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ج٢ ص٥٢٠؛ كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ص٤٤٠؛ الغيبة، الطوسي: ص٣٦٤.

الناس، ولكن — بعد أن أثبتنا ضرورة وجوده عجل الله تعالى فرجه الشريف - قد لا يمكننا أن نشعر أو نحيط بفوائد وجوده المبارك، كما أشار إلى ذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حينما سأله جابر بن عبد الله الأنصاري عن فائدة الإمام في غيبته، فقال صلى الله عليه وآله: «**والذي بعثني بالحق إنهم ليستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها سحاب**»[1].

ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى بعض وجوه الانتفاع منه عجل الله تعالى فرجه الشريف في غيبته، وما يقوم به من أعمال وأدوار، نذكرها على سبيل الإجمال والاختصار:

إدارة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف في زمن الغيبة

قد تقدم آنفاً ضرورة وجود الحجّة من أهل البيت عليهم السلام، واستمراره إلى قيام الساعة، ولولاه لساخت الأرض بأهلها، ونضيف إلى ذلك القول: بأن الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف يمارس أدواره التي لا تتقاطع مع غيبته، فهو عليه السلام يمارس دوره الاجتماعي والسياسي بالمباشرة، أو بتوسط مجموعة من رجال الغيب الذين يُصطلح عليهم بالأبدال، والسيّاح الذين يديرون حكومته الخفيّة، ويتصرفون في مقادير الأمّة، بل البشرية جمعاء، من أجل درئها عن الانحراف، وحفظها عن الزيغ والضلال، والوقوع في الهاوية، وهذا ما تشير إليه الروايات الواردة من طرق الفريقين:

١- قال السيوطي في (الدّر المنثور): «وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً،**

(١) كشف الغمة، الأربلي: ج٢ ص٣١٥؛ ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج٣ ص٢٣٩.

مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلاّ أبدل الله مكانه آخر».

وأخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون.

وأخرج أحمد في (الزهد) والخلال في (كرامات الأولياء) بسند صحيح عن ابن عباس قال: ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض....

وأخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: لم تبق الأرض إلاّ وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض ويخرج بركتها إلاّ زمن إبراهيم فإنه كان وحده.

وأخرج أحمد في الزهد عن كعب قال: لم يزل بعد نوح في الأرض أربعة عشر يدفع الله بهم العذاب.

وأخرج الخلال في كرامات الأولياء عن زاذان قال: ما خلت الأرض بعد نوح من اثني عشر فصاعداً يدفع الله بهم عن أهل الأرض»[1].

٢- ما أخرجه الهيثمي، عن عبادة بن الصامت، عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون، مثل خليل الرحمن عزّ وجلّ، كلّما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً»[2]، قال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الواحد بن قيس، وقد وثّقه العجلي، وأبو زرعة[3].

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ج١ص٧٦٥-٧٦٦.

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص٦٢؛ عون المعبود، العظيم آبادي: ح٨ ص١٥١ ج١١ ص٢٥٣؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٢ ص١٨٦.

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص٦٢.

٣- وعن عبادة بن الصامت أيضاً، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون»[(١)] قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن[(٢)]، وقد صححه العزيزي، والمناوي، في شرحيهما على الجامع الصغير للسيوطي[(٣)].

وقال المناوي في فيض القدير: «وهذه الأخبار وإن فرض ضعفها جميعها، لكن لا ينكر تقوي الحديث الضعيف بكثرة طرقه وتعدد مخرجيه، إلاّ جاهل بالصناعة الحديثية، أو معاند متعصب، والظن به ـ أي بابن تيمية ـ أنه من قبيل الثاني»[(٤)].

ثم إن أولئك الأبدال مستترون عن أعين الناس، كما نصّ على ذلك الغزالي، حيث قال: «إنما استتر الأبدال عن أعين الناس والجمهور؛ لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت، لأنهم جهّال بالله، وهم عند أنفسهم، وعند الجهلاء علماء»[(٥)].

وبعض من الأبدال من أصحاب الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، يخرجون معه حين يخرج، كما أخرج ذلك نعيم بن حمّاد المروزي في «كتاب الفتن» عن عليّ عليه السلام قال: «إذا سمع العائذ الذي بمكة بالخسف خرج مع اثني عشر ألفاً، فيهم الأبدال»[(٦)].

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص٦٢ ـ ٦٣؛ عون المعبود، العظيم آبادي: ج٨ ص١٥١؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج٣ ص٢١٧.
(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص٦٢ ـ ٦٣.
(٣) نقلاً عن عون المعبود: ج٨ ص١٥٢.
(٤) فيض القدير، المناوي: ج٣ ص٢٢٠.
(٥) نقلاً عن فيض القدير: ج٣ ص٢٢٠.
(٦) كتاب الفتن، المروزي: ص٢١٥.

إذن فهناك أوتاد وأبدال، على درجة عالية من الإيمان والإخلاص والتضحية في سبيل الإسلام، مستترون عن أعين الناس بخفاء عنوانهم الذي هم عليه، يقومون بإنجاز أدوار مهمّة في الأمّة، وقد ذكرت بعضها الروايات - كما تقدم- فلا غرابة حينئذ أن يستعين بهم الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في إدارة حكومته المستترة أثناء غيبته، لا سيما وأن الروايات ذكرت أن بعضهم من أنصاره عجل الله تعالى فرجه الشريف عند ظهوره، لإقامة دولة العدل والقسط.

ولا يخفى أن الإدارة الخفيّة أقوى وأشد تأثيراً في الواقع من الإدارة الظاهرة، كما هو الحال في ما نشاهده اليوم من التحكم بمقادير الأمور، وإدارة العالم بواسطة أجهزة المخابرات التي تعمل خلف الكواليس، وكذا ما في السياسات الماليّة الخفيّة، كالبنك الدولي الذي بيده مقادير سياسة العالم الاقتصادية، ولكن بصورة مبطّنة غير معلنة.

وجه التشابه بين الخضر عليه السلام والإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

وقد ضرب الله تعالى مَثَلاً لنا في قصة الخضر عليه السلام مثلاً لما يقوم به الإمام المهدي عليه السلام، حيث استعرض القرآن الكريم هذه القصة في وسط سورة الكهف، هذا مع علمنا بأن القرآن الكريم لم يكن هدفه من طرح هذه القصة تسطير الحكايات الخياليّة التي لا واقع لها ـ والعياذ بالله ـ فالقرآن الكريم منزّه عن ذلك.

قصة الخضر

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا *

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا* قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾[1].

فقد أمر الله عزّ وجلّ نبيّه موسى عليه السلام بالذهاب إلى الخضر عليه السلام المتخفي المستتر، حيث لم يكن أحد يعلم بمكانه إلاّ الله وموسى، بعد أن أعلمه الله تعالى بمحلّ تواجده، وذلك للتعلم والأخذ منه، والاطلاع على معالم الإدارة الإلهية الخفية، التي تدار بعيداً عن أعين الناس، فالخضر عليه السلام مع كونه متستراً، كما نقل ذلك النووي عن الثعلبي، قوله: «الخضر نبيّ معمّر على جميع الأقوال، محجوب عن الأبصار، يعني عن أبصار أكثر الناس»[2].

فهو عليه السلام منتدب من الله تبارك وتعالى لإنجاز الأوامر الإلهيّة، يعمل ضمن مجموعة خاصّة من البشر، لا يعلمها أحد من عامة الناس، وهم أوتاد الأرض وأبدالها كما تقدم ذكرهم، وكما تصرح بذلك الآية المباركة، حيث جاء فيها قوله عزّ وجلّ: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾.

ثم إن الخضر عليه السلام بنفسه قد صرّح لموسى عليه السلام بأن كل ما فعله لم يكن عن أمره، وإنما هو بأمر من الله تعالى، حيث قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3].

إذن هذه السورة المباركة تشير إلى وجود منظومة ومجموعة من البشر على وجه الأرض، هم عباد الله، اختصهم لنفسه، يقومون بإنجاز المهامّ الإلهية الخطيرة والمحورية التي لها الأثر البالغ والمهم على مسار البشرية،

---

(١) الكهف: ٦٥ ـ ٦٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٥ ص١٣٦.

(٣) الكهف: ٨٢

ولم يحظ موسى عليه السلام من ذلك، إلاّ بعد عدّة وقائع، استعرضها القرآن الكريم، ولم يصبر على تلقي المزيد من تلك الأدوار والمهام؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رحمة الله علينا، وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب»[١].

فكان الخضر عليه السلام، ومجموعة من عباد الله الصالحين يديرون هذا العالم بطور وطراز آخر، على غير ما هو المألوف عندنا، بحسب الأسباب الظاهرة والإدارة المعلنة، وهذا ما صرّح به الكثير من المفسرين، كالمراغي في تفسيره تبعاً للفخر الرازي وغيره، حيث قال: «وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر، وهذه لا يطلع الله عليها إلاّ بعض خواصّ عباده»[٢].

ثم إنّ السورة المباركة تستعرض في هذه القصّة ثلاث قضايا مهمّة وأساسية في الحياة البشرية مارسها الخضر عليه السلام:

الأولى: وهي قضية سفينة المساكين التي خرقها الخضر عليه السلام حتى لا يغصبها الملك، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٣].

فلو صادرها الملك لأثّر ذلك سلباً على معيشة أولئك المساكين، حيث كانت السفينة مصدر رزقهم؛ لذا قال الفخر الرازي في تفسيره: «إنّ تلك

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج١٥: ص٣٥٦؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٦: ص٣٩١؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٦ ص٣٩٧، تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ج٣ ص١٠٣.
(٢) تفسير المراغي، المراغي: ج٦ ص٦، وكذا انظر: تفسير الفخر الرازي: ج١١ ص١٦٠.
(٣) الكهف: ٧٩.

السفينة كانت لأقوام محتاجين، متعيشين بها في البحر، والله تعالى سماهم مساكين...»[1].

وقال المراغي في تفسيره، حكاية عن الخضر عليه السلام: «أما فعلي ما فعلته بالسفينة، فلأنها كانت لقوم ضعفاء، لا يقدرون على دفع الظلمة، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها... وخلاصة ذلك: إنّ السفينة كانت لقوم مساكين عجزة، يكتسبون بها، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون، ويعجزون عن دفعه، من غصب ملك قدّامهم، من عادته غصب السفن الصالحة»[2].

الثانية: قصّة الغلام، وأنّه لو بقي حيّاً لكان في ذلك مفسدة لوالديه، في دينهما ودنياهما، و «لو بقي كان فيه بوارهما، واستئصالهما»[3]، بل قد جاء في روايات الفريقين: أن الله تعالى أبدل أبويه ـ رحمة بهما ـ بجارية ولدت سبعين نبيّاً، فالسنّة الإلهية اقتضت أن لا يُرزقا تلك الجارية المباركة، إلاّ بعد فقدانهم ذلك الغلام.

ولا يخفى ما في الدور الكبير لوجود سبعين نبياً في حياة البشر، وهدايتهم ورقيهم، كما نصّت على ذلك بعض الروايات، فقد أخرج ابن حجر، عن تفسير ابن الكلبي: «ولدت [أم الغلام] جارية، ولدت عدة أنبياء، فهدى الله بهم أمماً، وقيل: عدة من جاء من ولدها من الأنبياء سبعون نبياً»[4].

الثالثة: قصة إصلاح الخضر عليه السلام للجدار، لأنه لو انهار ذلك الجدار لضاع

---

(١) تفسير الرازي، الفخر الرازي: ج١١ ص ١٦١.
(٢) تفسير المراغي، المراغي: ج٦ ص٧.
(٣) الدر المنثور، السيوطي: ج٥ ص٤٢٩.
(٤) فتح الباري، ابن حجر: ج٨ ص ٣٢٠؛ ونحوه تفسير القرطبي: ج١١ ص٣٧؛ وانظر فتح القدير، الشوكاني: ج٣ ص٣٠٦.

مال اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

خصائص الحكم الإلهي

لا يخفى أن العبر والمعطيات التي ضمّنها الله تعالى في قصة الخضر عليه السلام كثيرة ومهمّة جداً، ولكن نستعرض منها ما يتعلق ببحثنا وموضوعنا، وهي كالآتي:

١ـ دوام الحاكمية الإلهية

إنّ حاكمية الله تعالى في الأرض لا تنقطع أبداً إلى يوم القيامة، والذي يقوم بأداء وتنفيذ حكم الله في الأرض هو خليفته في أرضه، فخليفة الله هو الواسطة المباشرة لإجراء حاكميته تعالى.

وقد جاء ذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] سواء كان ذلك الخليفة رسولاً أم نبياً أم ولياً ووصياً من الأوصياء.

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾[3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿إنّما قَولُ المُؤمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليَحكُمَ بينَهُمْ أنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وأطَعْنا﴾[4].

---

(١) الكهف: ٨٢.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) يوسف: ٤٠.
(٤) النور: ٥١.

وقال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١).

فحاكمية الله تعالى ـ التي لا تقتصر على سلطته في التشريع فقط، بل يداه مبسوطتان في كل المجالات القضائية والسياسية والاقتصادية ـ يجريها على أيدي خلفائه من الرسل والأنبياء والأولياء والأوصياء.

هذا وقد أرشدنا الله عزّ وجل في قرآنه الكريم إلى خلفائه الذين جعلهم أئمة وقادة للبشرية جمعاء، ابتداءً من آدم عليه السلام أبي البشر، وأوّل خليفة لله على أرضه، ومروراً بنوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام، وانتهاءً برسول الله صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء، وأوصيائه عليهم السلام الهداة المهديين، حيث قال تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٢).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٣).

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(٤).

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٥).

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) السجدة: ٢٤.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) القصص: ٥.

(٥) البقرة: ١٢٤.

ومن حصيلة هذه النصوص القرآنية وغيرها مما يشاركها في المضمون، يتضح أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل خلفاء له في الأرض، ينفّذون حاكميته في الأرض، ويمثّلون مظهراً وتجلياً لسلطنته على الخلق.

٢ـ شمولية الحاكمية الإلهية

ثم إنّ تلك الحاكمية لله تعالى شاملة لكل المجالات، ولجميع الأمور مهما كان حجمها، وهذا ما نلمسه واضحا من النصوص القرآنية، حيث نجد أن الله تبارك وتعالى هو الحاكم في جميع الأمور، وكان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله منفذاً لحكم الله في الأرض، ومن تلك الآيات المباركة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾(٣).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾(٤).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾(٥).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ

---

(١) الأنفال: ٧٠.
(٢) التوبة: ٧٣.
(٣) الأنفال: ٦٥.
(٤) الأحزاب: ٢٨.
(٥) التحريم: ١.

وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤).

وغيرها من النصوص القرآنية الأخرى.

وقد خاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم بـ« قل كذا» و«قل كذا» في أكثر من (٣٥٠) مورداً، وكانت الأوامر الإلهية تنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في كل صغيرة وكبيرة، بدءاً من بيته وشؤونه الخاصة، ومروراً بقضايا الحكومة والدولة وإدارة شؤون المسلمين ومسائل الحرب وقضايا الجهاد وغيرها، فلا يُعقل أن هذه الحاكمية الحيّة والفعّالة من قبل الله تعالى تجاه قضايا الإسلام والمسلين والتي تجري وتُنفّذ عن طريق خليفته المعصوم عن الخطأ، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، تنقطع بين ليلة وضحاها، ويوكل الأمر إلى عامّة المسلمين الذين يجهلون أبسط المسائل الفقهية، فضلاً عن

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) النحل: ٤٤.
(٣) آل عمران: ٦١.
(٤) الأنفال: ٦١.

غيرها من القضايا المهمة في حياة المسلمين، والبشرية بصورة عامة.

إذن لابد من وجود من ينفّذ حاكميته تعالى بعد رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك هو الخليفة الحقّ الذي يحمل مزايا الأنبياء والأوصياء والرسل؛ ليكون قادراً على تحمل الأمانة، وتنفيذ تلك الحاكمية بالنحو الذي أراده الله عزّ وجلّ، منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة، وقد نصب رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر من الله تعالى ذلك الخليفة من بعده، وهم أهل بيته، عليّ وبنوه عليهم السلام، وهم الخلفاء الاثنا عشر، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق، إذا ذهبوا ماجت الأرض بأهلها.

ثم إن هذا المعنى من الحاكمية المستمرة لله تعالى في الأرض يلتقي مع مقولة الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[1]، أي أن هذه الأفعال التي قمت بها ليست بمحض إرادتي، بل هي بأمر من الله تعالى، وإجراء لحاكميته.

وعلى هذا الأساس نقول: إن خليفة الله في الأرض، القائم بهذا الدور في هذا العصر، هو الإمام المهدي عجل الله فرجه، فهو الذي يقوم بتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى، ولكن في الخفاء، لأجل الحكمة والأسباب التي اقتضت ذلك، إلى أن يأتي أمر الله سبحانه بالظهور، وإقامة دولة العدل والقسط، فيكون الحق معلناً، والباطل ضامراً خاسئاً.

وقد جاء ذكر ذلك الدور الفاعل للإمام المهدي عجل الله فرجه في عصر الغيبة في كثير من الروايات على لسانه عليه السلام، منها قوله عليه السلام: «فإنا نحيط علماً

---

(١) الكهف: ٨٢

بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم»[١]، وقوله عليه السلام: «إنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولو لا ذلك لنزل بكم اللأواء، واصطلمكم الأعداء، اتقوا الله جلّ جلاله، وظاهرونا على انتياشكم من فتنة، قد أنافت عليكم، يهلك فيها من حمّ أجله، ويحمى عنها من أدرك أمله»[٢].

دور الإمام عجل الله فرجه الشريف في درء الفساد

من الأدوار الأساسية التي يقوم بها خليفة الله في الأرض، هو منع البشرية من الانحدار في الهاوية، ودرء خطر استئصالها، والإبادة التامة والشاملة لها، سواء كان ذلك نتيجة للحروب، أم لتفشي الظلم والجور والفساد، وانتشار الأمراض والأوبئة وغيرها من الأمور التي تهدد البشرية بالانقراض.

وهذا المعنى أشار إليه القرآن الكريم، عند ذكره لاعتراض الملائكة، في معرض تعريفه للخليفة، وذلك في قوله تعالى - حكاية عن الملائكة: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، فالملائكة افترضت أن خليفة الله لا يفسد، ولا يسفك الدماء، بل هو الذي يقف حائلاً أمام ذلك، وقد أقرّهم الله تبارك وتعالى على ذلك، وأجابهم من جهة أخرى، حيث قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ج٢ ص ٣٢٣، الخرائج والجرائج، قطب الدين الراوندي: ج٢ ص٩٠٢.
(٢) الاحتجاج، الطبرسي: ج٢ ص ٣٢٣.
(٣) البقرة: ٣٠.

إذن أوّل دور من الأدوار الأساسية التي يقوم بها خليفة الله في الأرض، هو درء الفساد، وممانعة سفك الدماءأوهذا ما يلتقي مع التصريحات الكثيرة للنبي صلى الله عليه وآله في هذا المجال، كقوله صلى الله عليه وآله: «**لا تخلوا الأرض من حجة**» وقوله صلى الله عليه وآله: «**أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض**» وغير ذلك من التصريحات النبويّة، التي تؤكد على أن من بين الأدوار الأساسية للخلفاء حفظ البشرية من الهلاك، ومنع وقوعها في الفساد.

ثم إنّ السؤال الأساس يقع عمّا هو المراد بالفساد؟ وهل يشمل كل فساد ولو كان جزئياً ؟

وفي مقام الإجابة عن ذلك نقول: ليس المراد من الفساد ما يشمل الفساد الجزئي والمقطعي، وذلك بمقتضى اعتراف الملائكة، حيث إنهم لم يعترضوا على الفساد القليل؛ لأن الفساد القليل يقابله الخير الكثير، فاعتراض الملائكة إنما كان على الفساد المطبق، والشامل للأرض ومن عليها المستأصل للبشرية، والموجب لاجتثاثها وهلاكها.

فدور الخليفة إذاً لا يقتصر على فئة معينة من الناس، أو على المسلمين فحسب، وإنما هو شامل لكل البشرية، لذا قال تعالى شأنه: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ**﴾، وكذا قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تخلو الأرض من حجة**»[1] وقوله: «**إذا**

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج٢ ص١٩٦ ح ١٧٩٤؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٢ ص٣٤ ح٣٣٨٦١؛ وانظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٠ ص٢٥٥؛ وانظر تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٦؛ وانظر ينابيع المودة، القندوزي الحنفي:ج١ ص٨٩؛ وانظر المناقب، الخوارزمي: ص٣٦٦.

هلكوا ماجت الأرض بأهلها»، وقوله: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»، فلم يقل هلك أو ذهب المسلمون خاصة، أو ماجت الأرض بهم.

فالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي هو خليفة الله في الأرض، يمارس دوراً كبيراً في حياة البشرية، وإن لم يتقلد الحكومة الرسمية الظاهرة، فهو عجل الله تعالى فرجه الشريف كما هو الحال في الخضر عليه السلام، الذي هو وليّ من أولياء الله تعالى، وعبد من عباده، قلّده مناصب عالية وحكومة رائدة، يديرها بالسر والخفاء.

فقصّة الخضر عليه السلام - الذي هو عبد من مجموعة عباد جعلهم الله أوتاداً للأرض - ذكرها الله عزّ وجلّ في قرآنه الخالد، عظة وعبرة لنا، وليست هي مجرد قصة خيالية لا واقع لها، وإنما الغاية من هذه القصّة هي الاعتقاد بوجود أولياء وحجج لله تعالى، يقومون بمهام إلهية، ويديرون دفّة الحكم الإلهي في الأرض.

إذن ليست الغيبة بمعنى التعطيل والجمود، كما قد يتخيلها البعض.

إذن فالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف له دور كبير في فترة غيبته.

أضف إلى ذلك كله، أن هناك أعمالاً وأفعالاً أوكل الإمام عليه السلام مهمّة القيام بها إلى من قلّدهم النيابة العامة في زمن الغيبة، وهم العلماء والفقهاء العدول، ليكونوا بذلك ممثلين له عليه السلام، ينوبون عنه في بعض المهام التي أوكلت إليهم، كما ورد ذلك عنه عليه السلام، حيث قال: «وأمّا الحوادث الواقعة

فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم»[١].

وقد أشار باقي الأئمة عليهم السلام أيضاً إلى هذا الدور المهم للعلماء في عصر الغيبة الكبرى ـ فمثلاً ـ ما عن الإمام الهادي عليه السلام أنه قال: «لو لا من يبقى بعد غيبة قائمكم عليه الصلاة والسلام من العلماء الداعين إليه، والذّابين عن دينه بحجج الله، المنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب، لما بقي أحد إلاّ أرتد عن دينه، ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكانها، أولئك هم الأفضلون عند الله»[٢].

ونقتصر في هذا المجال على ما أفاده الشيخ المفيد رحمه الله، حيث قال بعد تعرضه لبعض مهام الغيبة: «ولا يحتاج هو عليه السلام إلى تولي ذلك بنفسه، كما كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام تظهر بأتباعهم والمقرّين بحقهم، وينقطع العذر بها فيما ينأى عن ملتهم ومستقرهم، ولا يحتاجون إلى قطع المسافات لذلك بأنفسهم، وقد قامت أيضاً بأتباعهم بعد وفاتهم... وكذلك إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام، وقد يتولاها أُمراء الأئمة، وعمالهم دونهم، كما كان يتولى ذلك أمراء الأنبياء عليهم السلام وولاتهم، ولا يخرجون هم إلى ذلك بأنفسهم، وكذلك القول في الجهاد، ألا ترى أنه يقوم به الولاة من قبل الأنبياء والأئمة دونهم، ويستغنون عن توليه بأنفسهم، فعُلم بما ذكرناه أن الذي أحوج إلى وجود الإمام، ومنع من عدمه، ما أختص به من حفظ الشرع، الذي لا يجوز ائتمان غيره عليه، ومراعاة الخلق في أداء ما كلفوه

(١) الغيبة، الطوسي: ص٢٩١؛ الاحتجاج: الطبرسي: ج٢ ص٢٨٣؛ الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي: ج٣ ص١١١٤.
(٢) الاحتجاج، الطبرسي: ج٢ ص٢٦٠.

من أدائه»[١].

والحاصل: إن للإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف طوراً آخر من أطوار الإدارة والحكم في زمن الغيبة، وأما تنفيذ الكثير من الأمور التي تحتاج إلى إجراء بحسب ما هو الظاهر والمعلن، فقد أوكل ذلك عليه السلام إلى العلماء والفقهاء.

خلفيات وفوائد أخرى للغيبة

أولا: حفظ شخصية الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف

من أهم فوائد غيبة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف هي حفظ شخصيته عجل الله تعالى فرجه الشريف من القتل والاغتيال؛ لأن هذه الأمة الإسلامية لا تعدو خطى الأمم السابقة، كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن هذه الأمة ستتبع خطى الأمم السالفة، حذو النعل بالنعل، والقذّة بالقذّة، وقد وقعت الغيبة لكل من إدريس وصالح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، وقد اضطرّ موسى عليه السلام إلى الهرب من قومه ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[٢]، وكذلك رفع الله عيسى عليه السلام، عندما أراد بنو إسرائيل قتله، قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٣] كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحتجب عن قومه في غار حراء فترة مديدة من الزمن، وقد اضطر للاعتزال عنهم في الشعب ثلاث سنين، وأخرج أحمد بن حنبل عن عكرمة قوله: مكث النبي صلى الله عليه وآله خمس عشرة سنة، منها أربع أو

(١) مسائل عشر، الشيخ المفيد: ص١٠٦-١٠٧.
(٢) الشعراء: ٢١.
(٣) النساء: ١٥٨.

خمس يدعو إلى الإسلام سراً وهو خائف[(١)].

فإذا كانت غيبة واحتجاب أولئك الأنبياء عليهم السلام لا تضر، ولا تقدح في نبوتهم وبعثتهم للأمم، بل يعد ذلك من الأساليب المهمة في سبيل انجاز وتحقيق الغاية، لاسيما وأنه امتثال لمشيئة الله تعالى وإرادته، كذلك ما نجده في غيبة الإمام المهدي عليه السلام، إذ أن غيبته كغيبتهم عليهم السلام، وظروفه كظروفهم، من متابعته ومحاولة قتله والقضاء عليه، بل ما نجده في حياة الإمام المهدي عليه السلام من الظروف التي تستدعي الغيبة كثيرة جداً، وفي غاية الوضوح، حيث كانت السلطات العباسية تسعى حثيثاً للقبض عليه وقتله، كما نصّ على ذلك المؤرخون والمحدثون:

منهم: ابن الصباغ المالكي، حيث قال: «**خلّف أبو محمد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر لدولة الحق، وكان قد أخفى مولده، وستر أمره، لصعوبة الوقت، وشدّة طلب السلطان، وتطلّبه للشيعة، وحبسهم، والقبض عليهم**»[(٢)].

ومنهم: ابن أبي الفتح الأربلي في كتابه «كشف الغمة»، وعبارته قريبة من عبارة ابن الصباغ المتقدمة، وينقل بالإضافة إلى ذلك رواية أحمد بن عبيد الله بن خاقان، والي الضياع والخراج بقم، وجاء فيها: «**وخرجنا وهو على تلك الحال، والسلطان يطلب أثر ولد الحسن بن علي اليوم، وهو لا يجد إلى ذلك سبيلاً، والشيعة مقيمون على أنه مات وخلّف ولداً، يقوم مقامه بالإمامة**»[(٣)]

---

(١) كتاب العلل، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٥٩٠ ج٣ ص٤٢٦، وكذا في الدر المنثور. السيوطي ج٥: ص١٠٢، المصنف: الصنعاني ج٥ ص٣٦١.

(٢) الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي: ص١٠٩١.

(٣) كشف الغمة، الأربلي: ج٣ ص٢٠٥.

وغيرهم كثير، فراجع.

وهذا السبب وإن كان غير مختص به دون آبائه عليهم السلام، حيث تعرضوا للمطاردة والقتل والاغتيال؛ إلاّ أن السبب الأساس الذي يقف وراء اختصاص الإمام المهدي بالغيبة دونهم عليهم السلام، هو أنه عليه السلام مكلف بإقامة الدولة الإسلامية العالمية، وعلى يديه يحقق الله تعالى العدل والقسط على هذه الأرض، وبواسطته يُظهر الله عزّ وجلّ الإسلام على الدين كلّه ولو كره المشركون، فلا بد من المحافظة على وجوده المبارك لإنجاز هذه المهمة التي جعلها الله تعالى الغاية الأساسية من بعثة الأنبياء والرسل.

ولا تعني غيبتة واختفاؤه عجل الله تعالى فرجه الشريف انتفاء إمامته، أو تخلّيه عن المسؤوليات المُناطة به، بل هو الحجة القائمة لله على خلقه، ولكن ستره الله تعالى عن خلقه خوفاً على حياته من الظالمين، كما صرح بذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام، حيث قال: «**اللّهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مغمور، لأن لا تبطل حجج الله، وبيّناته**»[1]، وخائف مغمور أي خائف مختف، وقد بيّنا سابقاً أن الغيبة لا تعني أنه ناء وبعيد وعديم الدور في الأمّة، وإنما الغيبة هي إدارة الأمور والعمل بالخفاء.

ومعنى الخوف من القتل ليس ما يتبادر إلى الأذهان الساذجة، من المعاني الأوّلية للخوف، لأن هذا النوع من الخوف غير متصور في أولياء

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج ٥٠ ص٢٥٥، وانظر تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٦، وانظر كنز العمال: ج ١٠ ص٢٦٣ - ٢٦٤ «أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف والمرهبي في العلم ونصر في الحجة»، المعيار والموازنة، الإسكافي: ص٨١؛ مناقب أمير المؤمنين، محمد بن سليمان القاضي: ج٢ ص٩٦؛ دستور معالم الحكم: ابن سلامة: ص٨٤ ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج١: ص٨٩

الله تعالى وحججه الذين يأنسون بالموت ولقاء الله عزّ وجلّ، وإنما المقصود من خوف القتل هنا هو الخوف على ضياع الغرض والهدف الإلهي الذي أُنيط به عليه السلام، حيث أن مسؤوليته عليه السلام جسيمة وعظيمة تشبه مسؤولية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، الذي صدع بأمر الله تعالى، لنشر الدين على وجه الأرض، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**هو رجل من عترتي، يقاتل على سنتي، كما قاتلت أنا على الوحي**»[١].

فالخوف المقصود إنما هو الخوف من استئصال الحجج الإلهية على الخلق، كما ورد ذلك في الروايات متضافراً:

منها: ما جاء عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله يقول: إن للغلام غيبة قبل أن يقوم، قال: «قلت ولم؟ قال: يخاف، وأومأ إلى بطنه، ثم قال: يا زرارة وهو المنتظر...»[٢].

ومنها: ما عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً قال: «**للقائم غيبة قبل قيامه أقلت: - أي زرارة ولَمَ ؟ قال: يخاف على نفسه الذبح**»[٣].

ومنها: ما جاء عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**في صاحب هذا الأمر أربعة، من سنن أربعة أنبياء... فأما من موسى: فخائف يترقب**»[٤].

---

(١) كتاب الفتن، المروزي: ص٢٢٩؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٣ ص٢٦٣.

(٢) الكافي، الكليني: ج١ ص٣٣٧؛ تاريخ آل زرارة، أبو غالب الزراري: ج١: ص٢١؛ كمال الدين، الشيخ الصدوق: ص٣٤٦؛ الغيبة: النعماني: ص١٧٧.

(٣) كمال الدين تمام النعمة، الصدوق: ص٤٨١.

(٤) الإمامة والتبصرة: ص ٩٤، كمال الدين، الصدوق: ص٢٨؛ دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري: ص ٤٧٠؛ كتاب الغيبة، الطوسي: ص٤٢٤.

ومنها: ما عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا قام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف قال: ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربي حكماً...»[(١)].

ومنها: ما جاء في كشف الغمة للأربلي، عن الإمام الحسين عليه السلام قال: «في القائم منا سنن من الأنبياء، سنة من نوح، وسنة من إبراهيم، وسنة من موسى، وسنة من عيسى، وسنة من أيوب، وسنة من محمد... وأما من موسى فالخوف، والغيبة...»[(٢)].

وكذلك في كشف الغمة، في حديث محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن قدام القائم بلوى من الله، قلت: وما هو جعلت فداك؟ فقرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[(٣)]، ثم قال: الخوف من ملوك بني فلان، والجوع من غلاء الأسعار، ونقص الأموال من كساد التجارات، وقلّة الفضل فيها، ونقص الأنفس بالموت الذريع، ونقص الثمرات بقلّة ريع الزرع، وقلّة بركة الثمار، ثم قال: وبشر الصابرين عند ذلك بتعجيل خروج القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف»[(٤)].

ثانيا: التمحيص

معنى التمحيص: هو التطهير مع شدّة الاختبار، لأنّ مادة (محص) تدلّ على الخلوص، والتطهير من كل عيب، كما يقال محّص الذهب بالنار، أي خلّصه مما يشوبه.

(١) الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني: ص١٧٤.
(٢) كشف الغمة، الأربلي: ج٣ ص٣٢٩، إكمال الدين وإتمام النعمة، الصدوق: ص٣٢٢.
(٣) البقرة: ١٥٥.
(٤) كشف الغمة، الأربلي: ج٣ ص٢٦٠.

وعلى ضوء ذلك كان التمحيص والابتلاء والاختبار سنة إلهيّة رافقت البشرية منذ بداية خلقها، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1].

وكذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3]، فمن خلال التمحيص يتعين مركز الفرد وواقعه تجاه عقيدته وإيمانه، استقامة أو انحرافاً، كما يكشف التمحيص عن عناصر القوة والضعف في نفسية الإنسان، فهو طريق لاستكمال النفوس ورقيّها، فإذا ورد التمحيص على جماعة من الناس فإنّه يقتضي امتياز المؤمنين من المنافقين.

وتتضاعف أهمية التمحيص في عصر الغيبة فيما إذا اقترن بالإعداد ليوم الظهور، لتحمل المسؤولية، والمشاركة في إنقاذ العالم من الظلم والجور الذي يفترض فيه وجود عدد كاف ممحص ومطهر من شوائب الكفر والشرك والنفاق، ليكونوا من المخلصين الذين لهم شرف المشاركة في الدولة الكريمة العادلة بقيادة الإمام المهدي عجل الله فرجه.

ومن هذا المنطلق نعرف أهمية التمحيص والاختبار الذي أشارت إليه الروايات بكثافة.

ومما يشهد على أهمية التمحيص ودوره في تمييز الخبيث من الطيب،

(١) آل عمران: ١٧٩.
(٢) آل عمران: ١٤١.
(٣) آل عمران ١٥٤.

ما لمسناه واضحاً من الردّة والانقلاب على الأعقاب بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث وجدنا أنّ الكثير ممن رافقوا رسول الله صلى الله عليه وآله لم يصمدوا أمام غربال التمحيص والاختبار، بل انحرفوا عمّا رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وآله في وصاياه الكثيرة والمتعددة في شأن الإمامة والخلافة، فضلاً عما صرّح به القرآن الكريم في هذا الشأن، وهذا يدل على أن كثيراً من هؤلاء الأصحاب لم يكونوا ممحصين، ولا قادرين على تحمل المسؤولية.

ومن هنا نفهم سرّ عدم جعل الأئمة عليهم السلام الكفاح العسكري المسلح هو الخيار والحل الوحيد لإقامة الحق والعدل؛ وذلك لأنهم لا يرون القيام بالعمل العسكري وحده كافياً للانتصار وإقامة دعائم الحكم الصالح، بل يتوقف ذلك على إعداد جيش عقائدي ممحص مطهّر مخلص يؤمن بالإمام وعصمته وحاكميته إيماناً مطلقاً، ويعي أهدافه الكبيرة، ويدعم تخطيطه الواسع.

وعلى هذا الأساس نجد أن من شرائط ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الأساسية هو ظهور عدد من الأصحاب والأنصار المخلصين للإسلام وللإمام عليه السلام القادرين على تحمل المسؤولية، وهذا لا يتحقق إلاّ من خلال مرور البشرية بالظروف القاسية والفتن الشديدة.

ومما ينبغي الإشارة إليه، هو أن التمحيص المقصود الذي من خلاله تتهيأ البشرية لليوم الموعود، هو تمحيص البشرية بشكل عام، وعلى طول امتدادها التاريخي، بالنحو الذي ينتج أفراداً مخلصين قادرين على تحمل المسؤولية في الدولة الكريمة.

أما روايات التمحيص والابتلاء في زمن الغيبة، وقبل قيام الإمام المهدي عجل الله فرجه فهي كثيرة جداً، وقد وردت في كتب الفريقين:

منها: رواية ابن عباس المتقدمة، عندما قال جابر لرسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة؟ قال: إي وربي، ليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين»[(١)].

ومنها: ما جاء على لسان الإمام علي عليه السلام، عندما قال للإمام الحسين عليه السلام: «التاسع من ولدك يا حُسين هو القائم بالحق، والمظهر للدين، والباسط للعدل، قال الحسين عليه السلام : فقلت: وإن ذلك لكائن؟ فقال عليه السلام: أي والذي بعث محمداً بالنبوّة، واصطفاه على جميع البرية، ولكن بعد غيبة وحيرة لا يثبت على دينه إلاّ المخلصون المباشرون لروح اليقين الذين اخذ الله ميثاقهم بولايتنا، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه»[(٢)]، فالمخلصون بحسب هذه الرواية هم حاصل ذلك الابتلاء والتمحيص.

ومنها: ما جاء أيضاً عن الإمام علي عليه السلام، حيث قال للأصبغ بن نباته: «الحادي عشر من ولدي هو المهدي، يملأها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، تكون له حيرة وغيبة، يضل فيها أقوام، ويهتدي فيها آخرون، فقلت: يا أمير المؤمنين وان هذا لكائن؟ فقال: نعم، كما أنه مخلوق، وأنى لك بالعلم بهذا الأمر يا أصبغ، أولئك خيار هذه الأمّة، مع أبرار هذه العترة»[(٣)].

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج٣ ص٢٩٧ وص ٣٨٧، كشف الغمة: الأربلي: ج٣ ص٣٢٨.

(٢) كشف الغمة، الأربلي: ج٣ ص٣٢٨.

(٣) الإمامة والتبصرة، ابن بابوية القمي: ص١٢١؛ الغيبة، النعماني: ص٦١؛ كفاية الأثر، الخزاز القمي: ص٢٢٠.

ومنها: ما ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[(١)]، قال: «هذا مولود في آخر الزمان، هو المهدي من هذه العترة، تكون له حيرة وغيبة، يضل فيها أقوام، ويهتدي فيها أقوام»[(٢)].

ومنها: ما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً، قال: «والله لتميزنّ، والله لتمحصنّ، والله لتغربلنّ، كما يغربل الزؤان من القمح»[(٣)].

ومنها: ما ورد عنه أيضاً عليه السلام، قال: «هيهات هيهات، لا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى تمحصوا، هيهات ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم، حتى تميزوا، ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى تغربلوا، ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم إلاّ بعد إياس، ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى يشقى من شقي، ويسعد من سعد»[(٤)].

ومنها: ما ورد عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «والله لتُمحصنّ، والله لتطيرن يميناً وشمالاً، حتى لا يبقى منكم إلاّ كل امرئ أخذ الله ميثاقه، وكتب الإيمان في قلبه، وأيده بروح منه»[(٥)].

ومنها: ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً قال: «لا بد للناس أن يمحّصوا ويميّزوا ويغربلوا، وسيخرج من الغربال خلق كثير»[(٦)].

---

(١) التكوير: ١٥-١٦.

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة، الصدوق: ص ٣٣٠، انظر: الغيبة، الطوسي: ص٣٣٦.

(٣) الغيبة، الطوسي: ص ٣٤٠، الغيبة، النعماني: ص٢٠٥.

(٤) الغيبة، النعماني: ص٢٠٩.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٦.

(٦) المصدر نفسه: ص٢١٢؛ دلائل الإمامة: ابن جرير الطبري (الشيعي): ص٤٥٦؛ العدد القوية، العلامة الحلي: ص٧٤؛ الكافي، الكليني: ج١ ص ٣٧٠.

ومنها: ما جاء عنه أيضاً عليه السلام: «لتُمحصنّ يا شيعة آل محمد، تمحيص الكحل في العين»[١].

ومنها: كذلك ما ورد عنه عليه السلام قوله: «والله تكسرن تكسر الزجاج، وإن الزجاج ليعاد فيعود كما كان، والله لتكسرن تكسر الفخار وان الفخار ليتكسر فلا يعود كما كان، ووالله لتغربلن، والله لتميزن، والله لتمحصن حتى لا يبقى منكم إلا الأقل وصعّر كفه»[٢].

ومنها: ما ورد عنه أيضاً عليه السلام، قال: «والله لتمحصنّ، والله لتميزن، والله لتغربلن، حتى لا يبقى منكم إلاّ الأندر»[٣].

ومنها: ما عن صفوان بن يحيى، قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «والله لا يكون ما تمدون إليه أعينكم حتى تمحصوا، وحتى لا يبقى منكم إلاّ الأندر، فالأندر»[٤].

وأخيراً: يضرب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام لنا مثلاً في ذلك، حيث يقول: «وسأضرب لكم مثلاً، وهو مثل رجل كان له طعام فنقّاه، وطيّبة ثم أدخله بيتاً، وتركه فيه ما شاء الله، ثم عاد إليه، فإذا هو قد أصابه السوس، فأخرجه ونقّاه وطيّبه ثم أعاده إلى البيت، فتركه ما شاء الله، ثم عاد إليه، فإذا هو قد أصابته طائفة من السوس، فأخرجه ونقّاه، وطيّبه، وأعاده، ولم يزل كذلك حتى بقيت منه رزمة

(١) الغيبة، النعماني: ص٢٠٦؛ الغيبة، الطوسي: ص٣٣٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٠٧؛ المصدر نفسه: ص٣٤٠.
(٣) تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي: ج١ ص١٩٩؛ وانظر: الغيبة، النعماني: ص٢٠٨؛ وانظر: الغيبة، الشيخ الطوسي: ص٣٣٧.
(٤) غيبة، النعماني: ص٢٠٨؛ الغيبة، الشيخ الطوسي: ص٣٣٧؛ الخرائج والجرائح: الراوندي: ج٣ ص١١٧٠؛ انظر: تفسير العياشي: ج١ ص١٩٩.

كرزمة الأندر، لا يضره السوس شيئاً، وكذلك أنتم تُميزون، حتى لا يبقى منكم إلاّ عصابة لا تضرها الفتنة شيئاً»[١]، وبنفس المضمون ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام[٢].

وكذلك ما جاء أيضاً على لسان حكيمة عمّة الإمام عليه السلام، عندما قالت لمحمد بن عبد الله المطهري: «لا بد للأمّة من حيرة، يرتاب فيها المبطلون، ويخلص فيها المُحقّون، كيلا يكون للناس على الله حجة»[٣].

هذا مضافاً إلى روايات الفتن، والابتلاء في آخر الزمان التي نقلها الفريقان بنحو التواتر، والتي لا يخلو منها كتاب واحد من كتب الحديث، بل عُقدت لروايات الفتن في آخر الزمان كتب وأبواب خاصّة، وهذا يكشف عن أهمية التمحيص والغربلة في عصر الغيبة لمعرفة وتمييز المخلصين الصالحين للقيام بشؤون الدولة العالمية، تحت راية الإمام المهدي عليه السلام عن غيرهم، ومن تلك الروايات:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح فيها الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافرا...»[٤].

٢- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... ثم فتنة الدهيماء، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلاّ

(١) الغيبة، النعماني: ص ٢١٠.
(٢) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ص٤٢٦.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٢٦.
(٤) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤ ص٢٧٧، البداية والنهاية، ابن كثير ج٨ ص٢٦٧؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٤ ص٢٢٩؛ النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير الدمشقي: ج١ ص٥٩؛ سنن أبي داود، السجستاني: كتاب الفتن، ص٧٠٨ ح٤٢٥٣؛ سنن الترمذي، الترمذي: كتاب الفتن؛ باب ما جاء في اتخاذ سيف من خشب في الفتنة:ص ٢٣٠، ح٢٢٩٣؛ كما أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب التثبيت في الفتنة:ص ١٣١٠، ح ٣٩٦١.

لطمته، حتى إذا قيل انقضت عادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»[1].

٣ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا قليل؛ المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر ـ أو قال ـ على الشوك»[2].

ثالثا: انكشاف عجز وبطلان الأطروحات الأخرى

لا ريب أن الغيبة تساهم في إثبات عجز أو فشل المدارس والأطروحات الأخرى التي تدعي تحقيق السعادة والعدل والكمال المنشود للمجتمع البشري، وهذا بدوره يكون دافعاً للمجتمع عموماً للتفاعل الإيجابي مع المهمّة الإصلاحية الكبرى للإمام المهدي عليه السلام.

ومن ثم يزيل العقبات التي تمنع عن حصول هذا التفاعل المطلوب، لتحقيق الأهداف الإلهية، التي يقوم بإنجازها الإمام عليه السلام.

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير الدمشقي: ج١ ص٦١؛ وكذا لاحظ: سنن أبي داود؛ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي: ج٢ ص٢٢٩، ح٤٣٤٢؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٢٢ ص٥٢٧؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٢ ص١٣٣ باختلاف في اللفظ؛ المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٦٧.

(٢) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٢: ص٣٩٠؛ النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير الدمشقي: ج١ ص٥٥ تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج٧٠ ص٣٥؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص٦٢٣، ج٨ ص٢٨؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١١: ص١٥٨؛ انظر صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب قصة يأجوج ومأجوج: ج٢ ص٣٤٧ ح٣٣٤٦؛ وانظر صحيح مسلم؛ كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج: ص٢٢٠٧ ح٢٢٨٠.

إذن فالغيبة تفسح المجال لكي يتضح بطلان كل ما يرفع من شعارات مُزيّفة ومُغرضة، مهما كان مصدرها، سواء أكانت من المدارس المادّية أم من مدارس ذات أصول سماوية منحرفة، وبذلك يتبين فشل كل ما يرفع من الشعارات التي نراها براقة في يومنا هذا، كأطروحة العدالة العالمية، ومحاربة الإرهاب، ومنظمة حقوق الإنسان وغيرها، ومن ثم تسقط مصداقيتها لدى الناس، وينكشف زيفها وكذبها، وتتضح سياساتها العنصرية ونواياها السيئة، وكذا يتضح عجز العقل البشري عن تلبية ما تطمح إليه الفطرة البشرية من السعادة الكاملة، وإقامة العدل على هذه الأرض.

وهذا بدوره يشكل عاملاً مهمّاً في نجاح الأطروحة الإلهية على يد الإمام المهدي عليه السلام، بإقامة دولته العالمية، وتفاعل الناس معه.

ولعل روايات الفتنة والتمحيص المتقدمة تشير إلى ذلك، وتؤكد على عجز الإنتاج البشري عن تقديم ما تطمح إليه البشرية من العدل، ورفاهية العيش والأمن في هذه الدنيا.

رابعا: تجلي مفهوم الانتظار في أحضان الغيبة

إنّ إحساس الفرد المؤمن بوجود الإمام عليه السلام، واطّلاعه عن كثب على أوضاع المجتمع عموماً، يساهم في حصول الاطمئنان والثبات النفسي عند المؤمنين، وبذلك تزداد صلتهم بالإمام عليه السلام، ويتغلغل إيمانهم به وبعقيدته إلى داخل أعماقهم، ومن ثم تكون عقيدتهم بإمامهم عقيدة راسخة، وهو معنى الانتظار الذي يعد من الركائز الأساسية التي اهتم بها القرآن الكريم

والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، في عملية إعداد الفرد والمجتمع قال تعالى: ﴿فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾(١).

وقد أولى النبي صلى الله عليه وآله عناية خاصة بمفهوم الانتظار، وهذا ما نجده واضحاً من خلال كثافة الروايات الواردة في هذا السياق، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «أفضل العبادة انتظار الفرج»(٢).

وقال صلى الله عليه وآله: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»(٣).

وعنه صلى الله عليه وآله قال:. «أحب الأعمال إلى الله انتظار الفرج»(٤).

وقال صلى الله عليه وآله «انتظار الفرج من الله عبادة»(٥).

وقال صلى الله عليه وآله «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج»(٦).

وقوله صلى الله عليه وآله «أفضل جهاد أمتي انتظار الفرج»(٧).

وقال صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة انتظار الفرج، أي انتظار الفرج بظهور المهدي»(٨).

---

(١) الأعراف: ٧١.

(٢) سنن الترمذي، الترمذي: ج٥ ص٢٢٦، مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص١٤٧، الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص١٩٢؛ المعجم الكبير للطبراني: ج١٠ ص١٠١، المعجم الأوسط للطبراني: ج٥ ص٢٣٠.

(٣) الجامع الصغير: الطبراني: ج١ ص٤١٧؛ لسان الميزان، ابن حجر: ج٤ ص٣٦٢، مسند ابن سلامة: ج١ ص٦٢.

(٤) دستور معالم الحكم، ابن سلامة: ص١٠٣.

(٥) الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٤١٧.

(٦) الفرج بعد الشدة، القاضي التنوخي: ج١ ص٢٧؛ مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: ج٣ ص٥٢٧.

(٧) تحف العقول، ابن شعبة: ص٣٧.

(٨) ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج٣ ص٣٩٧؛ لسان الميزان، ابن حجر: ج٣ ص٩٣.

فالانتظار يمثل عنصر التوازن في حياة المؤمن وحالة وسطى بين القنوط واليأس من روح الله، وبين حرمة الأمن من مكر الله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

ومن خلال الانتظار يتوجه الإنسان إلى ربه، ويتمسك بإمامه، ويطلب الفرج من الله تعالى، وهذا ما كشف النقاب عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، بقوله: «أفضل العبادة انتظار الفرج»[٢].

كذلك نجد أن الانتظار في واحدة من أبعاده هو الإيمان بالغيب، ومن ثم يحمل الفرد على العمل والتعبد بعقيدته، ويكون محبّاً للعدل كارهاً للظلم، وبذلك يوجّه نفسه، وسائر إخوانه المؤمنين إلى ما فيه الخير والصلاح للمجتمع.

وكذلك نجد أيضاً أن الانتظار يحمل في طياته دفع المؤمن وحثّه على الامتثال والالتزام الكامل بتطبيق الأحكام الإلهية، ليكون فرداً صالحاً مؤهلاً للعضوية في مجتمع العدالة الكبرى، ومن ثم يكتسب المؤمن الإرادة القوية، والإخلاص الحقيقي الذي يؤهّله للمشاركة والتشرف بتحمل المسؤولية الكبيرة في اليوم الموعود، فيزداد تعلقه بالأنبياء ورسالاتهم، وتجديد العهد معهم، ومع الإمام عليه السلام الذي يحقق هدف الأنبياء على هذه الأرض، وكل هذا إنما يتجلى وتشتعل جذوته إذا أحس الإنسان بوجود المصلح حياً يرزق قد حفظه الله تعالى وادخره لإنجاز

(١) يوسف: ٨٧.

(٢) سنن الترمذي، الترمذي: ج٥ ص٢٢٦، مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص١٤٧، الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص١٩٢؛ المعجم الأوسط، الطبراني: ج٥ ص٢٣٠.

مهمّة الإصلاح.

خامسا: عدم انقطاع سلسلة حجج الله في الأرض

إنّ الغيبة من الوسائل المهمة للحفاظ على وجود الحجّة الإلهية في الأرض، وعدم خلوّها من تلك الحجة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لا تخلو الأرض من قائم بحجة»**[(١)].

ولا يخفى الأثر المهم والدور الأساس لوجود حجة الله في الأرض، من كونها أماناً لأهل الأرض، كما قال صلى الله عليه وآله: **«النجوم أمان لأهل السماء، إذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»**[(٢)].

وقال صلى الله عليه وآله: **«لن يزال الدين قائماً إلى اثني عشر من قريش، فإذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها»**[(٣)].

وقال صلى الله عليه وآله: **«إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق، ومن قاتلنا في آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال»**[(٤)].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٠ ص٢٥٥؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٨٩؛ المناقب، الخوارزمي: ص٣٦٦، وانظر تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص٢٠٦.

(٢) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل:ج٢ ص١٦٥؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٤٢٦؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٧١ وج٢ ص١١٤؛ ذخائر العقبى، محب الدين الطبري: ص١٧؛ ونحوه في المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٢ ص٤٤٨ ج٣ ص١٤٩ ص٤٥٧؛ جواهر المطالب: ابن الدمشقي الشافعي:ج١ ص٣٤٣.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني ج:٢ ص١٩٦؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٢ ص٣٤.

(٤) المعجم الكبير، الطبراني: ج٣ ص٤٥، ح٢٦٣٦؛ مسند ابن سلامة: ج٢ ص٢٧٣.

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «النجوم جعلت أماناً لأهل السماء، وإن أهل بيني أمان لأمتي»[١].

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «كيف تهلك أمّة أنا أوّلها، وعيسى بن مريم آخرها، والمهدي من أهل بيتي في وسطها»[٢].

مضافاً إلى أن غيبة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ تؤمّن إتيانه بالإسلام الخالص، كما أنزله الله تعالى حين الظهور؛ لأنه سوف يكون وارثاً عن أبيه عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الإسلام الصحيح، وتفاصيله التي أملاها الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وكتبها بخطه.

بخلاف ما لو قلنا إنّ المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يولد بعد، فإنه حينئذ كيف يمكنه الإتيان بالإسلام الخالص بعد انقطاع الوحي، وكيف يحرز الإسلام الصحيح وسط هذه الاختلافات بين المذاهب، وبعد تضييع سنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أضف إلى ذلك أن وجود الحجة والإمام في الأرض لطفٌ من الله تعالى - كما تقدم- وإتمامٌ للحجة البالغة على خلقه، أمّا الغيبة فهي لأسباب وظروف اقتضت ذلك، وقد تقدم ذكر بعضها.

سادسا: لكي لا تكون في عنقه بيعة لظالم

وهذا من معطيات الغيبة أيضاً؛ لأن أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلّهم أُجبروا وأُكرهوا على البيعة للحكام الظالمين، ابتداءً من الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى

---

(١) المعجم الكبير: ج٧ ص٢٢.

(٢) الدر المنثور: ج٢ ص٢٤٧؛ الجامع الصغير السيوطي: ج٢ ص٤٢٣؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٧ ص٥٢٢، ونحوها في المستدرك: الحاكم النيسابوري: ج٣ ص٤١؛ قال فيه (حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، فيض القدير: ج٥ ص٣٨٣.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

والبيعة من الإمام المعصوم تعني إعطاء عهد يطوق به عنقه ويكبله ويقضي بعدم محاربة الظالم في حال لزومها.

وهذا قضاء إلهي لآباء الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، كما قال هو عليه السلام: «... وأما علّة ما وقع من الغيبة، فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[1]، إنه لم يكن أحد من آبائي إلاّ وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه، وإني أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي»[2].

فالإمام المهدي عليه السلام لكونه معدّاً سلفاً من قبل الله تعالى، ومرصوداً لإبادة الظلم والظالمين، فإذا كانت في عنقه بيعة، فكيف يقاتلهم؟

وإذا بادرهم بالقتال بدل الغيبة مع عدم توفر شرائط القيام والمواجهة مع الطواغيت، فسيؤدي ذلك إلى عدم الوصول لهدفه المرصود له، ولذا وردت الروايات من الفريقين تقرر هذا المعنى:

١ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن القائم منا إذا قام لم يكن لأحد في عنقه بيعة، فلذلك تخفى ولادته ويغيب شخصه»[3].

٢- ما أخرجه الأربلي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام قال: «أما علمتم أنه ما منا أحد إلاّ ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه، إلاّ الإمام القائم، الذي يصلي روح

---

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) الغيبة، الطوسي: ص٢٩٢؛ كشف الغمة، الأربلي: ج٣ص٣٤٠.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ص٣٠٣.

الله عيسى بن مريم عليه السلام خلفه، فان الله عز وجل يخفي ولادته، ويغيب شخصه؛ لئلا يكون في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين، ابن سيدة الإماء، يطيل الله عمره في غيبته، ثم يظهره بقدرته...»[١].

٣ـ ما أخرجه أيضاً عن الإمام الحسين عليه السلام: «القائم منا، يخفى عن الناس ولادته، حتى يقولوا لم يولد بعد، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة»[٢].

٤ـ عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «القائم منا تخفى ولادته على الناس حتى يقولوا: لم يولد بعد، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة»[٣].

٥ـ عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «يقوم القائم وليس لأحد في عنقه بيعة»[٤].

٦ـ عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «كأني بالشيعة عند فقدهم الثالث من ولدي، كالنعم يطلبون المرعى فلا يجدونه، قلت له: ولَمَ ذاك يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام: لأن إمامهم يغيب عنهم، فقلت ولِمَ؟ قال عليه السلام: لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا قام بالسيف»[٥].

مضافاً إلى أن وجود الإمام عليه السلام، مع غيبته له الأثر البالغ في إثارة الخوف والرعب في صفوف الظالمين، وهذا ما نلمسه ونشاهده بالوجدان

---

(١) كشف الغمة، الأربلي: ج٣ ص ٣٢٨-٣٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ج٣ ص ٣٢٩.
(٣)المصدر نفسه: ج٣ ص ٣٢٣.
(٤) الإمامة والتبصرة، ابن بابويه القمي: ص١١٦؛ الكافي، الكليني: ج١ ص٣٤٢.
(٥) علل الشرائع، الصدوق: ج١ ص٢٤٥، عيون أخبار الرضا، الصدوق: ج٢ ص٢٤٧، بحار الأنوار: ج٥١ ص١٥٢.

في تصريحات كبار المسؤولين في دول العالم كأمريكا وغيرها من دول الغرب، من تخوفهم من ظهور رجل من حضارة بابل يقضي عليهم، لذا نجد أنهم حشّدوا قواهم لمواجهته.

سابعا: الغيبة سر الهي

في البداية نقول: ما كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال حان وقته، ولا كل ما حان وقته حضر أهله.

ومن هنا ينبغي علينا عدم إغفال الجانب الغيبي في الدين، إذ أن الكثير من الأمور لم يطلعنا الله تعالى على حكمتها والغاية منها، فليس كل ما يفعله الله تعالى نستطيع أن نعرف وجه الحكمة من ورائه، وإلاّ فما هي الحكمة في حياة نبيّين رفعهما الله تعالى إليه ؟ وما الحكمة من حياة نبيّين يسيران في الأرض؟ وما الحكمة من نزول عيسى عليه السلام مع المهدي عليه السلام؟ ولماذا لا يخبرنا القرآن بذلك ؟

فالغيبة سرّ على حدّ أسرار الغيب، التي لا يكشفها الله تعالى إلاّ لمن ارتضى من أوليائه، ويبقى الأمر الذي خفيت الحكمة من ورائه مثاراً للتعجب والاستغراب، فهذا موسى عليه السلام، وهو نبي من أنبياء الله تعالى، كان يظهر التعجب من عمل الخضر عليه السلام، فكيف بمن هو مثلنا، نحن القاصرون عن إدراك كنه الحقائق، ثم نأتي لنجادل فيها ؟!

هذا وقد تضافرت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في أن للغيبة حكمة لا يعلمها إلاّ الله تعالى، ومن ارتضى من أوليائه.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إن للقائم منّا غيبة يطول أمدها، فسأله**

سدير: ولِمَ ذاك يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام: إن الله عزّ وجلّ أبى إلاّ أن يجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام في غيباتهم، وأنه لا بد له يا سدير من استيفاء عدد غيباتهم، قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[(١)]»[(٢)].

ثم إنّه مع الإيمان بضرورة الإمامة، والاعتقاد بأئمة أهل البيت عليهم السلام، بمقتضى الأدلّة الثابتة في محلّها، من الآيات والأحاديث، لا يبقى مجال للتساؤل، والتشكيك في وجود الإمام؛ لكونه غائباً.

فلعلّ في عدم الوقوف على العلّة الأساسية من الغيبة، سر من أسرار غيب الله تعالى، لم يطلعنا عليه، لا سيما مع إنباء وتصريح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بغيبة الإمام المهدي عليه السلام، كما مرّ ذكره في رواية جابر، ورواية ابن عباس وغيرها، وفي رواية أخرى لجابر: قال: قال رسول الله: «المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خَلقاً وخُلقاً، تكون له غيبة وحيرة، تضل فيها الأمم، ثم يقبل كالشهاب الثاقب، فيملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً»[(٣)].

وذلك فضلاً عن الروايات المتواترة عن أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله، التي جاء فيها ذكر الغيبة، وقد تقدم ذكر بعضها سابقاً.

وكذا تقدم في بعض الروايات عدم اشتراط كون الحجّة والإمام ظاهراً، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «اللّهم كلا! لا تخلوا الأرض من قائم بحق، إما ظاهر مشهور، وإما خائب[(٤)] مغمور، لئلا يبطل حجج الله عزّ وجلّ،

(١) الانشقاق: ١٩.
(٢) علل الشرائع، الصدوق: ج١ ص٢٤٥؛ كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ص ٤٨٠-٤٨١.
(٣) كشف الغمة، الأربلي: ج٣ ص٣٢٧؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٣ ص٣٨٦.
(٤) ولعل الصحيح كما في كثير من المصادر «خائف».

وبيّناته»[١].

وعنه عليه السلام قال اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة إما ظاهر مستور وإما خائف مغمور لأن لا تبطل حجج الله وبيناته[٢].

هذا وقد تتضح الحكمة حينما يأتي الوقت المناسب لها، ولذا نجد أن الخضر عليه السلام يقول لموسى عليه السلام لو صبرت لا تضحت الحكمة.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

إذن بعد أن قامت لدينا الأدلّة القاطعة على ضرورة وجود حجة الله في الأرض، وآمنا بأنّه الإمام المهدي الحجّة ابن الحسن العسكري، وأنّه مولود وقد طوّل الله عمره الشريف بحكمته، فإن النتيجة الحتمية هي الإيمان بغيبته الطويلة، فإن الإمام إمام قام أو قعد، غاب أو ظهر، وسواء اطّلعنا على سرّ من أسرار غيبته أم لم نطلع، ولا غرابة في ذلك بعد أن كانت حياة الأمّة وحركة البشرية حافلة بالأمور التي خفيت علينا أسبابها، وغابت عنا حكمتها.

(١) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢، ص٢٠٦، تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٠ ص٢٥٥، كنز العمال، المتقي الهندي: ج ١٠ ص٢٦٣، (أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف، والمرهبي في العلم، ونصر في الحجة)؛ المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي: ص٨١؛ مناقب أمير المؤمنين، محمد بن سليمان القاضي: ج٢ ص٢٧٥؛ دستور معالم الحكم، ابن سلامة: ص٨٤

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج ٥٠ ص٢٥٥، وانظر كنز العمال، المتقي الهندي: ج ١٠ ص٢٦٣، (أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف، والمرهبي في العلم، ونصر في الحجة)؛ مناقب أمير المؤمنين، محمد بن سليمان القاضي: ج٢ ص٢٧٥؛ وانظر دستور معالم الحكم، ابن سلامة: ص٨٤؛ وانظر ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج٣ ص٤٥٤.

(٣) المائدة: ١٠١.

دعوى المهدوية والسفارة

في خاتمة هذا البحث نود إلقاء الضوء على ظاهرة ادعاء المهدوية والسفارة عن الإمام المهدي عليه السلام كذباً وزوراً، مستغلين السذاجة والبساطة وغياب الوعي الديني الذي يعيشها بعض الناس، مستخدمين في ذلك شتى الوسائل الشيطانية من قبيل السحر والشعوذة وتسخير الجن ونحوها، مضافاً إلى ما يتلقاه هؤلاء المدعين للمهدوية والسفارة من دعم كبير من السياسات الاستعمارية، التي جهدت إلى بروز وانتشار هذه الدعوات.

مدعي المهدوية والسفارة في التاريخ الإسلامي

ذكر الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عدد ممن ادعوا النيابة والسفارة الخاصة للإمام المهدي عليه السلام كذباً ، منهم:

١ـ الرجل المعروف بالشريعي

حيث قال:«كان الشريعي يكنى بأبي محمد... وكان من أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام وهو أول من ادعى مقاماً لم يجعله الله فيه ولم يكن أهلاً له وكذب على الله وعلى حججه عليهم السلام ونسب إليهم ما لا يليق بهم وما هم منه براء، فلعنته الشيعة وتبرأت منه، وخرج توقيع الإمام عليه السلام بلعنه والبراءة منه... ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد»[1] وقد كانت دعوته تقتصر على السذج من الناس الذين لم يتسلحوا بالوعي الديني.

(١) الغيبة، الطوسي: ص٣٩٧.

٢ـ محمد بن نصير النميري

حيث قال الشيخ الطوسي:«كان محمد بن نصير النميري من أصحاب أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام فلما توفي أبو محمد عليه السلام ادعى أنه صاحب إمام الزمان وادعى له البابية، وفضحه الله تعالى بما ظهر منه من الإلحاد والجهل... وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسن عليه السلام ويقول فيه بالربوبية ويقول بالإباحة للمحارم...»[1].

٣ـ أحمد بن هلال الكرخي

حيث كان من أصحاب أبي محمد عليه السلام فلما اجتمعت الشيعة على وكالة محمد بن عثمان (رض) بنص الإمام الحسن عليه السلام في حياته، وبعد وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام قالت الشيعة له: ألا تقبل أمر أبي جعفر محمد بن عثمان وترجع إليه وقد نص عليه الإمام المفترض الطاعة؟ فقال لهم: لم أسمعه ينص عليه بالوكالة... فقالوا له قد سمعه غيرك، فقال: أنتم وما سمعتم، عند ذلك نفته الشيعة وتبرؤوا منه، ومن ثم لعنه وتبرأ منه الإمام صاحب الزمان عليه السلام في التوقيع على يد أبي القاسم بن روح بلعنه والبراءة منه في جملة من لعن»[2].

٤ـ أبو طاهر محمد بن علي بن بلال

وله قصة معروفة حيث أنه تمسك بأموال الإمام عليه السلام التي كانت عنده وامتنع عن تسليمها، بذريعة أنه وكيل الإمام المهدي عليه السلام، ولذا تبرأت منه

(١) الغيبة، الشيخ الطوسي: ص٣٩٨. ح٣٦٩ وح٣٧١.
(٢) المصدر نفسه.

الشيعة ولعنوه»[١].

٥ـ الحسين بن منصور الحلاج

وقد فضحه الله تعالى وأخزاه، وذلك عندما ادعى الوكالة والنيابة الخاصة للإمام المهدي عليه السلام كذباً.

٦ـ محمد بن علي بن أبي العزاقر المعروف بالشلمغاني

كان من أعلام الشيعة وألف كتباً في التشيع ولكنه لمناقشة جرت بينه وبين الحسين بن روح النوبختي أعلى الله مقامه الشريف النائب الثالث للإمام المهدي عليه السلام خرج عن طوره، وراح يدعي دعاوى باطلة ويدعي أخباراً كاذبة عن الإمام عليه السلام إلا أن الإمام عليه السلام لعنه في أحد توقيعاته ومن ثم ظهر أمره وشاع كذبه.

وغير ذلك كثيرون، إذ يصعب بل من المستحيل إحصاء عدد الذين ادعوا المهدوية أو النيابة الخاصة في التاريخ الإسلامي، وذلك لأن منهم من اقتصرت دعوته على عدد ضئيل من المغفلين ولم تحصل لهم قوة وشوكة، فبقيت أمانيهم وأحلامهم مدفونة في صدورهم، ولذا أغفل التاريخ ذكر أسمائهم ومدعياتهم.

الدليل على بطلان دعوى المهدوية والسفارة في عصر الغيبة الكبرى

هناك مدّاً استدلالياً واسعاً لإبطال دعوى المهدوية والسفارة للإمام المهدي في عصر الغيبة الكبرى، منها: قيام الإجماع على انقطاع النيابة

(١) المصدر السابق نفسه.

الخاصة للإمام المهدي عليه السلام، بل ضرورة المذهب على ذلك:

انقطاع السفارة والنيابة الخاصة للإمام المهدي من ضروريات مذهب الإمامية.

إنّ مسألة انقطاع النيابة الخاصة والسفارة للإمام المهدي عليه السلام في عصر الغيبة الكبرى من ضروريات مذهب الشيعة الإمامية التي تعلو على البرهنة والاستدلال، ومن جملة ما ورد في ذلك التوقيع المبارك «بسم الله الرحمن الرحيم: يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك، فانك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد فيقوم أمامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامّة فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره؛ وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي شيعتي من يدعي المشاهدة إلا من ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذّاب مفتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

وقد روي الشيخ الطوسي: «إن كل من ادعى الأمر [أي أمر السفارة للإمام المهدي عليه السلام] بعد السمري [آخر السفراء الأربعة للإمام عليه السلام] رحمه الله فهو كافر منمس ضال مضل وبالله التوفيق»[٢].

وقد تواترت الروايات على انقطاع النيابة الخاصة عن الإمام إلى حين حصول الصيحة السماوية التي هي من العلامات المحتومة لظهور الإمام عليه السلام، فقبل ظهور الصيحة لا نيابة خاصة ولا سفارة وكل من ادعى ذلك فهو كاذب مفتر.

(١) الغيبة، الطوسي: ٣٩٥.
(٢)المصدر نفسه: ص ٤١٢.

والمقصود من ادعاء المشاهدة هو السفارة أو النيابة الخاصة في عصر الغيبة الكبرى.

الفهم الصحيح لعلامات الظهور

إنّ بعض علامات الظهور تمتاز بخصوصية معينة، وقد استغل أدعياء المهدوية والسفارة الخاصة هذه الخصوصية للحصول على مآربهم وأغراضهم.

عند إجراء مسح ميداني لعلامات الظهور نجد أن جملة منها تنطوي على لغة الرمز والإشارة التي تجعل إمكان تطبيق هذه العلامات على أكثر من مصداق وفي كل الأوقات، من قبيل ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله في أحاديث متظافرة أن المهدي لا يخرج إلا بعد انتشار الظلم والفساد.

ومن الواضح أن مثل هذه العلامة للظهور وهي انتشار الظلم والفساد نجدها تنطبق على كثير من الأزمنة إن لم نقل جميعها، وهذا ما نلمسه من الأسئلة الموجه لأهل البيت عليهم السلام وفي زمن حضورهم وقبل مولد الإمام المهدي عليه السلام حيث كان الناس يسألون الأئمة عليهم السلام بأن الظلم قد انتشر فأين المهدي الموعود، وغير ذلك من الاستفهامات.

وهذه الحالة وهي ملائمة بعض علامات الظهور لكل زمان استغلها المدعون للمهدوية في حملاتهم الدعائية للتأثير على الناس وإغرائهم بأن وقت الظهور بسبب انتشار الظلم والفساد في الأرض.

وعلى هذا الضوء يجب الالتفات إلى مثل هذه الأساليب التي يستغلها هؤلاء الدجالين لإضلال الناس وإغرائهم، لكي لا نكون فريسة سهلة

لمثل هذه الدعوات الضالة والمنحرفة التي تستهدف العمل على تشويه حركة الإمام عليه السلام.

الخلاصة

١- إنّ الله تعالى قد وعد في كتابه الكريم بإقامة العدل الإلهي في كل ربوع الأرض، كما في قوله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

٢- إنّ تحقق هذا الهدف يكون على يد الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام، بمقتضى كونهم يمثلون امتداداً للرسالة المحمدية وأنهم المعصومون المطهرون كما نص على ذلك القرآن الكريم في عدد من الآيات كآية التطهير والمودة والمباهلة فضلاً عن السنة النبوية كحديث الغدير والثقلين وحديث الاثني عشر.

٣- شاءت الحكمة الإلهية أن يكون تحقق هذا الهدف بشكل طبيعي وليس إعجازياً، وهو ما جرت عليه السنن الإلهية في هذا العالم، إلا في الظروف الاستثنائية التي تتوقف على الإعجاز، وعلى هذا الضوء فلابد من اكتمال جميع الشرائط لكي يتحقق الهدف والغرض الإلهي.

٤- إن من أهم العوامل المساهمة في تحقيق واكتمال شرائط إقامة العدل هو غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فجاءت الغيبة ضمن تخطيط إلهي محكم، لكي تتولد شرائط وأجواء مهمة النهوض بالعدل العالمي في دولة

(١) القصص: ٥.

الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وقد أشارت لذلك نصوص نبوية وافرة.

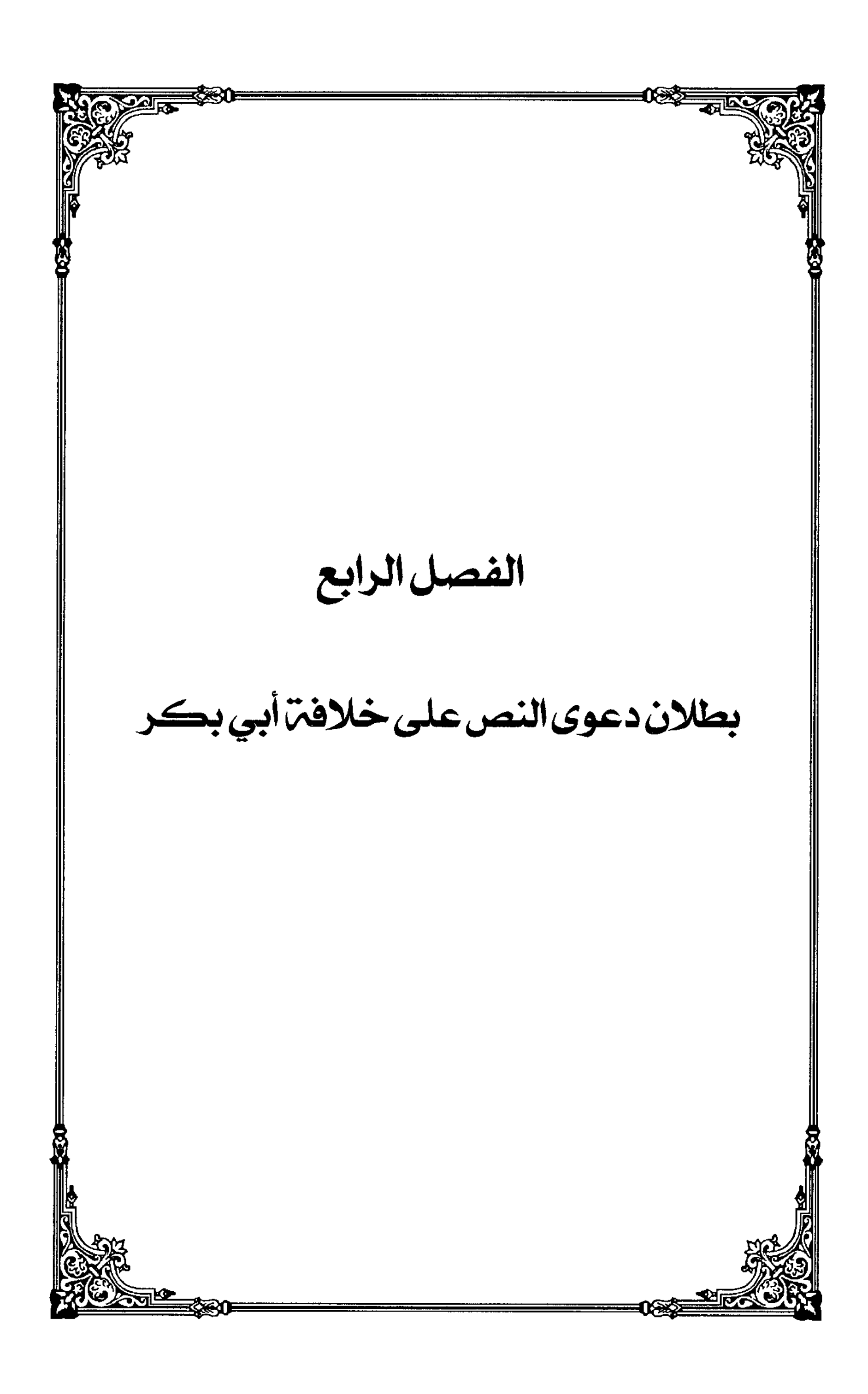
٥- حيث إن استمرار ودوام الإمامة لطف إلهي، لحفظ الدين وعزته، وكذلك للحفاظ على الرسالة الإسلامية من الانحراف والاندراس؛ لأنهم عدل القرآن الذين أذهب الله عنهم الرجس وطرهم تطهيراً، وهذا ما أكدته جملة من الروايات التي نصّت على ضرورة وجود الحجة في الأرض، لأنه لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها إلى جانب تأكيد النبي صلى الله عليه وآله على ضرورة التمسك بأهل البيت عليهم السلام وأنهم هم الأمان لأهل الأرض، فعلى هذا الأساس تمثل الغيبة لطف إلهي، لحفظ وجود الإمام من خلالها، وإلا يكون الإمام عرضة للقتل، وبالتالي لا يتحقق الهدف والغاية الإلهية من وجوده المبارك عليه السلام.

٦- إنّ هوية وحقيقة الغيبة هي خفاء العنوان واستتار الهوية وليس خفاء شخص الإمام عليه السلام وإن كان ذلك قد يحصل أيضاً إذا اقتضت الضرورة؛ وذلك لأن الغيبة حالة استثنائية يقتصر فيها على القدر الذي ترفع به الضرورة، وهو خفاء العنوان لا غير، وقد سلّطت الروايات الضوء على هذه الحقيقة، مشيرة في بعضها إلى أن غيبة الإمام عليه السلام كانت سنة شبيهة بغيبة بعض الأنبياء، كما هو الحال في غيبة موسى وعيسى عليهما السلام.

٧- أما الفائدة من الإمام الغائب فقد وردت روايات متضافرة في بيان فائدة الإمام في غيبته، من قبيل روايات الانتفاع بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها السحاب[١]، ونحوها وأخيراً ذكرنا إن من جملة فوائد وجود الإمام عليه السلام غائباً هو ممارسة دوره بشكل خفي.

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي الحنفي: ج١ ص٦٧ ج٣ ص٢٣٩ ص٣٩٩.



الفصل الرابع

بطلان دعوى النص على خلافة أبي بكر

خلافة أبي بكر

الشبهة:

كيف يُعترض على خلافة أبي بكر مع وجود النص عليها من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟

الجواب:

ليس المهم المدعيات وما ترفع من متبنيات، بل المهم طبيعة الأدلة التي يقيمها كل طرف على صحة موقفه ومتبنياته، ومن تلك الدعاوى الباطلة، هي دعوى البعض بوجود النص على خلافة أبي بكر، إلاّ أن بطلان هذه الدعوى من البديهيات المستغنية عن البرهنة والاستدلال، لكننا ولأجل أن تكون الإجابة واضحة ينبغي أن نقف على جذور هذه الشبهة ودوافعها، وفي بداية الولوج في المناقشة نذكر:

أولا: الروايات الصحيحة وأقوال الصحابة الصريحة الدالة على عدم النص على أبي بكر:

١- ما ورد عن أبي بكر، إنه قال في مرضه الذي مات فيه:«**وددت أني سالت رسول الله صلى الله عليه وآله لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه أحد، ووددت أني كنت سألته، هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟**»[1]، ولا ريب إن حقيقة التعبير بـ (وددت إني كنت سألته..)، يكشف عن عدم وجود نص على أبي بكر،

(١)تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري: ج٢ ص ٦٢٠؛ وتاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج ٣٠ ص٤١٨.

وإلاّ فلا معنى لقوله (وددت..).

٢- قول أبي بكر:«إنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نبياً، وللمؤمنين ولياً، فمنّ الله تعالى بمقامه بين أظهرنا، حتى اختار له الله ما عنده، فخلّى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم، متفقين غير مختلفين، فاختاروني عليهم والياً ولأمورهم راعياً»(١).

٣- ما صح عندهم، عن عمر أنه قال:«ثلاث لأن يكون رسول الله بينهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم: الخلافة، الكلالة، الربا»(٢).

٤- ما ورد عن عمر أيضاً، قوله:«لأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث أحبّ إليّ من حمر النعم، من الخليفة من بعده، قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

٥- كذلك عن عمر أنه قال:«إن الله تعالى يحفظ دينه، وإني إن لا أستخلف فان رسول الله لم يستخلف»(٣).

٦- ما ورد عن عائشة قولها:«لو كان رسول الله مستخلفاً لأستخلف أبا بكر أو عمر» [قال الحاكم في مستدركه] «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»(٤).

٧- ما روي عن ابن عباس قال:«قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، استخلف علينا بعدك رجلاً نعرفه وننهي إليه أمرنا، فإنّا لا ندري ما يكون بعدك، فقال:

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٣٢.

(٢) السنن الكبرى، البيهقي: ج٦ ص٢٢٥؛ ونحوه المصنف، الصنعاني: ج١٠ ص٣٠٢.

(٣) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج١ ص٤٧؛ السنن الكبرى، البيهقي: ج٨ ص١٤٩.

(٤) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٦ ص٦٣؛ المستدرك، الحاكم: ج٣ ص٧٨؛ وغيرها من المصادر.

إن استعملت عليكم رجلاً فأمركم بطاعة الله فعصيتموه كان معصيته معصيتي، ومعصيتي معصية الله عزّ وجلّ، وإن أمركم بمعصية الله فأطعتموه، كانت لكم الحجّة عليّ يوم القيامة، ولكن أكلكم إلى الله عزّ وجلّ»[(١)].

٨- أخرج الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه «دلائل النبوة» عن عبد الله بن مسعود، يحكي عن ليلة الجن... ـ إلى أن قال:«ثم شبك أصابعه في أصابعي، وقال: إنّي وعدت أن يؤمن بي الجنّ والأنس فأما الأنس فقد آمنت بي وأما الجن فقد قال وما أظن أجلي إلا قرب، قلت: يا رسول الله ألا تستخلف أبا بكر، فأعرض عني، فرأيت أنه لم يوافقه، قلت يا رسول الله ألا تستخلف عمر، فأعرض عني فرأيت أنه لم يوافقه، قلت يا رسول الله: ألا تستخلف علياً، قال: ذلك والذي لا اله غيره لو بايعتموه وأطعتموه أدخلكم الجنة»[(٢)]، وهذه الرواية تدل دلالة واضحة وبشكل لا يقبل اللبس على عدم النص على أبي بكر، بل هي نصّ على العدم.

وثانيا: إنكار علماء السنة وجود نص دال على خلافة أبي بكر منها:

١- ما ذكره القرطبي في تفسيره:«... والدليل على فقد النصّ وعدمه على إمام بعينه، هو أنّه صلى الله عليه وآله لو فرض على الأمّة طاعة إمام بعينه، بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعُلِم ذلك، لاستحالة تكليف الأمّة بأسرها طاعة الله في غير معيّن، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف، وإذا وجب العلم به لم

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١٣ ص١٦٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٦٠ ص١١٠؛ ونظر: كنز العمال، المتقي الهندي: ج١١ ص٦٣٢.
(٢) المعجم الكبير، الطبراني: ج١٠ ص٦٧.

يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول، أو الخبر، وليس في العقل ما يدلّ على ثبوت الإمامة لشخص معين، وكذلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين... وبطل أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد، لاستحالة وقوع العلم به... وإذا بطل ثبوت النصّ لعدم الطريق الموصل إليه، ثبت الاختيار والاجتهاد... ثم لا شك في تصميم من عدا الإمامية على نفي النصّ، وهم الخلق الكثير، والحجم الغفير»[1].

٢- ما ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم:«سئلت عائشة: من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر...»، قال:«وفيه دلالة لأهل السنة أن خلافة أبي بكر ليست بنصّ من النبي ﷺ على خلافته صريحاً، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نصّ عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذكر حافظ النص ما معه، ولرجعوا إليه، لكن تنازعوا أولاً، ولم يكن هناك نصّ، ثم اتفقوا على أبي بكر واستقر الأمر»[2]. وقد قرّره على كل ذلك القاري في كتابه المفاتيح[3].

٣- وقال ابن حجر في فتح الباري:«قال القرطبي في المفهم: لو كان عند أحد من المهاجرين والأنصار نصّ من النبي ﷺ على تعيين أحد بعينه للخلافة لما اختلفوا في ذلك، ولا تفاوضوا فيه، قال: وهذا هو جمهور أهل

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج١ ص٢٦٥، ص٢٦٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٥ ص١٥٤.

(٣) مرقاة المفاتيح: ج٩ ص ٣٨٨٥.

السنة...»[١].

وقال ابن حجر أيضاً: «وأفرط المهلب فقال: فيه دليل قاطع في خلافة أبي بكر، والعجب أنه قرر بعد ذلك أنه ثبت أنّ النبي ﷺ لم يستخلف»[٢].

٤- قال المراغي في تفسيره: «وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة، فان النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى تولية أبي بكر»[٣].

٥- قال الباقلاني في تمهيده:«وعلمنا بأنّ جمهور الأمّة، والسواد الأعظم منها ينكر ذلك ـ النصّ ـ ويجحده ويبرأ من الدائن به»[٤].

٦- قال الخضري في المحاضرات:«الأصل في انتخاب الخليفة رضا الأمة، فمن ذلك يستمدّ قوته، هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ، فقد انتخبوا أبا بكر الصدّيق اختياراً منهم لا استناداً إلى نصّ، أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ»[٥].

٧- قال ابن حجر الهيتمي في صواعقه:«وقال جمهور أهل السنة والمعتزلة والخوارج: لم ينص على أحد»[٦].

٨- وقال ابن أبي الحديد المعتزلي: «فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث، نحو: (لو كنت متخذا

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج٧ ص٢٦.
(٢) المصدر نفسه: ج١٣ ص١٧٧.
(٣) تفسير المراغي، المراغي: ج٩ ص٤٣؛ ونحوه تفسير القرطبي، القرطبي: ج١٦ ص٣٧.
(٤) التمهيد، الباقلاني: ص٤٤٤.
(٥) الغدير، الأميني: ج٥ ص٣٥٧؛ عن المحاضرات، الخضيري: ص٤٦.
(٦) الصواعق المحرقة، ابن حجر: ص٤٢.

خليلاً)، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء، ونحو سدّ الأبواب..»[١].

٩- وقال النووي أيضاً:«إنّ المسلمين أجمعوا على أن الخليفة إذا حضرته مقدمات الموت، وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف، ويجوز له تركه، فإن تركه فقد اقتدى بالنبي صلى الله عليه وآله في هذا، وإلاّ فقد اقتدى بأبي بكر»[٢].

١٠- قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق في معرض بيانه عقائد أهل السنة: «وقالوا: ليس من النبي صلى الله عليه وآله نصّ على إمامة واحد بعينه»[٣].

١١- وقال أبو حامد الغزالي:«ولم يكن نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على إمام أصلاً، إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود، ولم يحق ذلك، فكيف خفي هذا ؟ وإن ظهر، فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماماً إلاّ بالاختيار والبيعة»[٤].

ثالثا: الشواهد القطعية على عدم النص على أبي بكر، منها:

١- ما اكتنفته السقيفة من أجواء الإرهاب، والصراع الذي بلغ أوجه إلى درجة أنه وصل حدّ العنف وإشهار السلاح، وما احتواه مؤتمر السقيفة من أدلّة، واحتجاجات بين الأطراف المتنازعة، وما تضمّنه من عبارات، من قبيل (أنتم أحق الناس به) و (منا أمير ومنكم أمير) و (نحن الأمراء وأنتم الوزراء)، وغيرها من العبائر، ولم نجد أن أبا بكر احتج بالنص على خلافته، مع حاجته الماسّة إلى ذلك، كحجة دامغة للغلبة على الطرف

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١١ ص٤٩.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٢ ص٢٠٥.
(٣) الفرق بين الفرق، البغدادي: ص٣٤٠.
(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي: ج١ ص١٣٩.

الآخر، ومما يدلل على عدم النص أيضاً قول أبي بكر: بايعوا عمر بن الخطاب، أو ابن عبيدة الجراح، وقد كشف عمر عن تلك الأجواء في خطبة له يصف فيها أحداث السقيفة، إذ قال في ختامها:«**فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته**»[(١)].

٢- تعبير عمر بقوله: إن بيعة أبي بكر فلتة ـ فإن التعبير بذلك دليل بحد ذاته على عدم النص لأبي بكر، بأي تفسير فسّرنا معنى الفلتة، وإلاّ فلماذا تكون بيعة أبي بكر فلتة على حدّ تعبير عمر؟!!.

٣- اعتراف عمر بالنص لعليعليه السلام لا غيره، وأنه منع الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله من كتابة ما أراد كتابته حين وفاته.

فعن عمر في حديث له مع ابن عباس، يذكر فيه أمر الخلافة وحق عليعليه السلام فيها، قال: «**لقد كان في رسول الله من أمره ذرو من قول، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه، فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام! وربّ هذه البنية لا تجتمع قريش عليه أبداً**»[(٢)]، وهو يلتقي مع مقولة أخرى له لابن عباس:«**فما منع قومكم منكم قلت لا أدري: قال لكني أدري: يكرهون ولايتكم لهم، قلت لم ونحن لهم كالخير قال اللهم غفرا يكرهون أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة فيكون بجحاً بجحا**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، البخاري: ج٤ ص٢٧٥ ح٤٤٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد:ج١٢ ص ٢١.

(٣) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٢٨٨؛ ونحوه الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٦٣؛ ونحوه شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٢ ص٥٣.

وفي ثالثة قال:«ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه»[(١)].

وفي رابعة قال في عليّ عليه السلام: «والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى الأمة، وذو سابقتها، وذو شرفها.

فقيل له ذلك القائل: فما منعكم عنه يا أمير المؤمنين؟ قال: كرهناه على حداثة السن وحبّه بني عبد المطلب»[(٢)].

وقد صرح بذلك أيضاً أبو عبيدة بن الجراح ـ أحد أعضاء الحزب ـ عندما قال لعلي عليه السلام: «يا ابن عم إنك حديث السن، وهؤلاء ـ يعني أبا بكر وعمر ـ مشيخة قومك... فسلّم لأبي بكر هذا الأمر»[(٣)].

٤- ما تجلّى بصورة واضحة، من اعتراف أبي بكر أنّه أراد إكراه علي عليه السلام على البيعة لولا وجود فاطمة إلى جنبه، حيث قال لعمر:«لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه»[(٤)]، وهذا يعني أن استيلاءه على السلطة لم يكن بطريقة شرعية ولا منصوص عليها، وإلاّ لو كان على الحق، فلماذا يكره علياً، ويتخوف من وجود فاطمة إلى جنبه، وهما اللذان لا يفترقان عن الحق، وقد أعرب علي عليه السلام عن إكراهه على البيعة بقوله، عندما لحق بقبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يصيح ويبكي وينادي:«يا ابن أمّ إن القوم استضعفوني، وكادوا يقتلونني»[(٥)]، مع أن عدم شرعية خلافة أبي بكر

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص٤٥.
(٢) المصدر نفسه: ج١٢ ص٨٢
(٣) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٢٩؛ السقيفة، الجوهري: ص٦٣؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص١٢.
(٤) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٢٠.
(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١١ ص١١١.

لخّصها أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد إكراهه على البيعة، قال: **«وإن بيعتي لا تحق لهم باطلاً ولا توجب لهم حقاً»**.

ثم إن مقتضى الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ الذي صححه الذهبي ـ أنه صلى الله عليه وآله قال: **«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن عصا علياً فقد عصاني»**[1]، وقوله صلى الله عليه وآله: **«فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني»**[2]، وقال أيضاً لفاطمة عليها السلام: **«إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»**، قال الحاكم: **«هذا حديث صحيح الإسناد»**[3]، وحيث إن أبا بكر وعمر آذيا علياً وفاطمة عليهما السلام، وقال أيضاً لفاطمة: **«إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»**[4]، صححه الذهبي، وأجبروا علياً على البيعة، التي حاججهم فيها وأنكرها مراراً، وهذا يكشف عن بطلان أمرهم ومفارقتهم للحق، فلو كانوا على حق لما فارقوا علياً، لاسيما وأن فاطمة عليها السلام ماتت وهي واجدة عليهما، كما ذكرت ذلك عائشة، حيث قالت: **«فغضبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى توفيت»**[5]، وقد قالت عليها السلام لهما: **«فإني أُشهد الله وملائكته**

---

(١) المستدرك، الحاكم: ج٣ ص ١٢١، هذا الحديث صحيح الأسناد ولم يخرجاه؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص ٢٧٠.

(٢) صحيح البخاري، البخاري: ج٢ ص٤٣٥؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٩٧، ص١٤٨؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي: ص١٢١؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٢٢ ص٤٠٤؛ كشف الخفاء، العجلوني: ج٢ ص٨٦؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج٢ ص٢٠٨؛ وغيرها من المصادر.

(٣) المستدرك، الحاكم: ج٣ ص١٥٤.

(٤) ميزان الاعتدال، للذهبي: ج١ ص٥٣٥ وج٢ ص٤٩٢.

(٥) صحيح البخاري، البخاري: ج٢ ص٢٨٢؛ صحيح مسلم، مسلم: ج٥ ص١٥٤؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج١ ص٦؛ السنن الكبرى: ج٦ ص٣٠١.

أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبيﷺ لأشكونكما إليه»[(١)].

٥- كشفُ معاوية بطلان خلافة أبي بكر، وهذا ما نلمسه واضحاً في رسالته لمحمد بن أبي بكر حيث جاء فيها:«... فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب، وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيّهﷺ ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأبلج حجته، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتز حقه، وخالفه على أمره، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم أنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهمّا به الهموم، وأرادا به العظيم ثم أنه بايع لهما وسلّم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرّهما... أبوك مهّد مهاده وبنى لملكه وسادة، فإن يك ما نحن فيه صواباً، فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلّمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا، فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك، أو دع ذلك، والسلام على من أجاب»[(٢)].

٦- لو فرض وجود نص على أبي بكر، فإنه يلزم التناقض مع حشد وافر من الآيات القرآنية والنصوص النبوية، الدالة على إمامة علي بن أبي طالبعليه السلام، كآية الولاية، وآية أولي الأمر، وآية المباهلة، وآيات البلاغ، وحديث الدار، وحديث المنزلة، وحديث الطير، وواقعة الغدير وآياتها التي كان فيها أبو بكر وعمر من أول المهنئين للإمام عليعليه السلام، وحديث

(١) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٣١.

(٢) مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٢٢؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ص٣٩٧؛ وقعة صفين، المنقري: ص١٢٠ - ١٢١؛ النزاع والتخاصم، المقريزي: ص١٠٢؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٣ ص١٩٠.

الثقلين، التي لا شك في دلالتها على ذلك، وكما قال ابن أبي الحديد المعتزلي: لو كانت هناك نصوص على أبي بكر فهي من وضع البكرية لكي تكون في قبال ما يستند إليه الشيعة من نصوص على ولاية علي عليه السلام[1].

٧- لا أدري أي معنى للنص على أبي بكر، مع أنه لو كان أبو بكر مؤهلاً أن يقود سرية صغيرة للجيش لأمّره رسول الله صلى الله عليه وآله قائداً لسرية أسامة بن زيد بدل أن يضعه جندياً عادياً، وهو ذو الشيبة البيضاء، تحت إمرة أُسامة بن زيد الذي لم يتجاوز عمره العشرين سنة.

٨- احتجاج أبي بكر في السقيفة على أن الإمامة من قريش، فلو كان منصوصاً عليه لاحتج بذلك النص، وقوله: «أقيلوني أقيلوني فلست بخيركم»، يكشف عن عدم وجود نص، وعدم أفضليته على الآخرين، وعدم أهليته لذلك المقام.

٩- قول عمر لأبي عبيدة بن الجراح:«ابسط يدك أبايعك»، فلو كان هناك نصّ على أبي بكر لما جاز لعمر أن يبايع أبا عبيدة ابن الجراح.

١٠- ذكرنا في الجواب عن حديث الاثني عشر: أنّه ليس له تفسير صحيح، ولا تطبيق واقعي، إلاّ على إمامة وولاية أهل البيت عليهم السلام، أوّلهم علي عليه السلام وآخرهم المهدي عليه السلام، كما ثبت ذلك بالأدلة القاطعة، وعلى هذا الأساس لا معنى لكون أبي بكر منصوصاً عليه، أو هو الخليفة الشرعي، بأي وجه كان، وإلاّ فسيكون حديث الاثني عشر خليفة كلّهم من قريش

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ١١ ص ٤٩.

باطلاً، وبطلانه يتنافى مع صحة الحديث وتسالم الفريقين على نقله في المصادر المعتبرة.

رابعا: معالم تحرك الحزب القرشي:

كانت وفاة النبي صلى الله عليه وآله من أخطر التجارب والمنعطفات التي مرَّ بها المجتمع الإسلامي، بعد كل التضحيات التي بذلت من أجل الدين، وبعد كل التوصيات والأوامر القرآنية والنبوية على لزوم اتباع عليّ عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وأنه وصي رسول الله، إلاّ أن القوم تمردوا على إرادة الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

وقد برز هذا المنحى للتمرد على أوامر الرسول صلى الله عليه وآله بشكل واضح، عندما تخلف البعض - لا سيما أبو بكر وعمر - عن الالتحاق بجيش أسامة، ومن ثم تبعها تمردهم على النبي صلى الله عليه وآله، ومنعه من كتابة ما أراد كتابته حين وفاته صلى الله عليه وآله، فباعتراف عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله أراد أن يكتب كتاباً يوصي فيه بالولاية والخلافة لعلي، وإني علمت ذلك فمنعته، وهذا الاعتراف الصريح بعصيان الرسول صلى الله عليه وآله، مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[(١)]، وقد برّر منعه للرسول صلى الله عليه وآله حين وفاته، بأن الرسول يهجر، وهذا خلاف القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[(٢)].

والمصيبة الأعظم، هي تركهم رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته مسجى على

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) النجم: ٣-٤.

فراشه، واجتماعهم في سقيفتهم، يتداولون فيها مستقبلهم السياسي، والأغرب من ذلك أنهم لم يكن بينهم وبين واقعة الغدير -التي نصّب فيها رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام إماماً ووليا- إلاّ سبعون يوماً فقط.

وبالتأمل في سلسلة الأحداث التي كانت في حياة الرسول صلى الله عليه وآله أو بعد وفاته صلى الله عليه وآله نجد أن هنالك خيوطاً مرتبطة ومتشابكة فيما بينها، حيث توجد شواهد تاريخية متضافرة تكشف عن وجود تحرك قرشي كان يعمل منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يحاول أن يكون له دور متميز في الصحبة والوجاهة والقيادة، ويسعى لاحتواء الدور القيادي بديلاً عن العترة الطاهرة الذين كان يصرح رسول الله صلى الله عليه وآله بخلافتهم وقيادتهم للأمة من بعده، ومن أبرز معالم هذا التحرك الذي يعتبر شاهداً على وجود هذه النزعة لمثل هذا التحرك هي:

١- النزعة العامة عند أقطاب هذا التوجه لأن يكون لهم دور متميز في المسيرة، كما في مبادراتهم إلى الظهور والتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، لا سيما المبادرات والاقتراحات المثيرة للالتفات التي لم تعهد من أحد من الصحابة والقريبين من الرسول صلى الله عليه وآله، ومن جملة محاولاتهم الظهور في المواقع التي لا ينبغي لأحد أن يكون له رأي، كإبداء الرأي في مقابل قول رسول الله صلى الله عليه وآله بل يبدو من بعض المواقف أيضاً أنهم كانوا يتدخلون فيما ليس من شأنهم التدخل فيه، كمطالبات عمر المتكررة من رسول الله صلى الله عليه وآله بالإذن له في ضرب الأعناق، خاصة وأن النبي صلى الله عليه وآله كان في جميع هذه الحالات لا يريد قتل أولئك الأشخاص، ولم يأذن لهم بواحدة منها، كما في قول عمر في حق ابن صياد: «دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال

النبيﷺ: إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»[١]، وكقوله أيضاً في عبد الله بن ذي الخويصرة عندما قال لرسول اللهﷺ: «**اعدل يا رسول الله، فقال**ﷺ: **ويلك من يعدل إذا لم أُعدل، قال عمر: دعني أضرب عنقه**»[٢]، وعن أنس قال: جاء رجل من أهل الكتاب فسلّم على النبيﷺ فقال:«**السلام عليكم، فقال عمر يا رسول الله ألا أضرب عنقه، قال**ﷺ: **لا...**» قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح[٣]، هذا مع أن عمر لم يعرف منه في مواطن الجد والضرب إلا الهرب كما هو الحال في معركة أُحد وبالإسناد عن عبد الرحمن بن رافع أخو بني النجارة قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة بن عبد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قد قتل محمد رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله! فاستقبل القوم فقاتل حتى قتل[٤] والخندق وحنين وغيرها[٥]، ولم ينقل لنا التاريخ أنه قتل كافراً في معركة، أو غزوة مع رسول اللهﷺ.

---

(١) صحيح البخاري، البخاري: ج١ ص٣٥٩، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؛ صحيح مسلم، مسلم: ج٨ ص١٩٢.

(٢) صحيح البخاري، البخاري: ج٤ ص٣٠٠، باب من ترك قتال الخوارج للتآلف وأن لا ينفر الناس عنه؛ صحيح مسلم، مسلم: ج٣ ص١١٢.

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٨ ص٤١.

(٤) جامع البيان، الطبري: ج٤ ص١٥٠، البداية والنهاية، ابن كثير: ج٤ ص٣٩، الدّر المنثور، السيوطي: ج٢ ص٨٠ – ٨١

(٥) المستدرك، الحاكم: ج٣ ص٢٧، مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٦ ص١١٢؛ وصححه الذهبي في تلخيصه؛ التفسير الكبير، الرازي: ج٩: ص٦٧؛ الدّر المنثور: السيوطي: ج٢ ص٨

٢- النزعة والأمل عندهم في أن يكون لهم دور كدور علي بن أبي طالب عليه السلام ومميزاته وخصوصياته التي خصه بها الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وهذا ما نلمسه واضحاً في تصرفاتهم وأفعالهم أمام المسلمين، كمبادرتهم إلى الإتيان بأعمال إعلامية من أجل التمويه بأنهم هم المعنيون في بعض الأحاديث والآيات والمواقف التي هي خاصة بعلي عليه السلام، منها:

أ - ما كان يتطلّع له أبو بكر وعمر من تقمّص دور الإمام عندما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجماعة من قريش **«لن تنتهوا يا معشر قريش، حتى يبعث الله رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب أعناقكم وأنتم مجفلون عنه إجفال النعم.**

قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله قال صلى الله عليه وآله: لا، قال له عمر: أنا هو يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله: لا، ولكنه خاصف النعل، قال وفي كف علي نعلٌ يخصفها لرسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

ب - أمنية عمر في واقعة خيبر، عندما كان علي عليه السلام أرمد لا يبصر، فلم يستطع التواجد في بداية المعركة، وقد قاتل المسلمون يومين، يوماً كانت الراية فيه بيد أبي بكر، ويوماً كانت بيد عمر، فلم يفلحوا في الفتح، فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لأدفعنّ اللواء غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله عليه، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن

(١) راجع: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١ ص١٤٤؛ ج٨ ص٤٣٣؛ وقد وثق رواته الخطيب البغدادي؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٢٤٢؛ المناقب، الخوارزمي: ص١٤٢. كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٣ ص١١٥.

يساره، قال عمر ما تمنيت الإمرة إلا يومئذ، فلما كان الغد تطاولت لها، وفي رواية«فبات الناس متشوقين»، وما إلى ذلك من التعابير والتصريحات التي تكشف عن تمنّي كثير من الصحابة أن تكون الراية له، وأما عمر فقد صرح بقوله: تطاولت لها[١]، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: «ادعوا إليّ علياً رضي الله عنه، فأوتي به أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه»[٢]، وقد صححها الهيثمي في مجمع الزوائد[٣].

ج ـ عندما قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ قال لهم:«لتسلمنّ، أو لأبعثَنّ إليكم رجلاً مني، - أو قال مثل نفسي - فليضربنّ أعناقكم، وليسبينّ ذراريكم، وليأخذن أموالكم، قال عمر: والله ما اشتهيت الإمارة إلا يومئذ فجعلت أنصب صدري، رجاء أن يقول هو هذا، فالتفتَ إلى علي فأخذ بيده، ثم قال: هو هذا، هو هذا»[٤]، وفي رواية أخرى قول عمر:«فو الله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، فجعلت أنصب صدري رجاء أن يقول هو هذا»[٥]، وفي رواية ثالثة:«فما أحببتُ الإمارة قبل يومئذ، فتطاولت لها واستشرفت»[٦]، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة:«أخرجه الطيالسي (رقم ٢٤٤١)...

---

(١) صحيح البخاري، البخاري: ج٥ ص٧٦؛ صحيح مسلم، مسلم: ج٧ ص١٢١؛ طبقات ابن سعد، ابن سعد: ج٢ ص١١٠؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٣٨٤؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤١ ص٢١٩ وغيرها من المصادر.

(٢) صحيح مسلم، مسلم: ج٧ ص١٢٠؛ وانظر صحيح البخاري، البخاري: ج٢ ص٢٦١؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج١ ص١٨٥.

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١٢٤.

(٤) أنساب الأشراف، البلاذري: ص١٢٣ – ١٢٤.

(٥) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، ابن الدمشقي الشافعي: ج١ ص٦٠؛ ذخائر العقبى: ص٦٤؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص١٥٣.

(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: مج١؛ القسم الثاني: ص٧٦٦.

ومن هذا الوجه أخرجه أحمد أيضاً... وهذا سند صحيح على شرط مسلم، وصححه ابن حبان (٩/٤٣ـ٤٤)»[١].

وفي خصائص النسائي: «فما راعني إلاّ كف عمر في حجزتي من خلفي، وقال: من يعني؟ قلت إياك يعني وصاحبك، قال: فمن يعني؟ قلت خاصف النعل»[٢]، وفي رواية أُخرى: «ما إياك يعني ولا صاحبك، قال: فمن يعني: قلت: خاصف النعل»[٣]، والحديث روي في ينابيع المودة من عدة مصادر.

د ـ وعن أبي سعيد الخدري قال: «كنا جلوساً ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إلينا فانقطع شسع نعله، فرمى به إلى علي عليه السلام فقال: إن منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله: قال أبو بكر أنا، قال عمر: أنا، قال: لا، ولكن خاصف النعل»[٤]، وفي رواية أُخرى: «أنا هو يا رسول الله قال: لا، قال عمر أنا هو يا رسول الله قال: لا ولكن خاصف النعل»[٥]، وفي رواية: «فقال بعضهم أنا هو يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله لا وقال:

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: مج١؛ القسم الثاني: ص٧٦٦.

(٢) خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٨٩

(٣) السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١٢٧-١٢٨؛ مناقب أمير المؤمنين: القاضي محمد بن سليمان الكوفي: ج١ ص٤٦١؛ ونحوه شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٩ ص١٦٧؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص١٦٦.

(٤) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي: ص١٣١؛ ونحوه تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٥٣.

(٥) مستدرك الحاكم، الحاكم النيسابوري: ج٢ ص١٣٨، قال فيه (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه)؛ صحيح ابن حبان، ابن حبان: ج١٥ ص٣٨٥؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٨٦، قال فيه (رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح)؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٤٣؛ المصنف، الصنعاني: ج٧ ص٤٩٧؛ خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص١٣١؛ مسند أبي يعلى، أبي يعلى الموصلي: ج٢ ص٣٤١.

آخر أنا هو قال: لا ولكن خاصف النعل»[(١)]، وقد صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة[(٢)].

هـ - وعن عمران بن حصين قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه وآله جيشاً، واستعمل عليهم علي بن أبي طالب، فمضى في السرية، فأصاب جارية، فأنكروا عليه، وتعاقدوا أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إن لقينا رسول الله أخبرناه بما صنع علي، وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدأوا برسول الله صلى الله عليه وآله فسلّموا عليه، ثم انصرفوا إلى رحالهم، فلما قدمت السرية سلّموا على النبي صلى الله عليه وآله، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله ! ألم تر إلى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قام الثاني، فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام إليه الثالث، فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الرابع، فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله والغضب يعرف في وجهه، فقال: ما تريدون من علي؟ إن علياً مني، وأنا منه، وهو وليُّ كل مؤمن بعدي»[(٣)].

وقد لوحظ استمرار هذه النزعة وانعكاسها على حياة الشيخين وأتباعهما، حتى آخر لحظات حياة النبي صلى الله عليه وآله، وهذه الظاهرة تلتقي وتنسجم مع ما افتعله عمر من تشويش على النبي صلى الله عليه وآله، وما أحدثه من ضجة

(١) المعجم الأوسط، الطبراني: ج٤ ص١٥٨.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: مج٥: ص٦٣٩ ح٢٤٨٧.

(٣) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤ ص٤٣٧؛ سنن الترمذي، الترمذي: ج٥ ص٢٩٦ ح٣٧٩٦؛ خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٩٧؛ صحيح ابن حبان، ابن حبان: ج١٥ ص٣٧٣؛ مستدرك الحاكم، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١١٠، [وقال الحاكم:] «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه»؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: ج٥ ص٢٦١ ح٢٢٢٣.

لمنع الرسول ﷺ من كتابة الكتاب الذي أراد تدوينه، وذلك يلتقي أيضاً مع ما فعله عمر يوم وفاة النبي ﷺ، ويتناغم كذلك مع ما صرح به لابن عباس كما سلف.

٣- العلاقات التي كانت قائمة بين قادة التحرك لم تكن عفوية، بل كانت هادفة، ومشفوعة بشيء من الثقافة في مجال الولاية، بمعنى أنهم يدركون إن الولي الشرعي بعد رسول الله ﷺ هو علي عليه السلام، ولا يخفى على المتأمل البصير كيف كان تركيزهم على حديث أن الخلفاء «كلهم من قريش» دون باقي الأحاديث التي هي أخص من ذلك، كحديث (كلهم من بني هاشم)، وعلى ضوء ذلك يتضح ما افتعله البعض من ضجة، حينما بيّن الرسول ﷺ من هم الأئمة من بعده، بحيث ما سُمح للرسول ﷺ من إيصال كلامه لبعض الحاضرين، حتى أن الراوي ـ جابر بن سمرة ـ عندما لم يسمع الحديث بكامله من رسول الله ﷺ استفهم من بعض الحاضرين، كأبيه وعمر، فأثبتوا له الحديث.

ومما يؤكد انسجام فكرة التحرك وسبق التثقيف عليها عند أقطاب هذا الاتجاه وقواعده، هو ما حصل في السقيفة من احتجاجات إعلامية منسجمة مع بعضها البعض، مع أن تلك الاحتجاجات كانت تعتمد على أمرين بينهما تناقض واضح، ومع ذلك فإنهما تم عرضهما بأسلوب مهذب ومنمق، يوهم عدم التناقض بينهما، وهما:

أولاً: ولاية قريش.

وثانياً: استبعاد أهل البيت عليهم السلام، وإهمال ذكرهم، كأن لا وجود ولا دور

لهم في مجال القيادة والخلافة.

فأوحوا إلى الذين حضروا مؤتمر السقيفة، أن ورثة الرسول صلى الله عليه وآله هم قريش، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر، هذا مع قدرة عالية على توظيفهم السوابق وما قام به الشيخان من الأعمال التمهيدية التي افتعلاها في زمن النبي صلى الله عليه وآله، ومحاولات أخذ دور علي عليه السلام، بشكل منمق ومنسق كما تقدم، وتوظيف قضية هجرة أبي بكر مع النبي صلى الله عليه وآله، مع أنها لا تعني شيئاً من معاني القرب والأفضلية والتقديم على الآخرين، فكثير ما يتخذ القادة رفقاء لهم في الهجرة من الأتباع العاديين.

فصُور الشيخان وكأنهما أكثر التصاقاً بالنبي صلى الله عليه وآله من علي عليه السلام، ولا يخفى ما في ذلك من حسد...

٤- مما يشهد بوجود التنسيق المسبق بين أقطاب هذا التحرك، هو شكل الحكومة التي تمخضت عن السقيفة، الخلافة، قال ابن الأثير:«لما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء»[(١)]، وفي المصطلح المعاصر أن الأول تولى السلطة العليا، والثاني تولى السلطة الاقتصادية، والثالث تولى السلطة القضائية، وهذه أهم الوظائف الرئيسية في نظام الحكم الإسلامي، فإن تقسيم هذه المراكز الحيوية في الحكومة الإسلامية بهذا الشكل على هؤلاء الثلاثة الذين قاموا بدور كبير في اجتماع السقيفة، لا يأتي عن صدفة، ولم يكن أمراً عفوياً ومرتجلاً.

ومما يدعم ذلك قول أبي بكر:«**إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا**

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٢ ص٤٢٠.

على ثلاثة فعلتهن، وودت إني تركتهن،... وودت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين عمر وأبا عبيدة فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً»[(١)]، وكذلك قول عمر حين حضرته الوفاة: «لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته»[(٢)]، وهذا يلتقي مع رواية أبي مليكة، قال:«سُئلت عائشة من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم مَن بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح»[(٣)]، وفي رواية أُخرى عن عبد الله بن شقيق قال:«سئلت عائشة، أي أصحاب رسول الله كان أحب إليه ؟ قالت: أبو بكر، ثم عمر، ثم أبو عبيدة بن الجراح، قلت: ثم من ؟ فسكتت»[(٤)]. وكل هذه الشواهد تؤكد وجود التناغم والتنسيق بينهم، ويبدو أن عائشة كان لها اطّلاع على هذا الأمر، بل قد تكون شريكة لهم في الحزب وأحد أعضائه.

٥ – من الأدلة على وجود التخطيط المسبق، ما فعله عثمان بن عفّان عندما كتب اسم عمر في الوصية، كخليفة من بعد أبي بكر، من دون أن يأمره أبو بكر بذلك، حيث كان مغمى عليه، فمن أين علم عثمان أن عمر هو خليفة أبي بكر، مع أنه كان مغمىً عليه، ومن أعجب المفارقات أن أبا بكر تُكتب وصيته وهو مغمى عليه، ورسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري: ج٢ ص٦١٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص٤١٨، ص٤٢٠.

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٢٩٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٨ ص٤٠٤؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١ ص١٩٠.

(٣) صحيح مسلم، مسلم: ج ٧ ص١١٩؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٣٠؛ فتح الباري: ج٧ ص٢٥، وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٤) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٣٠؛ سنن الترمذي، الترمذي: ج٥ ص٢٦٨.

الهوى إن هو إلا وحي يوحى- يقال: إنه ليهجر، حينما أراد أن يكتب كتاباً للأمة لن تضل بعده أبداً !!!

٦- قول علي عليه السلام لعمر: **«احلب يا عمر حلباً لك شطره، اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً، ثم قال: والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه»**(١).

٧- مما يكشف عن وجود هذا المنحى التحزّبي، هو أن قريشاً التي كانت في مجتمع الجزيرة الذي تحكمه النزعة القبلية كانت ترفض اجتماع القيادة في بيت واحد، فقريش لم تكن تتحمل ظهور نبي في بطن من خيار بطونها، بل أفضلها، وهم بنو هاشم، لذلك اجتمعت كلمتها على محاربة النبي صلى الله عليه وآله، فكيف تتحمل أن يستمر بنو هاشم بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله لاسيما وأن قريشاً كان الطابع السياسي فيها قائم على اقتسام مناصب الشرف والسيادة، ومن هنا لم تكن قريش تريد أن يتميز البطن الهاشمي عن بقية بطونها، وأن يتفوق عيها، وقد سادت هذه الفكرة والعقلية الأجواء السياسية المحمومة في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله، وقريشاً مدركة أن النبي صلى الله عليه وآله ميّت لا محالة في مرضه هذا، وقد أخبرهم صلى الله عليه وآله بذلك، فلو تركت الأمور على مجراها الطبيعي، فالخلافة ستؤول إلى علي عليه السلام حتماً، من هنا تحرّك الحزب المناوئ لبني هاشم، وهذه الفكرة أفصح عنها عمر في محاورته مع ابن عباس قائلا: **«أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد؟ قال ابن عباس: فكرهت أن أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري، فإن أمير المؤمنين يدري؟ فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة»**(٢).

---

(١) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص ٢٩؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص١١.
(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٢٨٩؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٦٣.

بل نجد أن حالة التطلع إلى السلطة والقيادة كان موجوداً حتى عند القبائل النائية، فكيف بقريش، يقول الطبري في تاريخه:« **كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم ـ إذا كانت ـ على قبائل العرب يدعوهم إلى الله وإلى نصرته... ـ إلى أن يقول ـ إنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم، يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على مَن خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ؟! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه**»[1].

فإذا كان هذا حال القبائل الصغيرة والمتوسطة والنائية في تطلعها إلى السلطة والحكم بعد رسول الله ﷺ، فكيف بقريش وهي تعد نفسها أشرف قبائل العرب، لا سيما وأن الله سبحانه تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وقد أخبر النبي ﷺ عن مستقبل الدين الإسلامي، وأنه سوف يسود العالم، وكذلك ما تنبأت به الكهنة والمنجمون الذين تعتمد عليهم قريش كثيراً، وقد ذكرت إخباراتهم بمستقبل النبي ﷺ، وما يؤول إليه الدين الإسلامي، في كتب السير والتواريخ؛ لذا كانت اليهود والنصارى كثيراً ما تتوعد المشركين بالظفر عليهم عند بعثة خاتم النبيين من مكة المكرمة، ولذا هاجروا من بلاد الشام، واستوطنوا الحجاز انتظاراً لبعثة النبي ﷺ، وقد أشار القرآن الكريم

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ ص٨٣ – ٨٤

لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

٨- عندما تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وتحصنوا في دار فاطمة عليها السلام: «أرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة، فقال: ما الرأي ؟ قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيباً، يكون له ولعقبه من بعده، فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب، حجة لكم على علي إذا مال معكم، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة حتى دخلوا على العباس ليلاً»[2].

إذن قريش كانت تعلم إن مستقبل الدين هو سيادته على جميع البلدان، وعلى ضوء ذلك يتضح تخطيط الحزب القرشي في الاستحواذ على السلطة وإبعاد بني هاشم عنها، وأنه كان في مقدمة أهدافها، فلم تكن المسألة مسألة نص، أو تعيين لأبي بكر من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هو أمر دبّر بليل.

خامسا: سياسات السلطة الحاكمة يكشف عن عدم الشرعية

ما أن سيطر الحزب القرشي على مواقع السلطة في الدولة، حتى بدت

(١) البقرة: ١٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٢٤-١٢٥؛ ونحوه الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٢١؛ السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص٤٩؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج٢ ص٥٢.

بعض الظواهر والممارسات المنحرفة، التي اتبعها هذا الحزب، والتي تكشف عن نواياه الباطلة وغير الشرعية.

ومن ابرز تلك السياسات هي موقفهم من بني هاشم.

فإن الخطوة الأولى التي ابتدأها الحزب القرشي، هي إبعاد بني هاشم عن الحكم نهائياً؛ للقضاء على كل معارضة محتملة مستقبلاً، حيث اعتمدوا لإنجاز هذا الإجراء عدة آليات، منها:

١- اتهام بني هاشم بإحداث وإثارة الفتنة، التي تؤدي إلى ضعف الكيان الإسلامي، كقول أبي بكر في حق علي عليه السلام: «مربّ لكل فتنة»[1]، وقد ساعدهم على التبجح بهذا الاتهام الظروف الإسلامية آنذاك، من وجود الأعداء خارج البلاد كالروم وبلاد فارس واليهود وغيرها، الذين يهددون الدولة الإسلامية، مضافاً إلى أحداث الردة وغيرها.

٢- أسلوب الشدة والعنف مع الإمام علي عليه السلام ومَن معه، بنفس الطريقة التي اتبعوها مع سعد بن عبادة في السقيفة، حتى بلغ العنف والشدة في عمر أن هدد بحرق بيت علي عليه السلام وإن كانت فاطمة فيه، حيث قال: **«والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص: إن فيها فاطمة ؟ فقال: وإن... فوقفت فاطمة (رضي الله عنها) على بابها، فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا ولم تردّوا لنا حقاً... ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة فدقوا الباب، فلما سمعت أصواتهم**

(١) السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص١٠٤؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٦ ص٢١٥.

نادت بأعلى صوتها: يا أبتي يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابـن الخطـاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها صرخوا باكين... وبقي عمر ومعه قوم فمضوا به إلى أبي بكر فقالوا له: بايع، فقال: إن أنا لم أفعل، فمه ؟ قالوا: إذاً والله الذي لا إله إلاّ هو نضرب عنقك»[١]، ومن صور ذلـك العنـف أيضاً وصف أبي بكر لعلي عليه السلام بأنه مرّب لكل فتنة، وتشبيهه له«بأمّ طحـال أحب أهلها إليها البغي»[٢].

٣- إن الحزب القرشي ـ وعلى رأسهم أبو بكر ـ لم يشركوا أي شخص مـن الهاشـميين فـي شـأن مـن شـؤون الحكـم المهمّـة خـشية أن يـصل الهاشميون إلى الخلافة، لذا لم يجعلوا أي واحد منهم والياً على شبر من الدولة الإسلامية، وخوفاً من افتضاح هذا الأمر دعوا العباس لإعطائه نصيباً في الأمر، وذلك عندما قال المغيرة ابن شعبة:«الرأي يـا أبـا بكـر أن تلقـوا العباس، فتجعلوا في هذه الإمرة نصيباً يكون له ولعقبه، وتكون لكما الحجـة على علي وبني هاشم إذا كان العباس معكم...»[٣].

٤- تهيئة وإعداد كتلة ضخمة معادية لأهل البيت عليهم السلام ومنافسة لهـم فـي الوصول إلى المناصب العالية في الحكم، ويحتل الأمويون موقع الـصدارة في هذا المضمار؛ لما تميزوا به من طموحات عالية في الـسلطة والخلافـة، لذا نجدهم قـد احتلـوا المناصـب الإداريـة المهمـة أيـام أبـي بكـر وعمـر، مضافاً لمبدأ الشورى الذي ابتدعه عمر، ليعطـي الحـظ الأوفـر لعثمـان بـن

(١) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٣٠

(٢) السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص١٠٤؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٦ ص٢١٥.

(٣) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٣٢.

عفان للوصول إلى دفة الحكم، وقد أخذت هذه الكتلة تزداد وتتسع يوما بعد يوم حتى استتبت لها الأمور؛ وذلك لأنها لم تكن متمثلة في شخص واحد، بل كانت في بيت كبير من قريش، وبالتالي سوف يكون وصول آل محمد صلى الله عليه وآله إلى سدّة الحكم متعذراً، أو ليس سهلاً على أقل تقدير.

٥- عزل كل العناصر التي تميل إلى بني هاشم؛ ولذا عزل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي وجّهه لفتح الشام، لأن عمر نبه أبا بكر إلى نزعة خالد الهاشمية، وميله لآل محمد صلى الله عليه وآله، وذكّره بموقفه المعارض لهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله(١).

٦- السعي لإضعاف القدرة الاقتصادية خشية أن يستثمرها الإمام عليه السلام في الدعوة لاستعادة حقّه الشرعي في الخلافة، لذلك قام أبو بكر بمصادرة فدك من الزهراء عليها السلام؛ لعلمه أنها كانت سنداً قوياً لعلي عليه السلام، لا سيما وأن أبا بكر نفسه اتخذ المال وسيلة من وسائل الإغراء وكسب الأصوات، وإليك بعض تلك الشواهد:

منها: عندما عاد أبو سفيان إلى المدينة سأل عما جرى أثناء غيبته عنها:«**فقالوا: مات رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: من ولي بعده؟ قيل: أبو بكر، قال: أبو فصيل ؟! قالوا: نعم، قال: ما فعل المستضعفان علي والعباس ؟ أما والذي نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما، قال أبو بكر، وذكر الراوي وهو جعفر بن سليمان: أن أبا سفيان قال: شيئاً آخر لم تحفظه الرواة، فلما قدم المدينة قال: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلاّ دم، فكلّم عمر أبا بكر، فقال: إنّ**

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ ص ٥٨٦.

أبا سفيان قدم وإنا لا نأمن شرّه، فدفع إليه ما في يده فتركه ورضي»[١]. وكان في يد أبي سفيان في ذلك الحين صدقات كثيرة للمسلمين قد جمعها منهم ؟!

ومنها: مفاوضاتهم مع العباس بن عبد المطلب، ومحاولة إغرائه عندما قالوا له: **«نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، يكون لك ولعقبك من بعدك..»**[٢].

ومنها:**«لما اجتمع الناس على أبي بكر قسّم قسماً بين نساء المهاجرين والأنصار، فبعث إلى امرأة من بني عدي بن النجار قسماً مع زيد بن ثابت، فقالت: ما هذا ؟ قال: قسم قسمه أبو بكر للنساء، قالت: أتراشونني عن ديني، والله لا أقبل منه شيئاً فردّته عليه»**[٣].

ومنها: منح أبو بكر مزايا خاصة لابنته عائشة، إذ أنه جعل زيادة في عطائها ألفي دينار بعدما جعل عطايا أمهات المؤمنين ستة آلاف دينار لكل واحدة[٤]، واستمرت عائشة بأخذ الزيادة في عهد أبيها وعمر الذي أوصى له بالخلافة من بعده.

---

(١) السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص٣٩. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢ ص٤٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص١٢٥؛ الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٤٢؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج١ ص٢٢٠.

(٣) السقيفة وفدك: ص٥١؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢ ص٥٣.

(٤) راجع: تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص١٥٣.

الخلاصة

أولاً: وجود روايات كثيرة صحيحة تنص على عدم وجود نص على أبي بكر، من قبيل قول عائشة في مقام نفي النص: «**لو كان رسول الله مستخلفاً لاستخلف أبا بكر أو عمر**»[(١)] ونحوها من الروايات.

ثانياً: اعتراف عدد كبير من أعلام السنة بعدم وجود النص على أبي بكر وإنكارهم على مَن ادعى ذلك، من قبيل القرطبي والنووي في شرحه لصحيح مسلم وابن حجر في فتح الباري ناسباً ذلك إلى جمهور أهل السنة، والمراغي في تفسيره والباقلاني في تمهيده والخضري في المحاضرات وابن حجر الهيتمي وعضد الدين الإيجي وابن أبي الحديد المعتزلي والغزالي والبغدادي وغيرهم.

ثالثاً: وجود شواهد قطعية كثيرة تدل على عدم النص على أبي بكر، منها:

١- ما حصل في السقيفة من نزاعات وتهديدات فيما بين الصحابة على الخلافة، ولم يدّعِ أبو بكر ولا غيره وجود النص، مع أنه كان بأمس الحاجة إليه كحجّة دامغة.

٢- تعبير عمر بقوله: (إنّ بيعة أبي بكر فلتة).

٣- اعتراف عمر بالنص لعلي عليه السلام لا غير، وأنّه هو الذي منع رسول

(١) صحيح مسلم، مسلم: ج٤ ص١٨٥٦؛ مستدرك الحاكم، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص٧٨، قال الحاكم (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٦ ص٦٣ وغيرها من المصادر.

الله ﷺ من كتابة الوصية يوم وفاته.

٤- اعتراف أبي بكر بإرادته لإكراه علي عليه السلام على البيعة لولا وجود فاطمة عليها السلام إلى جنبه، وهذا يكشف عن كون استيلائه على السلطة غير شرعي.

٥- قول علي عليه السلام إنّ بيعتي لا تحق لهم باطلاً ولا توجب لهم حقاً.

٦- الأحاديث الكثيرة المتواترة في حق علي عليه السلام وأنّه مع الحق ومع القرآن ومَن يطع علياً عليه السلام فقد أطاع الله ورسوله، وأن مَن فارق علياً فقد فارق رسول الله ﷺ وبالتالي فارق الله تعالى، وكذا حديث الغدير والثقلين، وكل هذه الأحاديث صحيحة ومن المصادر المعتبرة، فإن هذه الأحاديث الشريفة تدل على عدم النص على غير علي عليه السلام.

٧- إنّ فاطمة عليها السلام ماتت وهي واجدة وغاضبة وغير راضية على أبي بكر، ومن المعلوم إن عدم رضا فاطمة عليها السلام يدل على عدم رضا الله تعالى وغضبه على أبي بكر وعمر، كما قال ﷺ مخاطباً فاطمة عليها السلام: «**إنّ الرب يغضب لغضبك ويرضى لرضاك**».

٨- اعتراف معاوية بغصب أبي بكر للخلافة، كما في رسالته التي أرسلها إلى محمد بن أبي بكر.

٩ – إنّ أبا بكر لم يكن مؤهلاً لقيادة سرية صغيرة فضلاً عن خلافة المسلمين، ولو كان أهلاً للقيادة والخلافة لما أمّر رسول الله ﷺ أُسامة ابن زيد الذي لا يتجاوز عمره عشرين سنة قائداً على السرية وكان أبو بكر جندياً عادياً في تلك السرية.

١٠ – أحقية أمير المؤمنين في الخلافة لا غير كما جاء ذلك في نصوص كثيرة، مضافاً لدلالة حديث الاثني عشر المتسالم عليه عند الفريقين، والذي لا يمكن تفسيره إلاّ بإمامة أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم.

رابعاً: وجود تخطيط قرشي سابق للاستيلاء على السلطة، ولهذا التخطيط شواهد كثيرة، منها:

١– محاولات أقطاب هذا التوجه أن يكون لهم دور متميز في حياة المسلمين ومبادراتهم للظهور والتقدم وإن استلزم ذلك إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله من قبيل إبداء الرأي مقابل رأي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ونحوها، كما هو الحال بالنسبة لعمر بن الخطاب وأبي بكر.

٢– الأمل والشوق الكبير في نفوس رجالات الحزب بأن يكون لهم دور كدور علي عليه السلام وما خصّه الله ورسوله به من امتيازات خاصة عبر عدد من الآيات والروايات.

٣– ملاحظة العلاقات القائمة بين قادة هذا التحرك، حيث لم تكن عفوية فطرية، وإنما كانت علاقات هادفة يجمعها قاسم مشترك، وهو الاستيلاء على السلطة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا ما نلمسه واضحاً عند إثارتهم للضجة وتعالي الأصوات حين بين الرسول صلى الله عليه وآله الخلفاء من بعده.

ومن الشواهد الأخرى على هذا التنسيق:

١– تقاسمهم للخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله واستيلاؤهم على أهم المناصب الحكومية في الدولة حينما استولى أبو بكر على الخلافة وأخذ عمر القضاء وأبو عبيدة المال، وتعد هذه المناصب من أهم المراكز في

الدولة لهؤلاء الثلاثة الذين كان لهم الدور الكبير في التخطيط المسبق، ولا يمكن أن يكون قد حصل ما حصل صدفة أو أنه أمر عفوي ارتجالي.

٢- ما فعله عثمان بن عفان حيث كتب اسم عمر في وصية أبي بكر من دون أن يأمره أبو بكر بذلك، لأنه كان مغمًى عليه، وهذا يدل على اطلاع عثمان وعلمه بهذا التخطيط والتقسيم فيما بينهم.

٣- وجود النزعة القبلية عند قريش التي كانت ترفض اجتماع القيادة في بيت واحد، فهي لم تكن تتحمل ظهور بطن من خيار بطونها وأفضلها وهم بنو هاشم ونيلهم مقام النبوة، فكيف تتحمل استمرار السلطة في هذا البيت؟

خامساً: السياسات التي اتبعتها السلطة الحاكمة تكشف عن عدم شرعيتها وتخطيطها لاستلام الحكم مسبقاً؛ ولذلك شواهد كثيرة، منها:

١- اتهام بني هاشم بإحداث وإثارة الفتنة، لا سيما اتهام أبي بكر لعلي عليه السلام بذلك.

٢- أُسلوب الشدّة والعنف مع الإمام علي عليه السلام ومن معه من أتباعه.

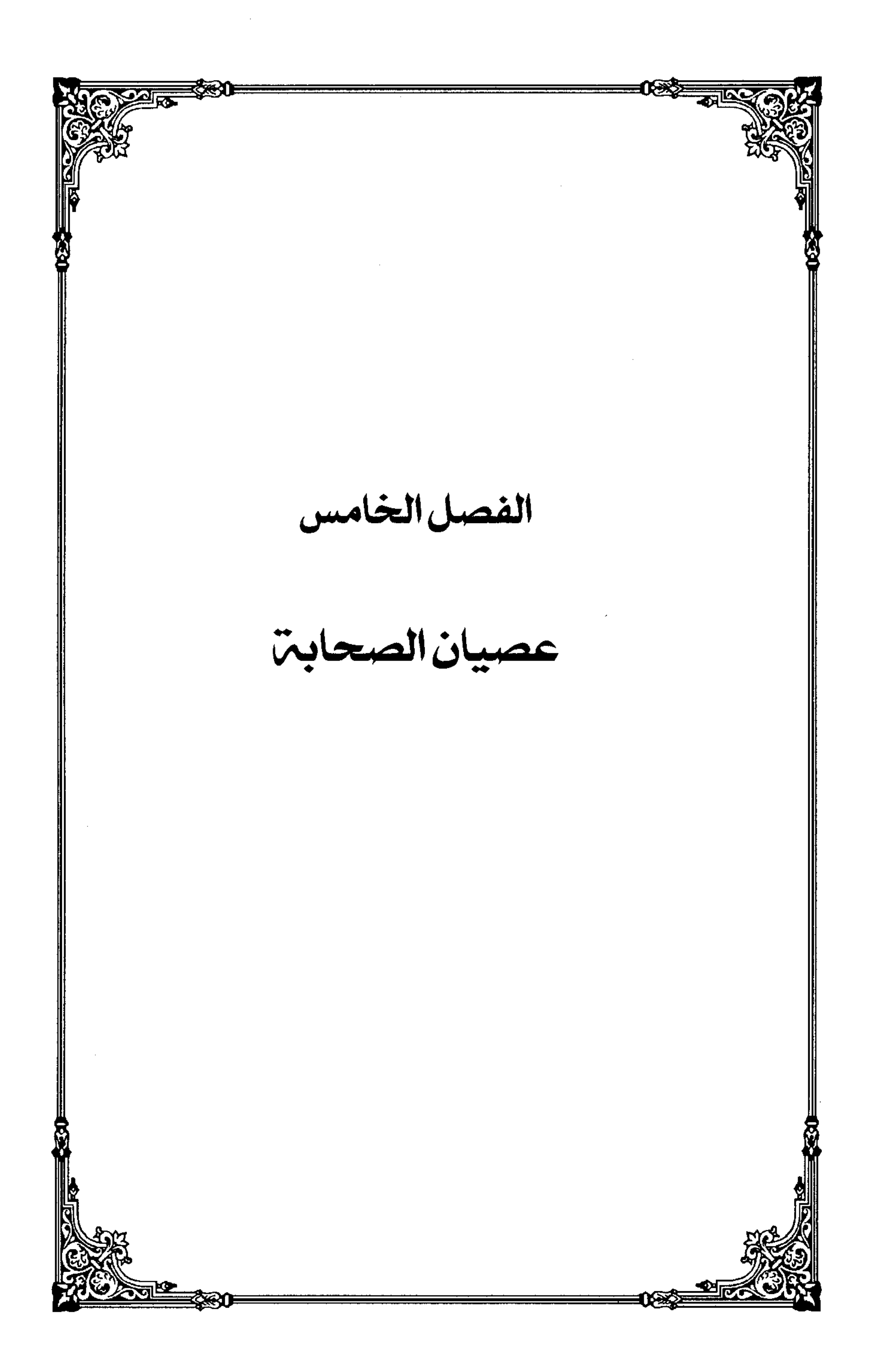
٣- عدم إشراك أي شخص من الهاشميين في شؤون الحكم، خشية أن يصل الهاشميون إلى الخلافة؛ ولذا لم يجعلوا أي واحدٍ منهم والياً على شبر من الدولة الإسلامية.

٤- تهيئة وإعداد مجموعة كبيرة معادية لأهل البيت عليهم السلام منافسة لهم في الوصول إلى المناصب العالية في الحكم، كما هو الحال في الأمويين.

٥- عزل كل العناصر التي تميل إلى بني هاشم، كما هو الحال في عزل

أبي بكر لخالد بن سعيد بن العاص عن قيادته للجيش، لولائه لآل محمد صلى الله عليه وآله.

٦- غصبهم لفدك في محاولة منهم لإضعاف القدرة الاقتصادية للإمام علي عليه السلام خشية استثمارها في الدعوة لاستعادة حقّه الشرعي.



الفصل الخامس

عصيان الصحابة

عصيان الصحابة

الشبهة:

كيف أوصى الرسول وأشهد الصحابة على الولاية ثم عصوه؟

وكيف أجبر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الناس على البيعة؟

الجواب:

تمهيد:

بادئ ذي بدء، نقول: إن خير دليل على الإمكان هو الوقوع، وهذا التاريخ بين أيدينا يحدثنا عن وقوع هذه الحوادث وعدول الصحابة عن وصية نبيهم صلى الله عليه وآله، إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان، وهم علي عليه السلام وأتباعه، ولا يمكن التشكيك بصحة هذه الوقائع، بعدما نطقت به أحاديث الفريقين.

والملاحظة الجديرة بالذكر، أن ما حصل من انحراف عن وصايا الرسول صلى الله عليه وآله، والعدول عن الوصي الشرعي، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، ليس غريباً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة النفس الإنسانية، وما فيها من تجاذبات ميّالة إلى التسلط والزعامة والظلم وغيرها، كما أعرب القرآن الكريم عن ذلك في كثير من الآيات المباركة: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾[2].

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) الإسراء: ٦٧.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[(١)].

ومما يؤكد ذلك سيرة هذا الإنسان مع أنبياء الله ورسله وأوصيائهم، وسائر حججه تعالى على خلقه، حيث نجد إعراض أغلب الناس عن دعوة الأنبياء وهدايتهم، فهذا شيخ الأنبياء نوح لبث في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾[(٢)]، فلم يؤمن به إلاّ قليلٌ منهم.

وقد كشف القرآن الكريم هذه الحقيقة في كثير من الآيات، كقوله تعالى في قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[(٣)]، وقوله عزّ وجلّ في قوم موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾[(٤)]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[(٦)]، وغيرها من الآيات.

فإذا كان هذا حال الأمم الماضية مع أنبيائها من الإعراض والتمرد، كذلك ما حصل في أمتنا الإسلامية، التي أنبأ النبي صلى الله عليه وآله عن أنّها يجري فيها ما جرى في الأمم السالفة، كما هو وارد في الأحاديث المتفق عليها عند الفريقين.

منها ما ورد في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو

(١) عبس: ١٧.
(٢) العنكبوت: ١٤.
(٣) هود: ٤٠.
(٤) البقرة: ٨٣
(٥) سبأ: ١٣.
(٦) سورة ص: ٢٤.

دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال: فمن ؟!»[(١)].

وفي نص آخر أخرجه الحاكم في مستدركه ـ ووافقه الذهبي في تلخيصه ـ عن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، قال: كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ في مسجده، فقال: **«لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل، ولتأخذنّ مثل أخذهم إن شبراً فشبر، وإن ذراعاً فذراع، وإن باعاً فباع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه، ألا إن بني إسرائيل افترقت على موسى على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالّة إلا فرقة واحدة»**[(٢)].

خلفيات عدول بعض الصحابة عن وصية رسول الله ﷺ

أولا: الحرص على كرسي الزعامة

لا عجب مما فعله الصحابة، من إعراضهم عن وصايا النبي ﷺ لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة قريش وما تحمله من تطلع نحو الزعامة والملك والسلطان، وذلك ما كان يتخوف منه رسول الله ﷺ عندما قال:

(١) صحيح البخاري: ج٤ ص٤٠٠ ح٧٣٢٠، كتاب الاعتصام بالكتات والسنة، باب لتتبعن سنن من كان قبلكم.

(٢) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج١ ص١٢٩؛ وكذا: مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٧: ص٢٦٠؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١ ص٢١١ ح١٠٥٩؛ تحفة الأحوذي، المباركفوري: ج٦ ص٣٤٠؛ قال فيه: (هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في مسنده)؛ السنن، الترمذي: ج٤ ص١٣٥ ح٢٧٧٩، قال فيه: (هذا حديث حسن غريب)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: ج٣ ص٣٣٤، ح١٣٤٨، وفيه زيادة: (وحتى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم)، قال الألباني: رجاله رجال الصحيح غير موسى بن ميسرة الديلمي وهو ثقة على أنه متابع.

«أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه، ورجل يرى أنّه أحق بهذا الأمر من غيره»[(١)].

ثانيا: دور المنافقين والذين في قلوبهم مرض

إن وجود عدد كبير من المنافقين في صفوف المسلمين، الذين ما فتئوا يتربصون الدوائر للإطاحة بالإسلام، له دور مهم في إيجاد حالة إعلامية وخلق أجواء سياسية مناهضة للخلافة الشرعية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان»[(٢)]، وكذلك وجود طائفة من مرضى القلوب، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ﴾[(٣)].

ثالثا: التنافس والنزاع بين القبائل

لقد كان لطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين القبائل في المدينة المنورة دور مؤثر في هذا المجال، حيث كان التنافس والنزاع سائداً بين تلك القبائل، كما هو الحال في قبيلتي الأوس والخزرج، فلم تكن قبائل المدينة المنورة موحّدة، بل إن قبلتي الأوس والخزرج ـ وهما قبيلتان كبيرتان من الأنصار ـ كانتا متنازعتين متنافستين على الزعامة في الجاهلية،

---

(١) المعجم الأوسط، الطبراني: ج٢ ص٢٤٢ – ٢٤٣؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٢٠٥ ح١٣٨٣؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٠ ص٢٠٠ ح٢٩٠٥٢.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي: ج١ ص١٨٧، قال فيه: (رواه الطبراني في الكبير والبزار، ورجاله رجال الصحيح).

(٣) الأنفال: ٤٩

وسكنت فورتهم بوجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، وقد كانت تطفح فورة التنازع بينهم في حياة رسول الله ﷺ بين الحين والآخر، كما نقل ذلك البخاري، ومسلم في صحيحيهما، وكذا غيرهما، من ذلك المقطع التالي:«...فقام رسول الله ﷺ... على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي،... فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك،... فقام رجل من الخزرج [هو سعد بن عبادة]،... فقال لسعد: [والمقصود به ابن معاذ الأنصاري] كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين،...فثار الحيّان الأوس والخزرج، حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر»[1].

وكذلك نقل الطبري في تفسيره، وغيره: «عن زيد بن أسلم قال: مرَّ شاس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم، وإلفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية،... فأمر فتًى شاباً من اليهود، وكان معه، فقال: اعمد إليهم فأجلس معهم، وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض

---

(١) صحيح البخاري: ج٣ ص٥٤ — ٥٥ ح ٤١٤١، كتاب المغازي، باب حديث الإفك؛ صحيح مسلم: ج٤ ص٢١٢٩ — ٢١٣٤ ح ٢٧٧٠، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك.

ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار،... ففعل فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب،... فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، فخرجوا إليها، وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم،... فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام»[(١)].

إذن كان للخلاف العريق بينهم الدور الكبير في حسم الموقف في السقيفة لصالح زعماء الحزب القرشي، وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ابن الجراح.

ويتضح من ذلك أن الأجواء التي كان يتعايش فيها الأوس والخزرج، أجواء مضطربة هيّأت الأرضية المناسبة لانقلاب الأمر في السقيفة لمن حضرها من المهاجرين؛ ومن هنا نجد أن المنازعة ذاتها تكررت في السقيفة بين الأوس والخزرج، عندما قام بشير بن سعد، فقال: **«يا معشر الأنصار، إنّا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضى ربنا، وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إنّ محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى،... فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد، عققت عقاق، ما أحوجك إلى ما**

(١) جامع البيان، الطبري: ج٤ ص٣٢ -٣٣.

صنعت، أنفست على ابن عمك الإمارة،... ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد،.. فقاموا إليه [أبو بكر] فبايعوه»[(١)].

فكان ذلك الاختلاف التنازع بين القبيلتين من العوامل المساعدة في حسم الموقف في تلك الأجواء الملتهبة لصالح المهاجرين، وبالخصوص من حضر منهم، ولم يكن ذلك كاشفاً عن الرأي السديد والشرعي في الخلافة، بل هي ظروف وأجواء مهّدت لذلك.

ومن هنا نجد أن علياً عليه السلام عندما تكلم عن فضله، وسابقته في الإسلام، وأحقيته برسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله أمام أبي بكر وعمر وجمع من الناس، قال: **«الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله، يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به؛ لأنّا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم.... والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بعداً»**[(٢)] فقام أحد الحاضرين، وقال: **«لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان»**[(٣)].

---

(١) تاريخ، الأمم والملوك، الطبري: ج٢ ص٤٥٨؛ الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٢٦.

(٢) الإمامةوالسياسة، الدينوري: ج١ص٢٩؛ انظر: السقيفة وفدك، أبو بكر الجوهري: ص٦٣؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص١٢.

(٣) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٢٩؛ السقيفة وفدك، أبو بكر الجوهري: ص٦٣.

رابعا: التناحر والتحاسد بين المهاجرين والأنصار

إنّ التناحر والتحاسد ـ الذي كان بين الأوس والخزرج ـ كان ذاته بين المهاجرين والأنصار، ولهذه الحقيقة شواهدها الكثيرة أيضاً في حياة رسول الله ﷺ، كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه، عن جابر بن عبد الله، قوله: **«كنا في غزاة، قال سفيان: مرةً في جيش فكسع[1] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمّعها رسول الله ﷺ فقال: ما هذا ؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها منتنة»**[2].

وقد كان الأنصار يعلمون أن قريشاً سوف لا تسمح لعلي في تسلم الخلافة بعد رسول الله ﷺ، وأنهم سوف يزوونها عنه، فكان الشغل الشاغل لهم، أن يحصلوا على ضمانات تؤمّن لهم مصيرهم بعد رسول الله ﷺ، وذلك لأنهم هم الذين قتلوا سادات قريش وأبطالها، فكانوا يخشون أن تحيف عليهم قريش بعد رسول الله ﷺ؛ ومن هنا نجد أن عمر رتّب كلاماً ونمّقه لإقناع الأنصار وطمأنتهم بإعطائهم دوراً في الخلافة، والموقف ذاته اتخذه أبو بكر في السقيفة، حيث خاطب الأنصار بقوله: **«وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام،**

---

(١) كسع: أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء وفي حديث زيد بن أرقم: إن رجلاً ضرب رجلاً من الأنصار أي: ضرب دبره بيده؛ لسان العرب، ابن منظور: ج٨ ص٣٠٩.

(٢) صحيح البخاري: ج٣ ص٢٩١ ح٤٩٠٧، كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب (يقولون لأن رجعنا إلى المدينة لخرجن منها الأعز منها الأذل...)

ورضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»[١].

خامسا: سياسة الإرهاب في السقيفة

لم تكن بيعة أبي بكر تتمتع بأجواء من الحرية والاختيار، بل خيّمت عليها أجواء الرعب والقسوة والغلظة والإكراه، فلم يُفسح المجال للصحابة كي يدلوا برأيهم بوافر من الحرية والاختيار، بل السرعة والعجلة والإكراه زوت الخلافة عن صاحبها الشرعي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذا يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج:«وعمر هو الذي شد بيعة أبي بكر، ورقم المخالفين فيها، فكسر سيف الزبير لما جرّده، ودفع في صدر المقداد، ووطئ في السقيفة سعد بن عباده، وقال: اقتلوا سعداً قتل الله سعداً، وحطّم أنف الحباب بن المنذر، الذي قال يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب.

وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة (عليها السلام) من الهاشميين، وأخرجهم منها، ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة»[٢].

وقال البراء بن عازب:«فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأُزر الصنعانية لا يمرون بأحد إلا خبطوه وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر،

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري: ج٢ ص٤٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١ ص١٧٤.

يبايعه، شاء ذلك أو أبى، فأنكرت عقلي وخرجت...»(١).

وعندما جاء عمر إلى بيت فاطمة (عليها السلام)«**وخرج إليهم الزبير بسيفه، فقال عمر: عليكم الكلب»**(٢).

سادسا: مخالفات الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وآله

لقد حدثنا التاريخ عن مخالفات كثيرة حصلت من المهاجرين والأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله فلم يكن إطباق أكثرهم على مخالفة الرسول صلى الله عليه وآله أول قارورة انكسرت في الإسلام، وقد اتخذت المخالفات صوراً وأشكالاً متعددة ومتنوعة منها:

١ـ عصيان أوامر النبي صلى الله عليه وآله

إن المواقف التي وقفها بعض الصحابة الذين يعتبرون من المقربين من الرسول صلى الله عليه وآله تكشف عن عدم معرفتهم به صلى الله عليه وآله وجهلهم بمكانتة القدسية بحيث أدى بهم الأمر إلى عصيان أوامره وكأنه شخص عادي وقد جاء في الصحاح والكتب الأخرى ما يكشف عن ذلك ومنها:

أ- أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله:«**إن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس ثم دعا بقدح من ماء، فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قدم صام. فقال: أولئك العصاة، أولئك العصاة»**(٣)

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١ ص٢١٩.

(٢) السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص٦٢؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص ١١.

(٣) صحيح مسلم، محمد بن مسلم النيسابوري: ج٢ ص٧٨٥ ح١١١٤، كتاب الصيام.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[1].

ب- وأخرج مسلم في صحيحه أيضاً بسنده عن عائشة أنها قالت: «قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس، فدخل عليٌّ وهو غضبان، فقلت: مَن أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار، قال: أوَما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يتردّدون»[2].

ج- وأخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن البزار قال: «خرج رسول الله ﷺ وأصحابه فأحرمنا بالحج، فلما أن قدمنا مكة، قال: اجعلوا حجكم عمرة، قال الناس: يا رسول الله أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة، قال: انظروا ما آمركم به فعملوا قال: فردّوا عليه القول، فغضب ثم انطلق حتى دخل على عائشة غضبان، قال: فعرفت الغضب في وجهه، قالت: مَن أغضبك أغضبه الله، قال: مالي لا أغضب وأنا آمر بالأمر لا يتّبع».

قال الهيثمي: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح»[3].

د- وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبي وجعه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، قال عمر: إن النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزيئة كل الرزيئة ما حال بين رسول الله وبين كتابه»[4].

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) صحيح مسلم، محمد بن مسلم النيسابوري: ج٢ ص٨٧٩ ح١٢١١، كتاب الحج.

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٣ ص٢٣٣.

(٤) صحيح البخاري: ج١ ص٧٣ - ٧٤ ح١١٤، كتاب العلم، باب كتابة العلم.

٢ـ الفرار في معركة أحد

أخرج البخاري، عن أنس قال:«لمّا كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وآله»[(١)].

وأخرج أيضاً في نفس الواقعة:«فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أُخراهم، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله غير اثني عشر رجلاً»[(٢)].

وأخرج أيضاً، عن أنس:«إن عمّه قال:.... فهزم الناس، فقال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء [يعني المسلمين]، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون»[(٣)].

٣ـ الفرار في يوم حنين

أخرج البخاري، عن أبي إسحاق قوله:«قال رجل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر»[(٤)].

وأخرج الطبراني بسنده عن زيد بن أرقم قال:«إنهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين، فقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[(٥)]، وقال

(١) صحيح البخاري: ج٢ ص٢٣٠ ح٢٨٨٠، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٦٧ ح٣٠٣٩، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب.

(٣) المصدر نفسه: ج٣ ص٢٩ ح٤٠٤٨، كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

(٤) صحيح البخاري: ج٣ ص٩٢ ح٤٣١٧، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم...)؛ صحيح مسلم: ج٣ ص١٤٠١ ح١٧٧٦، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين؛ صحيح ابن حبان: ج١١ ص٩٠ ح٤٧٧٠.

(٥) المعجم الكبير، الطبراني: ج٥ ص١٩٠.

الهيثمي:«رواه الطبراني ورجاله ثقاة»[١].

٤ـ اعتراض الأصحاب على الرسول ﷺ في الحديبية

أخرج البخاري أيضاً قول عمر:«فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألست نبي الله حقاً؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

قال: بلى.

قلت: فلمَ نعطي الدنية في ديننا ؟- إلى أن قال:- فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أمّ سلمة فذكر لها ما لقي في الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً..»[٢].

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٦ ص١٨٢.

(٢) صحيح البخاري: ج٢ ص١٩٠ – ١٩١ ح٢٧٣١ – ٢٧٣٢، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب؛ مسند أحمد: ج٤ ص٣٣٠ - ٣٣١؛ صحيح مسلم، محمد بن مسلم النيسابوري: ج٣ ص١٤١١ – ١٤١٢ ح١٧٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية؛ نيل الأوطار، الشوكاني ج٨ ص١٨٧؛ صحيح ابن حبان: ج١١ ص٢٢٤؛ وغيرها من المصادر الكثيرة.

٥ـ الإشفاق من التصدق

وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وفي فتح الباري: أخرج سفيان بن عيينة في جامعه عن عاصم الأحول قال:«لما نزلت كان لا يناجي النبي صلى الله عليه وآله أحد إلا تصدق، فكان أول من ناجاه علي ابن أبي طالب، فتصدق بدينار، ونزلت الرخصة ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وهذا مرسل رجاله ثقات»[٢]، وفي تحفة الأحوذي قال:«فلما أمروا بالصدقة كفوا عن مناجاته، فأمّا الفقراء وأهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما الأغنياء وأهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت الرخصة، وبعده ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني تقديم الصدقة على المناجاة لما فيه من طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وَأَطْهَرُ﴾»[٣]، وفي موضع آخر نقل صاحب تحفة الأحوذي، عن أبي يعلى، وابن جرير، والمنذر عن مجاهد، قال:«فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قدّم ديناراً، فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة في ذلك»[٤].

---

(١) المجادلة: ١٢- ١٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ج١١ ص٦٨.

(٣) تحفة الأحوذي، المباركفوري ج٩ ص١٣٧.

(٤) المصدر نفسه: ج٩ ص١٣٨.

٦ـ عدم انفاذ جيش أسامة

حيث تخلّف القوم عن إنفاذ جيش أسامة ورسول الله صلى الله عليه وآله يكرر قوله: «أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلّف عنه»[١]، ويقول صلى الله عليه وآله أيضاً: «أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لأن قلتم في أمارته لقد قلتم في أمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة»[٢].

فإذا كانت تلك المخالفات الكثيرة والجماعية من الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بين أظهرهم، فلا غرابة أن تقع ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وآله.

وإذا كانوا قد تكلموا في إمارته زيد، وابنه أُسامه لصغر سنه، فلا عجب أن يتكلموا من في إمارة علي عليه السلام وخلافته، خصوصاً وأن الحزب القرشي قد صرح بأنهم استصغروا سنّ علي عليه السلام، فنحّوه عن الخلافة.

٧ـ الارتداد والانقلاب على الأعقاب

إن الارتداد والانقلاب والعصيان من الأمور التي صرحت بها الآيات المباركة، والروايات الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٣].

---

(١) السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص٧٧؛ انظر: شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٣٣٨؛ انظر: المعيار والموازنة، الإسكافي: ص٢١١؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص٥٢.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٢ ص ٢٤٩؛ سيرة ابن هشام: ج٤ ص١٠٦٤.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

وأخرج البخاري عن رسول الله ﷺ قوله:«يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً[(١)]، ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[(٢)]، إلى آخر الآية، ثم قال: ثم إن أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا إنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب! أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[(٣)]، وروى البخاري أيضاً، عن رسول الله ﷺ قال:«أنا فرطكم على الحوض، ليرفعنَّ إليَّ رجال منكم حتى إذا أهويت لأُناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي ربِّ أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٤)]، وروى أيضاً عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليرد عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم»[(٥)].

وروى مسلم في صحيحه، في كتاب الطهارة في الوضوء بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ترد عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله... وليصدّن عني طائفة

(١) غرلاً: جمع الأغرل، ورجل غرل: مسترخي الخلق، لسان العرب، ابن منظور: ج١١ ص ٤٩٠.
(٢) الأنبياء: ١٠٤.
(٣) صحيح البخاري: ج٣ ص٢٢٨ – ٢٢٩ ح ٤٧٤٠، كتاب التفسير، (كما بدأنا أول الخلق نعيده).
(٤) المصدر نفسه: ج٤ ص٣٣٤ ح٧٠٤٩؛ كتاب الفتن، باب ما جاء في قوله تعالى: (وتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة)
(٥) صحيح البخاري: ج٤ ص٣٣٤ ح ٧٠٥٠، ح ٧٠٥١، كتاب الفتن، باب ما جاء في قوله تعالى: (وتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة).

منكم فلا يصلون، فأقول: يا ربّ! هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك، فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟»[(١)].

وروى مسلم أيضاً، عن أنس بن مالك، قال: إنّ النبيﷺ قال:«ليردنّ عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم، ورفعوا إليّ، اختلجوا دوني، فلأقولنّ: أي ربّ أصيحابي أصيحابي، فليقالنَّ لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٢)].

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره بسنده عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾[(٣)]، لقد كفر أقوام بعد إيمانهم كما تسمعون، ولقد ذكر لنا أن نبي الله كان يقول:«والذي نفس محمد بيده، ليردنّ عليّ الحوض ممن صحبني أقوام، حتى إذا رفعوا إليّ ورأيتهم اختلجوا دوني، فلأقولن: ربّ أصحابي أصحابي، فليقالنّ: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٤)].

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، قال:«... وكان يقال: أطوع الناس في قومه الجارود بن بشر بن المعلّى، لما قبض رسول اللهﷺ فارتدت العرب، خطب قومه فقال: أيها الناس، إن كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت...»[(٥)]. وقد أنبأ رسول اللهﷺ علياًعليه السلام بذلك الارتداد

(١) صحيح مسلم، محمد بن مسلم النيسابوري: ج١ ص٢١٧ ح٢٤٧، كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتجميل في الوضوء.
(٢) صحيح مسلم، النيسابوري: ج١ ص١٨٠٠ ح٢٣٠٤، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبيﷺ.
(٣) آل عمران: ١٠٦.
(٤) جامع البيان، الطبري: ج٤ ص٥٥.
(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٨ ص٥٧.

وغدر الأمة له، حيث قال ﷺ: «إن الأمة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على ملتي وتقتل على سنتي، من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني، وإن هذه ستخضب»[١]، وسنده صحيح ولم يتكلموا فيه إلا من جهة ثعلبة بن يزيد الحماني ولكن قال النسائي فيه: أنه «ثقة»[٢] وقال ابن عدي: «لم أر له حديثاً منكراً»[٣] وقال ابن حجر: «صدوق شيعي»[٤] وقال الحاكم فيه: «صحيح»[٥].

وأخرج الحاكم في المستدرك، عن علي عليه السلام أنه قال: «إنّ مما عهد لي النبي إنّ الأمة ستغدر بي بعده»[٦]. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

والحاصل أن الانقلاب والزيغ عن جادة الصواب في أمر الخلافة مما تنبأ به القرآن والرسول الأكرم ﷺ.

وبعد هذا كلّه، كيف يستغرب في عصيان الصحابة، ومخالفتهم في أمر الخلافة والإمامة التي هي من أصعب المنعطفات التي مرّت بها الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول الأكرم، كما عبّر عن ذلك الشهرستاني في

(١) التاريخ الكبير: البخاري: ج٢ ص١٧٤ ح٢١٠٣؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٤٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٤٤ - ٣٦٠؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٤ ص٣٩٩؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١١ ص٢١٦ ح٥٩٢٨؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١١ ص٢٩٧ ح٣١٥٦٢.

(٢) ميزان الاعتدال، الذهبي: ج١ ص٣٧١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تهذيب الكمال، المزي: ج٤ ص٣٩٩.

(٥) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٣.

(٦) المصدر نفسه: ج٣ ص١٤٠؛ وجاء بهذا اللفظ في مجمع الزوائد: ج٩ ص١٣٧.

كتابه (الملل والنحل) بقوله:«ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان»[(١)].

الخلاصة

إنّ انحراف الناس عن الأنبياء عليهم السلام في الأمم السابقة أمر معهود في التاريخ، كما يحدثنا القرآن الكريم والتاريخ بذلك، وعلى هذا الضوء فإن الأمة الإسلامية لم يستثنها الله تعالى من باقي الأمم التي يجمعها قاسم مشترك، وهو طبيعة النفس الإنسانية وميلها للشهوات والأطماع، لاسيما وأن الرسول صلى الله عليه وآله نصّ وأكّد على أن الأمة الإسلامية تحذو حذو هذه الأمم السابقة في كل شيء.

ومن هنا فعدول الصحابة عن وصية نبيهم صلى الله عليه وآله أمر لا يخرج عن الأسباب التي دفعت الأمم السابقة بالعدول عن أنبيائهم، ويمكن إجمال خلفيات عدول الصحابة فيما يلي:

١- طبيعة قريش وما تحمله من تطلع نحو الزعامة والملك والسلطان.

٢- وجود عدد كبير من المنافقين ومرضى القلوب في صفوف المسلمين.

٣- التنافس والنزاع بين القبائل كما هو الحال بين قبيلتي الأوس والخزرج.

٤- التناحر والتحاسد بين المهاجرين والأنصار.

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني: ج١ ص٢٠.

٥- سياسة الإرهاب في السقيفة.

٦- تجاسر الصحابة على رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أحصى التاريخ عدداً وافراً من المخالفات للرسول صلى الله عليه وآله منها:

أ - مخالفة أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله عند فرارهم في معركة أُحد.

ب - عصيانهم لله ورسوله بفرارهم من الزحف كما في يوم حنين.

ج - اعتراض الصحابة على الرسول صلى الله عليه وآله في الحديبية، حيث أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالنحر فاعترضوا عليه ولم يقم منهم أحد.

د - الإشفاق من التصدق عندما أمر الله تعالى بتقديم صدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله فتركوا مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله خشية من دفع الصدقة.

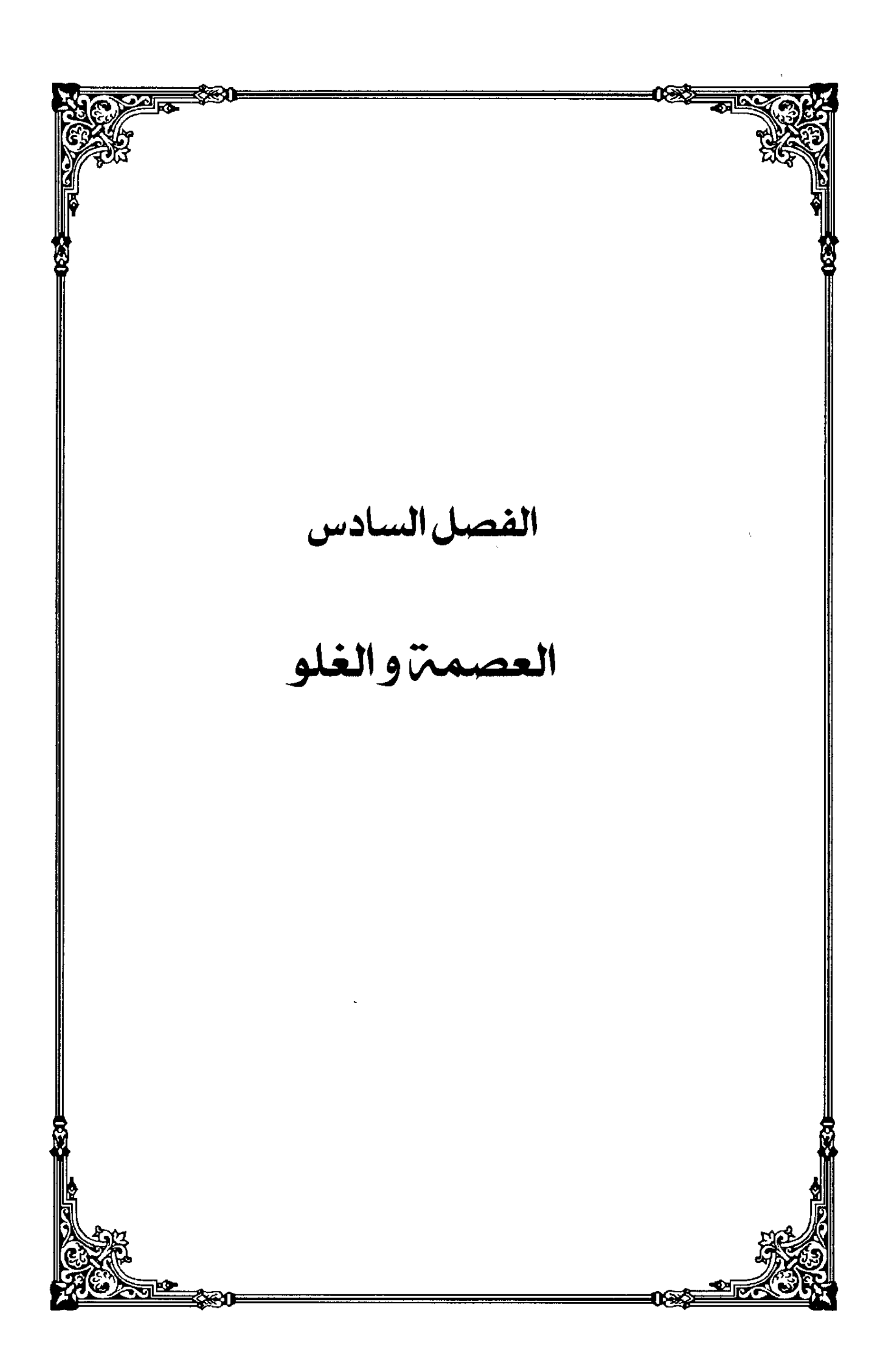
هـ - تخلف القوم عن الالتحاق بجيش إسامة الذي أمرهم الرسول صلى الله عليه وآله بإنفاذه.

٧- إنّ ارتداد الصحابة قد أنبأنا به القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

بالإضافة إلى إنباء رسول الله صلى الله عليه وآله في روايات مستفيضة بارتداد بعض أصحابة.

---

(١) آل عمران: ١٤٤.



الفصل السادس

العصمة والغلو

العصمة والغلو

الشبهة:

عصمة أهل البيت من أبرز مظاهر الغلو.

الجواب:

لكي تتضح عصمة أهل البيت عليهم السلام بشكل واضح، ينبغي أن نقف قليلاً لنفهم معنى وحقيقة العصمة، فنقول:

العصمة لغة:

العصمة: هي المنع والوقاية، قال في القاموس:«اعصم، يعصم: اكتسب ومنع، ووقى... والعصمة بالكسر المنع..»[1].

وجاء في كتاب العين:«أن يعصمك الله من الشر، أي: يدفع عنك. واعتصمت بالله، أي: امتنعت به من الشر. واستعصمت، أي: أبيت. وأعصمت، أي: لجأت إلى شيء اعتصمت به»[2].

وقال في لسان العرب:«العصمة في كلام العرب: المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه، وفي التنزيل: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، أي لا معصوم إلا المرحوم»[3].

وجاء في مختار الصحاح:«ع ص م العصمة المنع يقال عصمه الطعام،

---

(١) القاموس، الفيروز آبادي: ج٤ ص١٥١.

(٢) كتاب العين، الخليل أحمد الفراهيدي: ج١ ص ٣١٣.

(٣) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٢ ص ٤٠٣.

أي منعه من الجوع، والعصمة أيضاً الحفظ، وقد عصمه يعصمه بالكسر عصمة فانعصم واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية»[(١)].

العصمة اصطلاحا:

لا يختلف معنى العصمة اصطلاحاً عن المعنى اللغوي إلا في خصوصيات مصداق العصمة الشرعية من أجزاء وشرائط مرتبطة بالأفراد المعصومين، فالعصمة لدى الأنبياء والرسل والأولياء والأئمة عليهم السلام تعني المنع من ارتكاب المعصية والوقاية من كل رجس، فلابد أن نعرف أسباب هذا المنع وموجبات هذه الوقاية.

منشأ العصمة:

إنّ الأساس الذي تعتمد عليه العصمة هو العلم، وهذا الضرب من العلم ليس من سنخ العلم العادي الموجود عند جميع أفراد البشر على السواء، والذي يسمى في الاصطلاح العلمي بالعلم الحصولي، وهو الذي أشارت إليه الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٢)] وهذا النوع من العلم موجود عند كل إنسان سواء كان فاسقاً فاجراً أم مؤمناً عادلاً.

وقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة العلم الذي يكون منشأ للعصمة في موارد متعددة:

١- قوله تعالى في حكايته عن النبي يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

(١) مختار الصحاح، محمد بن عبد القادر: ص ٢٣٠.
(٢) النحل: ٧٨.

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

فالآية تؤكّد بكل صراحة أن الذي يصبو إلى المعصية هو الجاهل الذي يقوده هوى النفس إلى ارتكاب ما حرمه الله تعالى.

فإذا كان الجهل هو الذي يقود إلى المعصية فالعلم هو المانع والحائل عن المعصية، ولذلك قال عليه السلام ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولم يقل: (وأكن من الظالمين) كما قال لامرأة العزيز: إنه لا يفلح الظالمون أو أكن من الخائنين، وكما قال للملك: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

فالنبي يوسف عليه السلام فرق في الخطاب بينه وبين امرأة العزيز والملك من جهة، وبينه وبين ربه من جهة أُخرى، فخاطب امرأة العزيز والملك (بالظلم، والخيانة)، وأن الظالم لا يفلح، والله لا يهدي كيد الخائنين، وخاطب ربه تعالى بخطاب آخر وهو أن الصبوة إليهن من الجهل.

فيتضح من هذه الآية أن منشأ العصمة هو العلم.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2].

وهذه الآية واضحة الدلالة على أن المنشأ الرئيس للعصمة هو العلم الذي أنعم الله به على الأنبياء عليهم السلام، فالآية أشارت إلى أن المنافقين لا يتمكنون من إضلال النبي صلى الله عليه وآله أو التأثير عليه وذلك لما منحه الله تعالى من

(١) يوسف: ٣٣.

(٢) النساء: ١١٣.

قدرات علمية خاصة جعلته في حصانة تامة من الضلال؛ ولذا يقول الفخر الرازي في صدر تفسيره للآية: «وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب»[١].

وهذا بدوره يكشف عن سر تركيز القرآن الكريم وتأكيده على أهمية العلم الذي يحمله الأنبياء عليهم السلام، وهو العلم الذي يحمل في طياته خصائص ومميزات عديدة تؤهل الإنسان لأن يكون نبياً مرسلاً من الله تبارك وتعالى. قال تعالى حكاية عن النبي يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[٣].

أمّا حقيقة هذا العلم - كما ستأتي الإشارة إليه في مبحث علم الإمام - هو سنخ علم ليس كالعلوم التي يتعلمها الناس، وإنما هو علم يلقيه الله تعالى على قلب من يشاء، وهو من سنخ العلم الذي كان وصي سليمان (آصف بن برخيا) يتصرف في التكوين بواسطته، مع أنه كان عنده بعض هذا العلم لا كلّه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[٤].

ومن الواضح أنه تعالى قال: ﴿عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ فإن «من» تفيد التبعيض، وبهذا البعض من العلم استطاع نقل عرش بلقيس من مملكتها إلى مقام سليمان في لحظة واحدة.

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي: مج٦، ج١١ ص٤٠.
(٢) يوسف:٢٢.
(٣) النمل: ١٥.
(٤) النمل:٤٠.

وعلى هذا الأساس، فإن هذا السنخ من العلم كلّه موجود عند أهل البيت وسنشير إلى جملة من الشواهد الروائية التي تثبت ذلك في مبحث (علم الإمام)، ونكتفي هنا بالإشارة لروايتين فقط.

الرواية الأولى: أخرج القندوزي الحنفي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «علم الكتاب والله عندنا وما أعطي وزير سليمان بن داود، إنما عنده حرف واحد من الاسم الأعظم، وعلم بعض الكتاب كان عنده... وقال في علي عليه السلام ومن عنده علم الكتاب وعلم بعض الكتاب سماه عنده الكتاب»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً عن آبائه عليهم السلام أنّه قال: «ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا»[2].

الرواية الثانية: ما أخرجه ابن المغازلي عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أعطينا أهل البيت سبعةً لم يُعْطَها أحدٌ قبلنا، ولا يعطاها أحدٌ بعدنا: الصباحة والفصاحة والسماحة والشجاعة والحلم والعلم والمحبة من النساء»[3].

إذن هذا العلم الخاص إفاضة منه تعالى لأهل البيت عليهم السلام وهو منشأ عصمتهم، مضافاً إلى إلى جملة وافرة من الأدلة العقلية والنقلية الدالة على عصمتهم عليهم السلام.

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٣٠٦.
(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١ ص٢٦٧؛ جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل علي بن أبي طالب: أحمد بن محمد الدمشقي الشافعي: ج١ ص٣٤٣؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٨٠؛ ج٣ ص٤٠٨.
(٣) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن المغازلي: ص٢٩٥، ط٢.

الدليل العقلي على عصمة أهل البيت عليهم السلام

تقدم سابقاً أن الإمامة متممة للنبوة في مجال الدين بمعنى أنها واجبة لأداء وظيفة النبي صلى الله عليه وآله في بيانه لأحكام الدين والعمل لهداية الناس إلى مصالحهم الواقعية وتزكية الناس وتربيتهم على الكمال اللائق بهم وحفظ التشريع عن التحريف والزيادة والنقصان.

وعلى هذا يعود الدليل الدال على عصمة النبي صلى الله عليه وآله بعينه ليكون دليلاً على وجوب عصمة الإمام.

فالدليل العقلي القائم على عصمة النبي، من أنه لو جاز على النبي صلى الله عليه وآله الخطأ والمعصية، مع أن الله تعالى أمر باتباعه والاقتداء به والانصياع والطاعة لإوامره، فإن هذا يعني أن الله تعالى جوز لنا ارتكاب المعصية والخطأ الذي يصدر من النبي، وهذا محال لأن الله تعالى لا يأمر بالمعصية والانحراف عن المسار الصحيح الذي رسمه للبشرية.

إذن بالنظر إلى موقعية الإمام من الدين وكونه حافظاً للشريعة وقيّماً عليها لابد من القول بعصمته، كما هو الحال بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله، فحيث لا يخامرنا الشك بعصمة النبي صلى الله عليه وآله وأنها أمر واضح، وخلافها لا ينسجم مع الحكمة الإلهية، فكذلك الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله للسبب ذاته.

وبذلك يتضح ضرورة عصمة الأئمة عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وأنها واجبة كعصمة النبي صلى الله عليه وآله.

مضافاً إلى أنه لو افترضنا إمكان صدور الخطأ أو الوقوع في الذنب من النبي أو الإمام فإن هذا بدوره يؤدي إلى إنكار الآخرين عليه ونفورهم

منه، وهو أمر ينافي ويضادد ما أمر الله تعالى به من طاعته، وبالتالي يؤدي الإنكار عليه إلى تفويت غرض الله تعالى من وصول الناس إلى كمالهم المرسوم، الناتج عن طاعتهم للنبي أو الإمام.

الأدلة القرآنية على عصمة الأئمة عليهم السلام

يطالعنا القرآن الكريم بعدة من الآيات الصريحة الدالة على عصمة الأئمة عليهم السلام:

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(١).

بيان الاستدلال:

لا ريب أن الظالم في منطق الشريعة هو كل مَن يعصي الله تعالى، لأنه ظالم لنفسه على أقل تقدير، أما العهد في الآية المباركة فالمراد منه الإمامة، بقرينه قوله تعالى في نفس الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فالظالم المرتكب للمعصية في أي فترة من فترات حياته لا يمكن أن يكون إماماً.

وربّما يُعترض على ذلك بالقول: إنّ الإنسان قد يرتكب في شوط من أشواط حياته معصية ما، وقد يكون ظالماً لنفسه في مرتبة من مراتب عمره ثم يتوب، فما المانع من أن يشمله اللطف الإلهي بالإمامة؟

والجواب عن ذلك بالبيان التالي:

يمكننا تصنيف الناس إلى أربعة أصناف لا خامس لها:

---

(١) البقرة: ١٢٤.

الصنف الأول: مَن كان ظالماً من أول عمره إلى آخره.

الصنف الثاني: مَن كان ظالماً في بداية عمره فحسب، وكان تائباً مؤمناً في أواخر حياته.

الصنف الثالث: مَن كان مؤمناً أول عمره، ظالماً في آخره.

الصنف الرابع: مَن كان في كل مراحل حياته مؤمناً من أولها إلى آخرها.

وبالعودة إلى إبراهيم ودعائه وطلبه الإمامة لذريته نجد أنه من غير المعقول أن يطلب الإمامة لمن كان ظالماً في جميع عمره أو ظالماً آخر عمره وإن كان في أوله مؤمناً، وهذا واضح.

إذن يبقى الصنف الثاني والثالث هما اللذان طلب إبراهيم عليه السلام لهما الإمامة، وقد نص الله تعالى في الآية المباركة على أن العهد والإمامة لا ينالها الظالم، وينحصر المقصود بالظالم لا محالة بالصنف الثاني، وهو من يكون ظالماً في بداية عمره فحسب، وتائباً في آخر حياته.

وحينئذ يبقى الصنف الرابع وهو من كان مؤمناً في طول حياته، وهو المعصوم عن الخطأ.

لاسيما مع الالتفات إلى أن النبي إبراهيم من أنبياء أولي العزم، وقد تحدث القرآن الكريم عن خلقه وأدبه مع الله تعالى في الطلب والمسألة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) التوبة: ١٤.

فالنبي إبراهيم عليه السلام تبرأ من عمه آزر بعد اطلاعه وعلمه بأنه عدو لله.

إذن إبراهيم عليه السلام يتبرأ من كل عدو وعاص لله تعالى، لأن العاصي هو عدو لله بمرتبة من المراتب، وعلى هذا الأساس فإن كل ظالم لنفسه ولو مرة واحدة في حياته يخرج عن محوطة دعاء إبراهيم عليه السلام له، بعد أن أعلمه الله تعالى بأن هذا الصنف غير مستحق لعهد الإمامة، وبذلك يخرج كل مَن كان ظالماً لنفسه في أي مقطع من مقاطع حياته، فيبقى القسم الرابع وهو من كان غير ظالم من أول عمره إلى آخره.

إذن الآية الشريفة تدل بكل وضوح على عصمة كل مَن ينال ويستحق مقام الإمامة منذ اليوم الأول، فلابد أن يكون الإمام معصوماً قبل الإمامة وبعدها.

وبذلك تدل الآية المباركة على عصمة أهل البيت عليهم السلام، بعد ثبوت إمامتهم للأمة بالأدلة القرآنية والروائية المذكورة في محلّها.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] وهذه الآية المباركة تبين كيفية تعلق إرادة الله تعالى بإذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام وأن يكونوا مطهرين معصومين، ولما كانت إرادة الله تعالى لا تنفك عن مراده سبحانه فإن الذي أراده الله تعالى وهو تطهير أهل البيت عليهم السلام واقع لا محالة.

وقد نوقش الإستدلال بالآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ...﴾ فإنه إما يقصد الإرادة التشريعية وهي تتخلف عن المراد، مضافاً لعدم اختصاصها

(١) الأحزاب: ٣٣.

بأهل البيت عليهم السلام، حيث أن الله تعالى أراد من الناس كافة أن يطّهروا بأن يكونوا طائعين مهتدين سائرين في طريق الكمال، ونهاهم عن الرجس وارتكاب المحرمات كشرب الخمر والفسق والفجور وغيرها، فهذه الإرادة التشريعية تعلقت بكل البشرية ولا خصوصية لها بأهل البيت عليهم السلام.

وإما أن تكون تلك الإرادة تكوينية وقد تعلقت بطهارة أهل البيت عليهم السلام فهذا يعني أنهم مطهرون جزماً، إذ يستحيل أن تتخلف إرادة الله التكوينية عن المراد، لكن الملاحظة التي تقف بوجه هذا التقريب من الإستدلال، هي أن هذا هو الجبر بعينه وأن أهل البيت عليهم السلام مجبورون عن الابتعاد عن الرجس بإرادة الله التكوينية التي لا تتخلف عن المراد، وهذا يعني أن عصمة أهل البيت عليهم السلام ليست شرفاً أو مدحاً لهم؛ لأن العصمة لم تكن باختيارهم.

والجواب على ذلك سيأتي مفصلاً في مبحث علم الإمام بالغيب، إلاّ إنه يمكننا أن نكتفي بالإشارة المفهمة للجواب، فنقول: حيث إن الله تعالى عالم بكل شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم بأفعال عبيده قبل خلقهم ويعلم ما يصدر من الإنسان قبل أن يخلقه، ومحيط بما هو صائر إليه.

وعلى هذا الأساس: فإن الله تعالى لمّا علم من هؤلاء النفر وهم أهل البيت عليهم السلام بأنهم لا يريدون لأنفسهم إلاّ الطاعة المطلقة لله سبحانه أعانهم على ذلك، وأراد لهم من الطهارة ما يتناسب مع ما علمه من إرادتهم؛ لأنه علم منهم أنهم لا يريدون لأنفسهم إلاّ الطاعة، فلم تتعلق إرادته التكوينية بعصمتهم إلا بعد العلم بأنهم سوف لا يكون لهم هَمٌّ إلاّ الطاعة والعبودية.

وقد ركزت الآيات القرآنية على هذه الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء﴾[١] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٣]، وهكذا قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٤].

إذن فالمسألة لا ترجع إلى اختيار جزافي بل تتحرك في إطار هادف، وعلمه تعالى بهم صار منشأً لهذه الإرادة التكوينية، وبذلك يتبين عدم التنافي بين كون الله تعالى علم منهم أنهم يريدون طاعة الله باختيارهم، وبين تعلق إرادته عزّ وجلّ التكوينية بتطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، النابع عن ذلك الاختيار بعد علم الله تعالى به، ويمكن استظهار ما ذكرناه من الآية ذاتها، حيث إنها عبرت بـ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾ ومن الواضح أن الفعل المضارع دالّ على الاستمرارية، أي أن النفر والأشخاص الذين أخبرت الآية عن عصمتهم متصفون بهذه الصفة على الدوام والاستمرار، وهذا لا ينطبق إلاّ على العترة خاصة دون سواهم، مع مطابقة ذلك التسديد الإلهي لما يريدونه من الطهارة حيناً فحيناً.

فالآية المباركة تدل على عصمة أهل البيت عليهم السلام، وقد تقدم[٥] ما يدل على عدم مشاركة غير أهل البيت في الآية الشريفة، وهنالك قرائن قطعية

(١) الإسراء: ٢٠.
(٢) الحجر: ٢١.
(٣) الرعد: ١٧.
(٤) الإنسان: ٣.
(٥) راجع: بحث آية التطهير السابق عند ردّ شمولها لبني هاشم عامة.

وشواهد روائية صريحة تؤكد على انحصار هذه الآية الشريفة بأهل البيت عليهم السلام.

منها مثلاً اهتمام وحرص الرسول صلى الله عليه وآله على تشخيص عنوان أهل البيت عليهم السلام بالعترة الطاهرة والمنع من استعمال هذه الكلمة في غير عترته عليهم السلام وإدخال المسيء فيهم، وقد جاء ذلك في روايات كثيرة، منها:

ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ادعوا لي، ادعوا لي، فقالت صفية: من؟ قال صلى الله عليه وآله: أهل بيتي علياً وفاطمة والحسن والحسين، فجيء بهم فألقى عليهم النبي صلى الله عليه وآله كساءه، ثم رفع يديه، ثم قال: اللهم هؤلاء آلي فصلّي على محمد وعلى آل محمد، وأنزل الله عز وجلّ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»(١)، ثم يؤكد صلى الله عليه وآله هذا الحصر والتشخيص بقوله: «اللهم هؤلاء آلي فصل على محمد وآل محمد»، فنزّل الله تعالى فيهم قرآناً محكماً، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ولا يخفى ما في هذه الكلمة «اللهم هؤلاء آلي» من الدلالة على حصر أهل البيت.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٨ والآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

الأدلة الروائية

أولا: حديث الثقلين

عن رسول الله ﷺ قال:«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي...»[١]، وأول سؤال يطالعنا في هذا المجال: هل صدر هذا الحديث عن النبي ﷺ أم لا؟

والجواب: إنّ هذا الحديث مما لا شك في صدوره عن النبي ﷺ، وقد نقله أهل السنة، وروه في كتبهم أكثر من نقل الشيعة له.

وهذا الحديث وإن قيل إنه صدر بصيغة «وسنتي بدل وعترتي» إلاّ انه لا تنافي بينهما؛ لأن العترة هي في موقع بيان السنة، فالعترة هي المبيّن الواقعي للسنة، وإنّ السنة بتمامها لدى العترة، وفحوى «كتاب الله وعترتي» يتمثل بوجوب تلقيّنا السنة عن العترة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه إذا كان الرسول ﷺ قد صرح بعبارة «وسنتي» في موطن واحد فإنه قد نطق بصيغة «كتاب الله وعترتي» في مواطن متعددة ومتواترة[٢].

---

(١) المعجم الكبير، الطبري: ج٥ ص ١٧٠ ص١٨٦؛ تفسير ابن كثير: ج٤ ص١٢٢؛ قال فيه: (وثبت في الصحيح إن الرسول الله ﷺ قال في خطبة بغدير... (الحديث)، ونحوه صحيح مسلم: ج٤ ص١٨٧٣؛ ونحوه مجمع الزوائد:ج٩ ص١٦٢ – ١٦٣، وقال فيه: (رواه أحمد وإسناده جيد)؛ الصواعق المحرقة: ص٣٤١، ونحوه صحيح الترمذي: ج٥ ص٣٢٩؛ ونحوه السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٤٥.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني: ج٥ ص ١٧٠ وص١٨٦؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٤٥ وص ١٣٠ وغيرها من المصادر.

دلالة الحديث على عصمة أهل البيت عليهم السلام

فمن الملاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله قد حثّ أمته على الالتزام والتمسك بالثقلين، وأخذ دينهم من هذين المصدرين «الكتاب والعترة»، فكما أن القرآن معصوم عن الزيغ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه –بلا خلاف في ذلك– كذلك يكون العدل الآخر له معصوماً أيضاً؛ لأنه من المحال أن يدعو النبي صلى الله عليه وآله إلى أخذ الدين من مرجع بشكل حاسم، ثم يتخلل الخطأ والسهو والزيغ بعض كلام ذلك المرجع.

فالعترة مرجع إلهي عيّنه الله تعالى لهذا الموقع إلى جوار القرآن الكريم بالنحو الذي لا يمكن الأخذ بأحدهما دون الآخر، وإلاّ سوف ينتهي الأخذ بأحدهما دون الآخر إلى الضلال.

وعليه فإنه من المحال أن يدعو الله تعالى ورسوله إلى مصدر ومرجع في حال يمكن فيه المعصية والخطأ والاشتباه؛ لأن ذلك يعني تجويز الله سبحانه وتعالى المعصية والخطأ، وهو أمر مستحيل، وعلى هذا الأساس يتعين القول بعصمة أهل البيت عليهم السلام.

ثانيا: النص على العصمة والطهارة

كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: **«أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون»**[1].

وهو صريح الدلالة في إثبات العصمة لأهل البيت عليهم السلام.

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص٣١٦ وج٣ ص٢٩١ وص٣٨٤.

ثالثا: طاعتهم طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصا الله ومَن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن عصا علياً فقد عصاني»[1].

ومن مميزات هذا الحديث أن الذهبي الذي هو إمام النقد والتجريح عند السنة والذي عمل كل ما يستطيع لإسقاط عمدة أحاديث فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، قد صحح هذا الحديث، ففي هذا الحديث النبوي الكريم أصل وفرع، وشجرة وثمرة فالأصل والشجرة هو النبي صلى الله عليه وآله والفرع هو علي عليه السلام، وهذا الحديث واضح الدلالة في عصمة الإمام علي عليه السلام؛ لأنه يدل على أن إرادة علي عليه السلام لا يمكن أن تتخلف عن إرادة الله تعالى، ولا تتخلف كراهته عن كراهة الله تعالى، ولو أمكن أن تتخلف لكان قوله: «ومَن أطاعه فقد أطاع الله» خطأً واشتباهاً، والعياذ بالله.

وحيث تثبت عصمة الإمام علي عليه السلام تثبت عصمة بقية أهل البيت عليهم السلام لأنهم نور واحد وورثة رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفاؤه كما هو واضح.

ثم إنه بعد ثبوت العصمة لأهل البيت عليهم السلام في العقل والقرآن والسنة لا يبقى مجال لدعوى الغلو في مبدأ العصمة أهل البيت عليهم السلام.

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج ٣ص ١٢١؛ وقال فيه: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

الخلاصة:

إنّ عصمة أهل البيت عليهم السلام أمر لا يمكن التردد فيه بعد الوقوف على حقيقة العصمة والأدلة القرآنية والروائية.

فالعصمة لغةً: المنع والوقاية أي أن العصمة ملكة تمنع صاحبها من ارتكاب المعصية وهذا هو المعنى الاصطلاحي للعصمة.

منشأ العصمة

إنّ منشأ العصمة هو العلم، إلا أنه ليس العلم العادي الموجود عند جميع أفراد البشر المسمّى بالعلم الحصولي، بل هو سنخ علم خاص يفيضه الله تعالى على قلب من يشاء من عباده، وقد أشارت إلى هذا النمط من العلم عدة من الآيات القرآنية، كما هو الحال في قضية وصي سليمان آصف بن برخيا، الذي تمكن من نقل عرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس بأقل من طرفة عين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[1].

ولا ريب أن هذا السنخ من العلم، هو في صدور أهل البيت عليهم السلام، وقد تقدمت عدة شواهد وأدلة على ذلك.

إذن منشأ وسبب العصمة إنما هو العلم الخاص الذي عند أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) النمل: ٤٠.

الدليل العقلي على عصمة أهل البيت عليهم السلام

إنّ الدليل القائم على عصمة النبي صلى الله عليه وآله هو بعينه يكون دليلاً على عصمة خلفاء النبي وهم أهل البيت عليهم السلام، وذلك لأن خطورة دور الإمام وكونه حافظاً للشريعة وقيّما عليها يوازي خطورة الدور النبوي، فلو كان الإمام غير معصوم ويخطأ ويعصي مع أن الله تعالى ورسوله أمرنا باتباعه فهذا يعني تجوير الله لنا بارتكاب المعصية، وهو محال.

الأدلة القرآنية على عصمة الأئمة عليهم السلام

هنالك عدة آيات قرآنية يستدل بها على العصمة:

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ....﴾[1].

فالآية المباركة تدل بكل وضوح على أن من ينال منصب الإمامة لابد أن يكون معصوماً قبل تقلد الإمامة.

كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ...﴾ التي لا يشك في اختصاصها بأهل البيت عليهم السلام.

الأدلة الروائية على عصمة أهل البيت عليهم السلام

منها: حديث الثقلين:«**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي**».

حيث أكد الرسول صلى الله عليه وآله على لزوم التمسك بالكتاب والعترة على هذا الأساس، فلو لم تكن العترة معصومة، لا يمكن أن يأمر الرسول بلزوم اتباعها، مضافاً إلى عدة أحاديث أُخرى.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

مقام الوصي

الشبهة:

إنّ منزلة الوصي عند الشيعة تعادل منزلة النبي ﷺ، وإن الوصي يوحى إليه.

الجواب:

يجدر بالقارئ الكريم أن يلتفت إلى أن صاحب هذه الشبهة يحاول أن ينسب إلى الشيعة أمرين:

الأول: أن الأوصياء أنبياء.

الثاني: أن الأوصياء يوحى إليهم.

وينتج عن ذلك هو توريط الشيعة الاثني عشرية واتهامهم بفكرة الغلو، وبالتالي ارتباطهم بالسبئية، إلاّ أن هذا باطل وغير صحيح، وسوف نتناول ذلك إجمالاً، فنقول:

أولاً: لو أُريد من كون الأوصياء بمنزلة الأنبياء أنهم أنبياء، فهذا ما لا نريده، ولم يدون في كتاب من كتب الشيعة، ولذا روى الفريقان عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»**[1]، فالرسول الأكرم في هذا الحديث جعل الإمام علياً عليه السلام

---

(١) صحيح مسلم: ج٤ ص١٨٧٠ – ١٨٧١ باب فضائل علي عليه السلام، المعجم الكبير، الطبراني: ج٦ ص١٤٨؛ الثقات، ابن حبان: ج١ ص١٤٢، المناقب، الخورازمي: ص١٥٢؛ ونحوه الدر المنثور، السيوطي: ج٤ ص٣٢٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢٠ ص٣٦٠ وج٢١ ص٤١٥ و ج٤٢ ص٥٣؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص١٦ وص٣٧١؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١٠٩؛ سنن الترمذي، الترمذي: ج٥ ص٣٠٤؛ المعجم الصغير، الطبراني: ج٢ ص٥٤؛ المعجم الأوسط، الطبراني: ج٦ ص٧٧؛ المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٠٩؛ ونحوه السنن الكبرى،

بمنزلة هارون ـ الذي هو نبي من الأنبياء ـ من موسى على أنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا يكشف عن أنّ التنزيل بحدّ ذاته لا يعني التنزيل من جميع الجهات حتى من جانب النبوة، كما أكّد على ذلك الأئمة عليهم السلام:

١- قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إنما الوقوف علينا في الحلال فأما النبوة فلا»[1].

٢- وعن بريد بن معاوية عن أحدهما - أبي جعفر وأبي عبد الله- (عليهما السلام)، قال: «قلت له: ما منزلتكم؟ ومن تشبهون ممن مضى؟ قال: صاحب موسى وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين»[2].

٣- كذلك عن سدير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «...وعندنا قوم يزعمون أنكم رسل يقرؤون علينا بذلك قرآنا ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، فقال: يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، وبرئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلاّ وهو ساخط عليهم، قال: قلت: فما أنتم؟ قال: نحن خزان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قوم معصومون أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا، ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض»[3].

٤- عن محمد بن مسلم قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: الأئمة بمنزلة

البيهقي: ج٩ ص٤٠؛ شرح صحيح مسلم، النووي: ج١٥ ص١٧٤؛ مسند الطيالسي: ص٢٩؛ مسند ابن راهويه: ج٥ ص٣٧؛ مسند أبي يعلى: ج٢ ص٦٦ وص١٣٢؛ وغيرها من المصادر.

(١) الكافي، الكليني: ج١ ص٢٦٨.
(٢) الكافي، الكليني: ج١ ص٢٦٩.
(٣) الكافي، الكليني: ج١ ص٢٦٩.

رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أنهم ليسوا بأنبياء، ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي صلى الله عليه وآله، فأما ماخلا ذلك فهم فيه بمنزلة رسول صلى الله عليه وآله»[١].

٥- عن أبي أيوب بن الحر، قال: «سمعت أبا عبد الله يقول: إن الله عزَّ ذكره ختم بنبيكم النبيين، فلا نبيّ بعده أبداً، وختم بكتابكم الكتب، فلا كتاب بعده أبداً، وأنزل فيه تبيان كل شيء»[٢].

ثم كيف يدعي الشيعة أن الأئمة أنبياء، أو أنهم يوحى إليهم، وهم يرتلون القرآن بكرة وعشياً: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٣].

أقوال علماء الشيعة

وقال الشيخ المفيد: «فإن قيل: هل علمتم من دينه أنه خاتم الأنبياء أم لا؟

فالجواب: علمنا ذلك من دينه صلى الله عليه وآله.

فإن قيل: بما علمتموه؟.

فالجواب: علمنا ذلك بالقرآن والحديث، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، وأما الحديث فقوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام:

---

(١) الكافي، الكليني: ج١ ص ٢٧٠.
(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٢٦٩.
(٣) الأحزاب: آية ٤٠.

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»(١).

قال الشيخ الطوسي رحمه الله: «مسألة: نبينا محمد صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء والرسل بدليل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّـهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾»(٢).

وقال القاضي ابن براج: «مسألة: نبينا خاتم النبيين والمرسلين بمعنى أنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾»(٣).

واستدل بذلك أيضاً علي بن يونس العاملي في كتابه الصراط المستقيم(٤)، وقال الشيخ الطوسي في تفسير هذه الآية ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: «آخرهم؛ لأنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة»(٥).

وقال الشيخ الطبرسي: «﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: وآخر النبيين ختمت النبوة به، فشريعته باقية إلى يوم الدين، وهذا فضيلة له صلى الله عليه وآله اختص بها من بين سائر المرسلين»(٦).

وأقوال علمائنا في ذلك كثيرة جداً فوق حدّ الإحصاء.

(١) النكت الاعتقادية، المفيد: ص٣٨.
(٢) الرسائل العشر، الطوسي: ص٩٧.
(٣) جواهر الفقه، ابن البراج: ص٢٤٨.
(٤) الصراط المستقيم، علي بن يونس العاملي: ج١ ص٦١.
(٥) التبيان، الطوسي: ج٨ ص٣٤٦.
(٦) مجمع البيان، الطبرسي: ج٨ ص١٦٦.

الوحي انقطع بموت النبي صلى الله عليه وآله

أما بالنسبة إلى الوحي فإنه انقطع بموت النبي صلى الله عليه وآله، وهذا يعد من الضروريات والبديهات في مذهب أهل البيت عليهم السلام، ولو تصفحنا سريعاً ما ورد في الكتب الروائية الشيعية لوجدناها زاخرة بهذا المعنى.

فمن باب المثال لا الحصر ما جاء في «الوسائل» عن أبي أيوب الخراز أنه قال: «أردنا أن نخرج فجئنا نسلم على أبي عبد الله عليه السلام، فقال: كأنكم طلبتم بركة الإثنين؟ قلنا: نعم، قال: فأي يوم أعظم شؤماً من يوم الأثنين، فقدنا فيه نبينا صلى الله عليه وآله وارتفع الوحي عنا»(١).

وعن أبي عبد الله بن أبي الكرام قال: تهيأت للخروج إلى العراق، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام لأسلّم عليه وأودّعه، فقال: «أين تريد؟ قلتُ: أُريد إلى العراق، فقال لي: في هذا اليوم ـ وكان يوم الإثنين ـ؟ فقلتُ: إنّ هذا اليوم يقول الناس: أنه يوم مبارك فيه ولد النبي صلى الله عليه وآله، فقال: والله ما يعلمون أي يوم ولد فيه النبي صلى الله عليه وآله، إنه يوم شؤم، فيه قبض النبي صلى الله عليه وآله وانقطع الوحي»(٢).

وعن جامع الأخبار في كتاب التعبير عن الأئمة عليهم السلام: «إن رؤيا المؤمن صحيحة؛ لأن نفسه طيبة ويقينه صحيح، وتخرج فتتلقى من الملائكة، فهي وحي من الله العزيز الجبّار، وقال عليه السلام: انقطع الوحي وبقي المبشّرات ألا وهي نوم الصالحين والصالحات»(٣).

---

(١) الوسائل، الحر العاملي: ج١١ ص٣٥١: ح١؛ باب آداب السفر إلى الحج وغيره، الباب الرابع (باب كراهة اختيار الأثنين للسفر)؛ وكذا الباب السابع: ح٩ ص٣٦٠.

(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج١١ ص٣٦٠.

(٣) نقلاً عن بحار الأنوار، المجلسي: ج٥٨ ص١٧٦.

وسيأتي أنّ من معاني الوحي هو ما يحصل في المنام، كما في الإيحاء إلى أمّ موسى (عليها السلام).

وأخرج البخاري في صحيحه في باب الرؤيا الصالحة، عن عبد الله ابن سلمة عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة»، وكذا ذكرها بعدّة أسانيد في باب الرؤيا الصالحة (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) كما عن عبادة بن الصامت وأبي هريرة وأنس[1].

أقسام الوحي

ذكر المفسرون أن للوحي أكثر من معنى استعملها القرآن الكريم كالإيحاء إلى النحل وإلى أمّ موسى ونحوها.

وعلى هذا الأساس، فلو عُبر في بعض الروايات بالوحي لا يعني ذلك أن المقصود منه هو الوحي الرسالي والنبوّة أبداً، بل لابد أن يكون المراد غير ذلك، ومن أقسام الوحي في القرآن الكريم ما يلي:

١- الوحي بمعنى الإلهام: كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[2]، كما نص على ذلك النحّاس، حيث قال: «روي عن الضحاك أنه قال: ألهمها، وأصل الوحي في اللغة الإعلان بالشيء في

(١) صحيح البخاري، البخاري: ج٨ ص٦٨، ص ٧٠.
(٢) النحل: آية ٦٨.

ستره، فيقع ذلك بالإلهام وبالإشارة وبالكتابة وبالكلام الخفي»[١]، وكذا قيل إن من الوحي الرحماني بمعنى الإلهام قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾[٢].

٢- الوحي بمعنى الخلق: عن السدّي ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[٣]، قال: «خلق في كل سماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم، وعن قتادة ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وصلاحها»[٤].

٣- الوحي بمعنى إلقاء القول بخفاء: كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾[٥].

٤- الوحي بمعنى الإشارة والكتابة: كما نقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٦]، عن الكلبي وقتادة وابن منبه: أوحى إليهم أشار، وعن القتبي: أومأ، وعن مجاهد: كتب على الأرض، وأمّا عكرمة فيقول: كتب في كتاب، والوحي في كلام العرب الكتابة..[٧].

٥- الوحي بمعنى الإسرار: كما في قوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

(١) معاني القرآن، النحاس: ج٤ ص٨٣
(٢) القصص: آية ٧.
(٣) فصلت: آية ١٢.
(٤) جامع البيان: ابن جرير الطبري: ج٢٤ ص١٢٥.
(٥) الأنفال: آية ١٢.
(٦) مريم: آية ١١.
(٧) تفسير القرطبي، القرطبي: ج١١ ص٨٥؛ وكذا ما في: جامع البيان: ابن جرير الطبري: ج١٦ ص٦٨؛ وتفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣ ص١١٩.

زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

٦- الوحي بمعنى الإلقاء في الروع: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ....﴾[2].

قال الجبائي: (كان الوحي رؤيا منام)، وقال الزجاج: «معنى أوحينا إلى أم موسى أعلمناها»، وقال عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره: «عن قتادة في قوله وأوحينا إلى أمّ موسى، قذف في نفسها»[3].

وفي زاد المسير لابن الجوزي:«فيه ثلاثة أقوال: أحدها أنه إلهام قاله ابن عباس، والثاني إن جبرائيل أتاها، وبذلك قاله مقاتل، والثالث أنه كان رؤيا منام»[4].

٧- الوحي بمعنى الأمر: كما في قوله تعالى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[5]، ذكره القرطبي في تفسيره[6].

إذن للوحي معان عديدة، فمن السذاجة حصره بالوحي الرسالي!. ومما يؤيد جميع ما ذكرنا ما جاء في كتاب التعبير عن الأئمة عليهم السلام: «إن رؤيا المؤمن صحيحة؛ لأن نفسه طيبة ويقينه صحيح، وتخرج فتتلقى من

(١) الأنعام: آية١١٢.

(٢) القصص: آية ٧.

(٣) تفسير الصنعاني، عبد الرزاق الصنعاني: ج٣ ص٨٧؛ وكذلك في: تفسير الطبري: ج٢ ص٣٧؛ ومعاني القرآن: النحاس: ج٥ ص١٥٧.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي: ج٦ ص٨٧؛ وهكذا انظر: تفسير القرطبي: ج٦ ص٣٦٣؛ ج١٣: ص ٢٥٠.

(٥) الزلزلة: آية ٥.

(٦) تفسير القرطبي، القرطبي: ج٦: ص٣٦٣.

الملائكة، فهي وحي من الله العزيز الجبّار، وقال عليه السلام: انقطع الوحي وبقي المبشرات ألا وهي نوم الصالحين والصالحات»[1].

والنتيجة: هي أن الوحي انقطع والأئمة عليهم السلام ليسوا بأنبياء.

الخلاصة:

١- إنّ انقطاع النبوة والوحي الرسالي بعد موت النبي صلى الله عليه وآله من بديهيات وضروريات مذهب أهل البيت عليهم السلام، والتراث الشيعي مليء بالروايات التي تنطق بهذه الحقيقة.

٢- مضافاً إلى ما سبق من وجود الجم الغفير من الروايات التي تؤكد هذه الحقيقة، فقد أجمع علماؤنا على انقطاع الوحي بعد موت نبينا صلى الله عليه وآله وأنّه خاتم النبيين.

٣- ورد الوحي في القرآن الكريم على معان عديدة، لذا فإطلاق الوحي ـ لو وجد في بعض الروايات ـ لا يعني ذلك أن المراد هو وحي النبوة والرسالة.

---

(١) نقلاً عن بحار الأنوار: المجلسي: ج٥٨: ص١٧٦.

تأليه الإمام عند الشيعة

الشبهة:

الشيعة يؤلهون أئمتهم ويتخذونهم أرباباً من دون الله.

الجواب:

تمهيد:

أولاً: إنّ هذا القول والادعاء باطل لا أساس له من الصحة أبدا، فهذه كتب الشيعة ومؤلفاتهم حَكَمَاً بيننا، فهي تصرح بأن الأئمة عليهم السلام عباد لله تعالى، بل إن سيدهم رسول الله صلى الله عليه وآله نال جميع المقامات السامية والرفيعة بالعبودية لله تعالى، حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

ومجامع الشيعة الحديثية مليئة بالروايات الصحيحة والصريحة التي تحذر من فرق المغالين وعقيدتهم الفاسدة، وإليك بعضها على سبيل الاختصار:

(١) الإسراء: آية ١.

أولا: نهي أهل البيت عليهم السلام عن الغلو:

١- ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تبارك وتعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً»(١).

٢- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إياكم والغلو فينا، قولوا عبيد مربوبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم»(٢).

٣- ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «أنا أبرأ إلى الله تبارك وتعالى ممن يغلو فينا ويرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى بن مريم من النصارى»(٣).

٤- وعنه أيضاً عليه السلام: «فمن ادعى للأنبياء ربوبية وادعى للأئمة ربوبية أو نبوة أو لغير الأئمة إمامة فنحن منه براء في الدنيا والآخرة»(٤).

٥- عن مرازم قال، قال الإمام الصادق عليه السلام: «قال للغالية توبوا إلى الله فإنكم كفار فساق مشركون»(٥).

٦- ما عن سدير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوماً يزعمون أنكم آلهة، يتلون بذلك علينا قرآناً ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَـهٌ﴾(٦)، فقال: يا سدير سمعي وبصري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براء،

---

(١) عيون أخبار الرضا، الصدوق: ص٢١٧.
(٢) الخصال: الصدوق: ص٦١٤.
(٣) عيون الأخبار، الصدوق: ج١ ص٢١٧.
(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٢١٧.
(٥) رجال الكشي: ج٢ ص٥٨٧ ح٥٢٧.
(٦) الزخرف: ٨٤

وبرئ الله منهم، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم، قال: قلت: وعندنا قوم يزعمون أنكم رسل يقرأون علينا بذلك قرآناً ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1]، فقال: يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء وبرئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني و لا على دين آبائي والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم، قال: قلت: فما أنتم؟ قال: نحن خزان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قوم معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا نحن الحجة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض»[2].

٧- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا على شبابكم من الغلاة لا يفسدونهم فإن الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدّعون الربوبية لعباد الله، والله إن الغلاة شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا»[3].

مواقف علمائنا من الغلاة

١- قال الشيخ الصدوق رحمه الله: «اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنهم كفار بالله تعالى وأنهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلة»[4].

---

(١) المؤمنون: آية ٥١.
(٢) الكافي، الكليني: ج١ ص٢٦٩، ص ٢٧٠.
(٣) الامالي، الطوسي: ص ٢٥٠.
(٤) الاعتقادات الصدوق: ص٩٧.

٢- قال الشيخ المفيد رحمه الله: «والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية... وهم ضلال كفار، حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار وقضت الأئمة عليهم السلام بالإكفار والخروج عن الإسلام»[(١)].

٣- وقال الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله: «أما الشيعة الإمامية وأئمتهم عليهم السلام فيبرؤون من تلك الفرق براءة تحريم ويبرؤون من تلك المقالات، ويعدونها من أشنع الكفر والضلالات، ليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق»[(٢)].

٤- وقال الشيخ المظفر رحمه الله: «لا نعتقد في أئمتنا عليهم السلام ما يعتقده الغلاة والحلوليون ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[(٣)]، بل عقيدتنا الخاصة أنهم بشر مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإنما هم عباد مكرمون اختصهم الله بكرامته وحباهم بولايته إذ كانوا في أعلى درجات الكمال اللائقة في البشر من العلم والتقوى والشجاعة والكرم والفقه، وجميع الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، لا يدانيهم أحد من البشر فيما اختصوا به، قال إمامنا الصادق عليه السلام: (ما جاءكم عنا مما يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا، وما جاءكم عنا مما لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردوه إلينا))»[(٤)].

(١) تصحيح الاعتقادات، المفيد: ص ١٣١.

(٢) أصل الشيعة وأصولها، كاشف الغطاء: ص٣٨، نشر دار الأعلمي، ١٣٩٧هـ.

(٣) الكهف: آية ٥.

(٤) عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر: ص٧٣ – ٧٤.

وكيف نغالي في أهل البيت عليهم السلام وندعي لهم الأُلوهية ونحن نروي أن الإمام الرضا عليه السلام كان يقول في دعائه:

«اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة، فلا حول ولا قوة إلا بك»... اللهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا تصلح الإلهية إلا لك، فالعن النصارى الذين صغّروا عظمتك، والعن المظاهين لقولهم من بريتك، اللهم إنا عبيدك لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً، اللهم من زعم أننا أرباب، فنحن إليك منه براء...»[1].

ثانياً: إن ما تمسك به المستشكل عبارة عن روايتين ضعيفتين، أحداهما رواية واردة في البحار، عن تفسير العياشي ضعيفة السند، مضافاً إلى جهالة الجعفري إذ لم يذكر له توثيق في كتب الرجال.

وكذا ما في الرواية الأخرى التي وردت في كتاب تأويل الآيات للسيد علي الأستر آبادي، «عن علي بن أسباط عن إبراهيم الجعفري عن أبي الجارود عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، قال: أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد»[2] فطريق السيد إلى علي بن أسباط مجهول، فالرواية مقطوعة السند ولا يمكن الاعتماد عليها، بالإضافة إلى ما في نسبة الكتاب إلى السيد من كلام.

فلا اعتماد على هذه الرواية ولا على أختها في المسائل الفرعية، فضلاً عما إذا كانت من المسائل الاعتقادية.

---

(١) الاعتقادات، المفيد: ص٩٩ – ١٠٠.

(٢) تأويل الآيات، الأسترابادي: ج١ ص٤٠١.

ثالثاً: إن الإمامية الإثني عشرية لديهم مباني وأصول أصّلها لهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام يسيرون على طبقها في قبول الرواية أو ردّها، ومن تلك الأصول هي: إن كل ما يخالف العقل الصريح والقرآن الكريم من الروايات يردّ ولا يقبل:

١- فعن هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:«خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا أيها الناس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»[(١)].

٢- وقد ورد في صحيح محمد بن الحر قال:«سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[(٢)].

٣- وجاء عن أبي عبد الله عليه السلام:«إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وإلاّ فالذي جاءكم به أولى به»[(٣)].

٤- وعنه أيضاً عليه السلام:«ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»[(٤)].

٥- وعنه أيضاً عليه السلام:«الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[(٥)].

٦- عن سدير قال:«قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: لا تصدق علينا إلا ما

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج٢٧: ص١١١.
(٢) المصدر نفسه: ج٢٧: ص١١١.
(٣) المصدر نفسه: ج٢٧: ص١٠٧.
(٤) المصدر نفسه: ج٢٧: ص١١٠.
(٥) المصدر نفسه: ج٢٧: ص١١٩.

وافق كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله[١].

وغيرها من الروايات التي بهذا المضمون.

ولا شك أن تأليه الإمام وجعل المخلوق في مرتبة الخالق، والفقير في مرتبة الغني مما يرفضه صريح العقل، وصريح القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[٢].

وعلى هذا الأساس فإذا جاءتنا رواية يظهر منها تأليه الإمام نردّها ولا نقبلها ولو كانت صحيحة السند، فضلاً عما لو كانت ضعيفة، خصوصاً فيما لو كانت المسألة من المسائل الاعتقادية، بل من أساس العقائد.

رابعاً: لو فرضنا جدلاً وجود رواية صحيحة ومقبولة من الناحية الاعتقادية إلاّ أنّه يمكن القول أنها تستهدف الإشارة إلى أمر دقيق وحساس يحتاج إلى المزيد من النباهة والفطنة وإمعان النظر، إلا أنه قبل الولوج في بيان المقصود والذي تستهدفه الرواية ينبغي الإشارة إلى نقطة أساسية تساهم في توضيح المراد وتحول دون وقوع الالتباس فيه:

وملخصها:

إن القرآن الكريم يؤكد على وجود إمام هدى وإمام ضلال في هذا العالم، كما في قوله الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٣]، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ

---

(١) المصدر السابق نفسه: ج٢٧ ص١٢٣.

(٢) مريم: آية ٩٣.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) القصص: ٥.

الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[٢]، فهناك أئمة هدى وأئمة كفر وضلال.

ولا شك أن إمام الهدى من الله تعالى، وإمام الضلال من الطاغوت والشيطان.

وعلى ضوء هذه النقطة، نقول: إن الرواية تنبّه على أمر بالغ الخطورة على واقع الإنسان العملي، حيث أنها تخاطبه، وتقول: أيها الإنسان لا تتخذ في حياتك وفي سلوكك وتعاملك إمامين، إمام هدى وإمام ضلال، فإن مَن يتخذ ويتبع هذين الإمامين معا سوف يقع في الشرك بالله تبارك وتعالى من حيث لا يشعر؛ إذ معنى ذلك هو الإيمان بجاعل أئمة الهدى وهو الله تعالى، وجاعل أئمة الضلال وهو غيره تعالى، وهو عين الشرك به عزّ وجلّ، وهذا المعنى بنفسه يلتقي مع قوله تعالى: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[٣]، فالإمام عليه السلام يريد أن يشير إلى إن نتيجة اتخاذ الإنسان إمامين في آن واحد «إمام هدى مع إمام ضلال»[٤]، حصيلته الشرك بالله عزّ وجلّ.

فمن أراد الالتزام بمبدأ التوحيد وأن لا يتخذ إلهين اثنين، عليه أن لا يتبع إمامين إمام حق من الله وإمام باطل من غيره تعالى، لأن هذا هو الشرك الذي ينافي مضمون الآية المباركة.

وهذا المعنى بنفسه هو الذي ذكرته بعض الروايات ومنها تلك الرواية

(١) القصص: ٤١.

(٢) التوبة: ١٢.

(٣) النحل: ٥١.

(٤) تأويل الآيات، الاسترابادي النجفي: ج١ ص٤٠١.

التي نقلها السيد شرف الدين علي الاسترآبادي: «عن علي بن أسباط عن إبراهيم الجعفري عن أبي الجارود عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ قال: أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد»[1]، فهذه الرواية تؤكد المعنى الذي قررناه آنفاً، ولهذا فهم السيد الاسترآبادي من الرواية نفس المعنى الذي فهمناه، حيث قال في كتابه تأويل الآيات تفسيراً لمعنى الرواية: «يعني كما أنه لا يجوز أن يكون إله مع الله سبحانه كذلك لا يجوز أن يكون إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد؛ لأن الهدى والضلال لا يجتمعان في زمن من الأزمان، والزمان لا يخلو من إمام هدى من الله يهدي الخلق»[2].

فعندما نجد بعض الروايات الضعيفة في بعض الكتب، فليس من الصحيح أن ننسب شيئاً إلى طائفة بكاملها اعتماداً عليها أو على رواية ضعيفة واحدة، وهذا لا يختص بمذهب الشيعة فقط، بل كتب أهل السنة ومنها الكتب المعتبرة كالصحاح والسنن وغيرها مما تحتوي على مثل هذه الروايات الضعيفة بشهادة كبار علمائهم بتضعيفها.

الخلاصة:

١- إنّ ما ذكر في الشبهة مجرد ادعاء لا أساس له في مذهب أهل البيت عليهم السلام، وقد صرح وأكّد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على أنه صلى الله عليه وآله مهما بلغ من مقامات فهو في إطار العبودية، وفي هذا المقام روايات متضافرة، فإذا كان

(١) تأويل الآيات، الاسترابادي النجفي: ج١ ص٤٠١.

(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٤٠١.

هذا الحال مع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه الكيفية، فكيف بأهل البيت عليهم السلام وهم يأتون بعد النبي صلى الله عليه وآله في الدرجة والمقام.

٢- إنّ وصف الإمام عليه السلام بصفة الأُلوهية يعد من الغلو، ولا يخفى موقف أهل البيت عليهم السلام من الغلو والمغالين، حيث تبرأ أئمة أهل البيت عن هؤلاء المغالين، وكل من يصفهم بالربوبية والأُلوهية.

٣- إنّ مواقف علمائنا واضحة تجاه المغالين فقد وصفوهم بأنهم أنجس من اليهود والنصارى.

٤- لو فرض وجود رواية صحيحة في المقام إلاّ أنه لا يمكن قبولها لتعارضها مع كتاب الله تعالى، وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ألاّ نأخذ إلا بما وافق القرآن الكريم وترك كل ما خالفه فيما إذا لم يكن هناك طريق لتوجيه الرواية الصحيحة المفروض صحتها.

٥- لو فرضنا جدلاً وجود رواية مثل هذه وكانت صحيحة إلاّ أنه يمكن أن يقال: إنها ترمي الإشارة إلى مطلب آخر حاصله أنها تحذر الإنسان من اتخاذه إمامين في آن واحد، إمام هدى وإمام ضلال، كما حكى ذلك الحق تعالى بقوله: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، لأنه يؤدي إلى الشرك والضلال.

الولاية عند الشيعة أهم من التوحيد

الشبهة:

ولاية أهل البيت عليهم السلام عند الشيعة أهم من التوحيد.

الجواب:

أولا: التوحيد أساس الدين

إنّ أصل التوحيد عند الشيعة الإمامية، يأتي في الذروة ويحتل موقع الصدارة في المنظومة الدينية، هذا ما نلمسه واضحاً عند مراجعة بسيطة لمصادر الشيعة في ذلك، ويكفي للقارئ مراجعة سريعة لمجامعنا الحديثية ليجد الأحاديث المتضافرة والمتواترة في ذلك، والتي تؤكد على أن كل الكمالات لله تعالى، بحيث لا يشذّ عنه كمال، بل له من كل كمال وجودي أعلاه وأشرفه، وهذا يعد من الأصول الأساسية عند الشيعة.

ومن يتأمل في حصيلة النصوص الروائية الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام يتضح له أن مفتاح الولوج إلى عالم التوحيد الرحيب يكمن في معرفته تعالى معرفة حقيقية، وهذه الفكرة لخصها أمير المؤمنين عليه السلام في أول خطب النهج بقوله: «أول الدين معرفته»[1]، وبموازاة هذا المعنى سارت بيانات أهل البيت عليهم السلام، وهذا المعنى يبرز في المحاورة التي دارت بين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والحبر اليهودي عندما جاء إلى الإمام يسأله

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الأولى، صبحي الصالح: ج١ ص١٤؛ وقد نقلها أكثر علمائنا في مجامعهم الحديثية.

قائلاً: «يا أمير المؤمنين متى كان ربك فقال له: ثكلتك أمك، ومتى لم يكن حتى يقال متى كان؟! كان ربي قبل القبل بلا قبل، وبعد البعد بلا بعد، ولا غاية له، ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنده، فهو منتهى كل غاية»، وهنا يبهت الرجل، وتبهره هذه الكلمات، فيبادر الإمام بقوله: «يا أمير المؤمنين أفنبي أنت؟! فقال ويلك أنا عبد من عبيد محمد...»[١] أي بمعنى التلميذ الذي أخذ عنه علمه ومعرفته في أمر دينه ودنياه.

هذا مضافاً إلى أن الكثير من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال والتي ترشد إلى أهمية معرفة التوحيد معرفة صحيحة، ودورها في انشراح النفوس والصدور، وما تكتنزه من الثواب والأجر الكبير للموحدين، ولذا نجد أن أحد كبار علمائنا المحدّثين، وهو أبو جعفر بن علي بن الحسين المشهور بالصدوق، قد أفرد كتاباً خاصاً في التوحيد وحقيقته وفضله، ونجده يخصص باباً خاصاً بعنوان (ثواب الموحدين)، يسرد فيه عدداً كبيراً من الأحاديث الشريفة في هذا المضمار، منها ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «خير العبادة قول لا إله إلا الله»[٢]، وروى أيضاً رحمه الله في كتابه المذكور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن أساس الدين التوحيد والعدل»[٣]، وجاء أيضاً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: التوحيد ثمن الجنّة»[٤]، وعن علاء بن الفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال

(١) أصول الكافي: الكليني، ج١ ص٨٧ باب الكون والمكان: ح٥.
(٢) التوحيد، الصدوق: ص١٨.
(٣) المصدر نفسه: ص٩٦.
(٤) بحار الأنوار، المجلسي: ج٣: ص٣.

سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، «قال: التوحيد»[1]، وما إلى ذلك من الروايات المتضافرة في هذا المجال، كل ذلك يكشف عن صرح بناء المعرفة التوحيدية عند الشيعة، ويكون ذلك رداً قاصماً لأصحاب الأفكار المغلقة التي تكيل الاتهامات للآخرين من دون روية.

ثانيا: ترابط أصول الدين

إنّ الشيء الذي يسترعي الالتفات إلى أن المنظومة الدينية عبارة عن مركّب ذي حلقات مترابطة: التوحيد، النبوة، العدل، المعاد، الإمامة، فهي كالصلاة التي يُعبّر عنها بالمركّب الارتباطي، بتحققها مجتمعة يتحقق الكل.

وعلى هذا الأساس فإن التوحيد الحق والمطلوب المرضي عند الله تعالى لا يتحقق إلاّ إذا اعتقد الإنسان بهذه الأصول الخمسة، وأن الإخلال بأي حلقة من حلقات هذا المركّب يؤدّي إلى الإخلال بالتوحيد المطلوب المرضي عند الله تعالى، الذي هو غاية الغايات وليس وراءه غاية.

ومن هنا فإن الروايات المختلفة لدى السنة والشيعة تشير إلى أنّ كفر إبليس ليس كفر شرك؛ لأنه لم يعبد غير الله، وإنّما كان جحوده واستكباره على الله عزَّ وجلّ في توحيده في مقام الطاعة، وقد ورد في بعض الروايات أنه طلب من الله تعالى إعفاءه من السجود لآدم عليه السلام،

(١) بحار الأنوار المجلسي: ج٣ ص٢٧٧.

وسوف يعبده عبادة لا نظير لها، وما كان الجواب من الحق تعالى هو: «إنّي أحب أن أُطاع من حيث أُريد»[١]، وفي رواية أُخرى: «إنما أُريد أن أُعبد من حيث أُريد لا من حيث تُريد»[٢].

وبناءً على ما سبق وتأسيساً عليه، فإن التوحيد الحق والمطلوب والمرضي عند الله تعالى لا يتحقق إلاّ من خلال الطريق الذي رسمه الله لنا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٤]، فأهمية الإمامة تكمن في دورها الأساسي في رسم معالم التوحيد المرضي عند الله عزّ وجلّ.

وبعد هذه الإطلالة السريعة اتضح لنا أهمية التوحيد عند الشيعة، وزيف قول صاحب الشبهة: إن الإمامة أهم من التوحيد لدى الشيعة.

ثالثا: الولاية فرع التوحيد

إن الروايات التي جاءت في تعظيم شأن الولاية جعلتها في قبال الصلاة والصوم والزكاة والحج، وذكرت أن الولاية أعظم منها، ولم تجعل الولاية في قبال التوحيد، فضلاً عن تفضيلها عليه، كما جاء ذلك:

١- عن أبي جعفر عليه السلام: «بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ج٢: ص٢٦٢، ج١١ ص١٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ج١١ ص١٤١.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) الحشر: ٧.

والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية»[1].

٢- عنه أيضاً عليه السلام:«بني الإسلام على خمس: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم شهر رمضان والولاية لنا أهل البيت، فجعل في أربعة منها رخصة، ولم يجعل في الولاية رخصة»[2].

وأين هذا من تفضيل الولاية على التوحيد؟ !!

بل لعل هذه الروايات صريحة في أن الولاية ليست بمستوى التوحيد، بل هي فرع هذه الشجرة الطيبة، وهي شجرة التوحيد.

الخلاصة:

١- إنّ التراث الشيعي الضخم يشهد على مكانة وعظمة التوحيد عند الشيعة، وهذا واضح لمن كان له أدنى إطلاع على روايات أهل البيت عليهم السلام وكيفية تعظيمهم وتقديسهم للذات الإلهية، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:«أول الدين معرفته».

٢- إنّ التوحيد المرضي عند الله تعالى إنّما يتحقق من حيث يريد هو عزّ وجلّ لا من حيث يريد العبد، وقد رسم الله تعالى الطريق في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقد تضافرت الروايات عنه صلى الله عليه وآله على وجوب مودة أهل البيت عليهم السلام وموالاتهم واتباعهم والتمسك بهم، كما هو مقتضى حديث الثقلين والسفينة والغدير ونحوها.

(١) الكافي: الكليني: ج٢: ص١٨.
(٢) الخصال: الصدوق: ص٢٧٨.

إذن الجحود بحق أهل البيت عليهم السلام وعدم موالاتهم ونصب العداوة لهم تعني عدم طاعة الله ورسوله، وبالتالي لا يتحقق التوحيد المرضي عنده تعالى.

٣- الروايات التي اعتنت بالولاية إنما جعلتها قبال الصلاة والصوم والحج ونحوها ولم تجعلها في قبال التوحيد.

علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب غلو

الشبهة:

إنّ علم الغيب مختص بالله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فكيف يدعي الشيعة أن أهل البيت يعلمون الغيب؟

تمهيد:

لكي تتضح الصورة في هذه المسألة، ينبغي أن نتوقف قليلاً عند حقيقة علم النبي صلى الله عليه وآله للتعرف على مقدار وحدود ونوع هذا العلم، وما هي نوع العلاقة بين أهل البيت عليهم السلام وبين النبي صلى الله عليه وآله، وهل توارث أهل البيت عليهم السلام علمهم من النبي صلى الله عليه وآله أم لا؟

وسوف نخوض في تحقيق هذه المعاني بشكل إجمالي مكتفين بالإشارة المفهمة، التي من خلالها يمكن إيصال المطلوب، وسيتجلى إن شاء الله تعالى، إنّ أهل البيت عليهم السلام هم ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله في العلم اللدني الخاص من الله تعالى.

علم النبي صلى الله عليه وآله

ولكي نصل إلى معرفة علم النبي صلى الله عليه وآله، ينبغي الإجابة على تساؤل مسبق، يثار على ضفاف هذه المسألة يسهم في بناء الرؤية الفكرية الصحيحة حول العلم بالغيب.

والسؤال هو: ما هي حقيقة وجوهر علم النبي صلى الله عليه وآله ؟

وفي مقام الجواب على ذلك نقول:

إنّ علم النبي هو سنخ علم خاص يختلف عن علوم سائر البشر المتعارفة، التي تسمى بالاصطلاح العلمي بالعلوم الحصولية، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة، كما في قوله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] إلى أن قال تعالى:﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2]، ثم انعطف بتوجيه الخطاب إلى آدمعليه السلام، فقال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، حيث نجد أن المشهد القرآني استبدل صيغة التعبير من «التعليم» الذي استخدمه مع آدم إلى التعبير «بالإنباء» الذي استخدمه مع الملائكة، وتغيّر التعبير لم يكن بسبب التفنن الأدبي فحسب، لأننا بإزاء كلام الله تعالى، الذي وصفه في قرآنه بأنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3]، إذن التعبير بهذه الصيغة يحمل في طياته مغزى يتمثل في أن ما حصل لآدم هو تعليم، وأنّهعليه السلام كان فيه القابلية والاستعداد لتحمل هذا العلم الإلهي الذي لم يتحمله غيره، أما الملائكة فلم يتجاوز تحملهم سوى الإنباء لهم بالواسطة، لعدم استعدادهم لتلقي الفيض من الله تعالى بالمباشرة، لأنّ نشأتهم الوجودية لا تؤهلهم لتعلّم ذلك العلم وحمله بتمامه وبالمباشرة، وإنّما كلّ ما يمكنهم هو الإنباء والاطلاع على الواقعة بعد تمامها بالواسطة.

وتشير الآية المباركة الآنفة الذكر إلى نقطة بالغة الأهمية، تتمثل في

---

(١) البقرة: ٣١.

(٢) البقرة: ٣٢.

(٣) هود: ١.

موقع ومنزلة العلم الذي تعلمه آدم عليه السلام، فلأهمية وعظمة هذا العلم، حاز عليه السلام به الموقع الوجودي الذي أهّلَهُ ليكون مسجوداً للملائكة ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، ولا يخفى أن لفظة الملائكة المحلاة بالألف واللام تفيد العموم الشمول، ولفظة كلهم لزيادة التأكيد، ثم عاد ليؤكده بالمزيد في قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ مما يفيد عدم تخلف أحد من الملائكة في السجود إلى هذا الخليفة الإلهي الأرضي، ولذا نجد الكثير من المفسرين ذهبوا لذلك، كما يومئ إليه قول الفخر الرازي في تفسيره: «قال الأكثرون إن جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم»[1] ثم ذكر الأدلة التي احتجوا بها على رأيهم.

أفضلية نبينا صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء

اتفقت كلمة المسلمين على أفضلية نبينا محمد صلى الله عليه وآله على بقية الأنبياء من أولي العزم من الرسل وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، وجاء هذا الإجماع على ضوء أدلة قرآنية وروائية، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[2] فمع أن نبيّنا آخر النبيين مبعثاً، إلاّ أن القرآن الكريم يقدّمه في أخذ الميثاق على نوح عليه السلام الذي هو أول أنبياء أولي العزم، ثم يأتي من يليه من أولي العزم، ولم يأت هذا التقديم جزافاً؛ إذ لا موضع للجزاف في القرآن الكريم، الذي هو كتاب الله وكلماته وقد ذكر الآلوسي في تفسير الآية

(١) التفسير الكبير: الفخر الرازي، مج١، ج٢ ص٢٥٩، دار الفكر - بيروت، ١٤١٥هـ.
(٢) الأحزاب: ٧.

قائلاً: «تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين اندراجاً بيّناً للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، واشتهر أنّهم أولو العزم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وأخرج البزاز عن أبي هريرة أنهم خيار ولد آدم عليه السلام) ثم أضاف: «وتقديم نبيّنا صلى الله عليه وآله مع أنه آخرهم بعثة للإيذان بمزيد خطره الجليل، أو لتقدّمه في الخلق»[١].

والأحاديث المشهورة في هذا المضمار كثيرة، لا سيما الأحاديث التي تركز على حقيقة مهمة، وهي أن نبيّنا صلى الله عليه وآله هو أوّل مخلوق خلقه الله سبحانه وأنّه المصداق الأتم، والتجسيد الأكمل للخلافة الإلهية، وقد أشار الآلوسي لهذا المعنى بقوله: «فهو عليه الصلاة والسلام الكامل المكمل للخليقة، والواسطة في الإفاضة عليهم على الحقيقة، وكل من تقدمه عصراً من الأنبياء وتأخر عنه من الأقطاب والأولياء، نوّاب عنه مستمدون منه»[٢].

وقد جاء في العديد من الروايات أنه صلى الله عليه وآله أفضل الأولين والآخرين، ومن هنا نجد القرآن الكريم بيّن عظمة الرسول صلى الله عليه وآله في عدّة من آيات أخرى، منها: قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣]، وقال القاضي عياض في ذيل هذه الآية: «اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وآله... وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف، قال ابن عباس: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله وما سمعت الله أقسم بحياة غيره، وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياة أحد غير

(١) روح المعاني، الآلوسي: ج ٢١ ص ١٥٤، نشر: دار إحياء التراث العربي.
(٢) روح المعاني، الآلوسي: ج ٢٢ ص ٢٠.
(٣) الحجر: ٧٢.

محمدﷺ لأنه أكرم البرية عنده»[١].

وقد تضافرت الروايات في هذا المعنى:

منها: ما جاء عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول اللهﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم، فأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفّع»[٢].

ومنها: ما روته عائشة عنهﷺ قال: «أتاني جبرائيل فقال: قلّبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أرَ رجلاً أفضل من محمد ولم أرَ بني أب أفضل من بني هاشم»[٣].

ومنها: ما ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفّع»[٤].

ونحوها من الروايات التي تؤكد وتثبت أفضلية نبينا محمدﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام، وهذه الحقيقة مما لا خلاف فيها بين المسلمين، فهي محل اتفاق الجميع.

---

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج١ ص ٣١ – ٣٢؛ فتح القدير، الشوكاني: ج٣ ص١٣٨؛ وانظر: تفسير القرطبي: ج١ ص٣٩.

(٢) صحيح ابن حبان، ابن حبان: ج ١٤ ص ١٣٥

(٣) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٢ ص١٧٩ – ١٨٠؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٢ ص٣١٧؛ الجامع الصغير، الطبراني: ج٢ ص٢٤٧؛ دلائل النبوة، البيهقي: ج١ ص١٧٦، الشفاء، القاضي عياض: ج١ ص١٦٦ الباب الثالث الفصل الأول.

(٤) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣ ص٦٢؛ صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج ٧ ص ٥٩؛ مسند احمد، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٥٤٠؛ سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٤٤٠، سير أعلام النبلاء: ج٨ ص٢٩٤ وج١٠ ص٢٢٣؛ وغيرها.

الرسول ﷺ أعلم الأنبياء على الإطلاق

اتضح مما تقدم آنفاً أنّ النبيﷺ أفضل الأولين والآخرين، وأفضل الأنبياء على الإطلاق، فمن البديهي أن يكونﷺ أعلم الأنبياء جميعاً؛ وإلاّ فلا يكون هناك معنى للأفضلية والقرب والرفعة والمقام المحمود عند الله تعالى.

وقد تبين أنّ علم الأنبياء والمرسلين سيما نبيّناﷺ هو سنخ علم خاص ليس من العلم الاكتسابي المتعارف عند سائر الناس، كما هو الحال في علم التلميذ الذي يأخذ علمه من المعلم، فعلم الأنبياء هو علم يلقيه الله سبحانه في قلب من يشاء، وهو مفاد قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[١] وكذلك العلم الذي أفاضه تعالى على آدمعليه السلام وألقاه في قلبه مرة واحدة، بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[٢].

إذن علم الأنبياء هو علم خاص يلقيه الله تعالى في قلب مَن يشاء. وعلى هامش هذا المعنى تنبثق إثارة أخرى، محصلها: هل الأنبياء يعلمون الغيب أم لا؟

---

(١) الكهف: ٦٥.

(٢) البقرة: ٣١.

الأنبياء يعلمون الغيب

إنّ المتأمل في هذه الإثارة يجد أنّ منشأها من قِبَل البعض الذين يجمدون على ظواهر بعض الآيات القرآنية، التي تنفي العلم للغيب لغير الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿قل مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[1] وكذا قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[3].

إلاّ أن الملاحظة التي تستدعي الالتفات، والتي غفل عنها أصحاب الشبهة، وأخذوا ينظرون إلى القرآن بعين واحدة، هي أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، فقد ورد في آية واحدة بيان شاف لذلك، وهو قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[4] نعم ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾[5].

إذن على ضوء هذه الآية المباركة ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ يتضح تخصيص الأنبياء والرسل المرضيين عند الله تعالى، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، بأن الله تعالى أوصى إلى الأنبياء والرسل وأطلعهم على

---

(١) الأحقاف: ٩.

(٢) الأنعام: ٥٠.

(٣) الأعراف: ١٨٨.

(٤) الجن: ٢٦ — ٢٨.

(٥) البقرة: ٢٥٥.

الغيب: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾(١).

مضافاً إلى ما صرحت به الروايات من اطلاع الأنبياء على الغيب، وبعبارة أخرى: إن الآيات التي تنفي بظاهرها علم الغيب عن الأنبياء واختصاصه بالله تعالى، إنما يكون المقصود منها هو نفي علم الغيب من الأنبياء بالاستقلال والأصالة ومن دون الإذن الإلهي، وليست هذه الآيات في مقام نفي العلم بالغيب عن الأنبياء إذا كان بنحو التبعية والتعليم من قبل الله وبإيحاء منه تعالى، كما قال تعالى حكاية عن النبي الأكرم ﷺ: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾(٢)، مضافاً لحكم العقل القاضي باستلزام موقع الخلافة الإحاطة والعلم بكلّ شيء.

إذن لا إشكال في علم الأنبياء بالمغيبات إذا كان بإذن الله تعالى، وإليك جملة من الشواهد القرآنية على ذلك:

شواهد من علم الأنبياء بالغيب

ثمة عدد من النصوص الأخرى القرآنية التي تشهد على علم الأنبياء بالغيب، منها:

١- ما قاله وبيّنه نبي الله صالح لقومه، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ

(١) النساء: ١٦٣.

(٢) هود: ٣١.

تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[١].

٢- كلام نبي الله عيسى عليه السلام وأخباره لنبي إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

٣- ما ورد في القرآن من مواعيد الأنبياء بالملاحم والإخبار بالغيب، وقد وقع ذلك كله كوعيد نوح بحدوث الطوفان، وإنذار هود وشعيب ولوط بوقوع العذاب، وغير ذلك.

إخبار نبينا محمد صلى الله عليه وآله بالغيب

ونجد في هذا الحقل إخبارات غيبية كثيرة، سطرها القرآن الكريم منها:

١- إخباره صلى الله عليه وآله بانهزام الفرس على يد الروم، كما في قوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣].

٢- إخباره لأصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في مكة، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[٤]، وقد تحقق الأمر بذلك الدخول كما أخبر به الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وآله.

---

(١) هود: ٦٥.
(٢) آل عمران: ٤٩.
(٣) الروم: ١- ٤.
(٤) الفتح: ٢٧.

٣- ما أخبر بهﷺ بالغيب في مقام التحدي وإعجاز القرآن وأنّه لم يستطع أحد أن يأتي ولو بسورة واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾[1]، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2].

٤- إخباره بالفتوحات والمغانم الكثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾[3].

٥- إخباره تعالى أنه يحفظ نبيه من أذى المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[4]. هذا وإن كان إخبار بالغيب من قبل الله تعالى على لسان رسولهﷺ ولكن ذلك لا ينافي أن يكون النبي الأكرمﷺ يعلم الغيب بالتبع عن طريق إعلام الله تعالى له.

علم أهل البيت عليهم السلام

بعد أن تبين أنّ علم الأنبياء عليهم السلام هو سنخ علم خاص يتلقاه النبي من الله تعالى سواء أكان عن طريق الإلهام أم التلقين، ينبغي الالتفات إلى أنّ الله سبحانه وتعالى هو العالم وحده بالاستقلال ولا يشاركه غيره، نعم قد يفيض الله تعالى من علمه على بعض المخلوقات كالأنبياء عليهم السلام على وفق حكمته تعالى، ومَن ثم قد تتفاوت درجات إفاضة هذا العلم من قبله تعالى حسب ما تقتضيه حكمته.

---

(١) يونس: ٣٨.
(٢) هود: ١٣.
(٣) الفتح: ٢٠.
(٤) المائدة: ٦٧.

وعلى هذا الأساس نقول: إن الله تعالى خص أهل البيت عليهم السلام أيضاً بهذا النوع من العلم، لكونهم ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله وهم الثقل والعدل الآخر للقرآن الكريم، وسوف نلج في هذا المبحث من خلال بوابة العقل، وبوابة القرآن الكريم، والروايات الخاصة بذلك وبعض الشواهد الأُخرى.

الدليل العقلي على علم الإمام

بما أنّه ثبت في محلّه أنّ الأئمة عليهم السلام خلفاء الله في أرضه، ومقام الخلافة الإلهية في الأرض هو سنخ مقام لحكم الله في أرضه، وهو ما تسجلّه الأبحاث التفسيرية على هدي قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ومن هنا نجد الآلوسي يقول: «ومعنى كونه خليفة أنه خليفة الله تعالى في أرضه، وكذا كل نبي، استخلفهم في عمارة الأرض وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى، ولكن لقصور المستخلف عليه؛ لما أنه في غاية الكدورة والظلمة والجسمانية، وذاته تعالى في غاية التقدس، والمناسبة شرط في قبول الفيض على ما جرت به العادة الإلهية، فلابدّ من متوسط ذي جهتي تجرد وتعلق؛ ليستفيض من جهة ويفيض بأُخرى»[2].

إذن تبين أنّ الخليفة موجود أرضي له بعدان: أحدهما روحي، والآخر معنوي وبشري يؤهله للنهوض بدوره في العالم ليمثل سلطان الله في أرضه، وعلى هذا الأساس فلابدّ من أن يتمتع بمواصفات ومزايا خاصة،

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) روح المعاني، الآلوسي: ج ١ ص ٢٢٠.

فينبغي أن يكون أعلم مما سواه ليمثل علم الله تعالى، وأن يكون قادراً على تحمل منصب الخلافة في القدرة والسمع والبصر الإلهي على هذه الأرض، ومن هنا نجد نصوصاً روائيةً وافرةً تشهد على أن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لهم هذه القدرة بإذن الله تعالى.

ففي الحديث، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «هل ترون قبلتي ها هنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم وإني لأراكم من وراء ظهري»(١).

وقد ذكر ابن حبان: «بأن المصطفى صلى الله عليه وآله كان يرى من خلفه كما يرى بين يديه فرقاً بينه وبين أمته»(٢).

ولا غرابة في ذلك، كما يحدثنا القرآن عن كثير من الأنبياء بامتلاكهم مثل هذه القدرة، فهذا نبي الله عيسى عليه السلام له قدرة على الخلق وإحياء البشر وشفاء المرضى، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٣).

ومن هنا نجد أن ابن كثير يقول في تفسيره في ذيل الآية: «وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه، فيطير عياناً بإذن الله عزّ وجلّ الذي جعل هذا معجزة له تدل على أن الله أرسله»(٤).

---

(١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٣٠٣؛ صحيح ابن حبان، ابن حبان ج١٤ ص ٢٥٠.
(٢) صحيح ابن حبان، ابن حبان: ج١٤ ص ٢٥٠.
(٣) آل عمران: ٤٩.
(٤) التفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ص ٤٨٥.

وقد جاء في روايات الخلفاء الاثني عشر «كلهم يعمل بالهدى ودين الحق» ولا ريب أن من يعمل بالهدى لا بد أن يكون على علم خاص من الله سبحانه وتعالى، وإلاّ فوقوعه في الخطأ لا شك فيه.

إذن تبين أنّ الإمام (الخليفة) لابدّ أن يتوفر على علم خاص منه تعالى ليؤهله لإداء مسؤوليته وتمثيله في الأرض.

الأدلة القرآنية على علم الإمام

نستعرض فيما يلي جملة من الآيات القرآنية الواردة بشأن اختصاص أهل البيت عليهم السلام بنوع خاص من العلم يختلف عن علم سائر الناس.

الدليل الأول:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[1] وتقريب الاستدلال بهذه الآية يتطلب منا أن نمكث قليلاً لمعرفة حقيقة الوراثة القرآنية واختلافها عن الوراثة الترابية (المادية)، لا سيما مع ملاحظة أن أول ما يطالعنا القرآن به من الوراثة هي وراثة الإمامة المستمرة إلى يوم القيامة التي نلمسها بوضوح من خلال دعوة النبي إبراهيم لذريته.

دعوة النبي إبراهيم لذريته

إنّ منصب الإمامة وما يمثله من حالة تكاملية للإنسان الذي يعد من أرقى درجات التكامل الإنساني، شاء الله تعالى بلطفه وكرمه وفضله على

(١) فاطر: ٣٢.

الأنبياء، أن يجعل من ذريتهم أئمة وهداة يؤدون الواجب الإلهي تكريماً لهم ونعمة ومنة منه تعالى على أنبيائه عليهم السلام.

وفي الوقت نفسه كان هذا التكريم يمثل رغبة وأمنية من أمنيات الأنبياء، تفصح عن حالة فطرية عند الإنسان في الرغبة والبقاء والاستمرار من خلال ذريته الصالحة، وهذا بحث اجتماعي مهم يرتبط بدراسة علاقة الإنسان بذريته وشعوره بالبقاء من خلالها.

فالقضية إذاً ترتبط بكلا الجانبين: الجانب الإلهي، وهو تعالى الجواد المتفضل على أنبيائه المجيب لدعائهم، والجانب الإنساني العبودي المتمثل بهؤلاء الأنبياء الذين أخلصوا لله تعالى في العبودية.

وهذا ما نشاهده واضحاً على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي هو شيخ الأنبياء، عندما امتحنه الله تعالى، ونجح في ذلك الابتلاء والاختبار، كان أول شيء طلبه من الله تعالى هو أن تكون هذه الإمامة التي حمّله الله مسؤوليتها، أن تكون في ذريته أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، وكذا وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2] حيث طلبا من الله تعالى في البداية قبول هذا العمل العظيم، ثم دعيا أيضاً أن يشرك معهما في إسلامهما لله عز وجلّ ذريتهما من المسلمين المهتدين المقبولين لديه،

(١) البقرة: ١٢٤.
(٢) البقرة: ١٢٧-١٢٩.

ولم يقتصرا على ذلك وإنّما طلبا من الله تعالى أن تكون هذه الذرية ذرية تتحمل مسؤولية النبوة والرسالة أيضاً، كما بيّنته الآية الشريفة، حيث جاء فيها: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾.

ولذلك نلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يفتخر ويقول: «أنّا دعوة إبراهيم»[1] أي في جعله من ذرية إبراهيم عليه السلام، وأنه الرسول الذي يتلو الآيات، ويعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم.

الإمامة في الذرية سنة قرآنية

عندما نرجع إلى القرآن ومفاهيمه وتصويره لحركة الأنبياء والرسالات الإلهية، نجد أن هذا التكريم الإلهي للأنبياء، وهو أن يجعل من ذريتهم أنبياء وأئمة يقومون بالواجب الإلهي، فصار ذلك سنة من السنن الإلهية الواضحة في تاريخ الرسالات والأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

---

(١) الجامع الصغير، الطبراني: ج١ ص٤١٤؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج٣ ص٥٩؛ كنز العمال: ج ١١ ص٣٨٤ – ص٤٠٥.
(٢) الإنعام: ٨٣-٨٧

حيث يشير القرآن الكريم في الآيات المباركة إلى هذه السنة التاريخية وتعميمها لتشمل الآباء والإخوان، كما في قوله تعالى ومن آبائهم وذريتهم وإخوانهم، وكذلك ما ورد في سورة مريم عندما تحدث القرآن عن عدد من الأنبياء وهم إبراهيم وبعض ذريته، وإدريس من قبل إبراهيم، وبعد ذلك يذكر القانون العام في الذرية ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1]، ويشير القرآن الكريم إلى هذا المعنى عندما يتحدث عن نوح وإبراهيم، وأنه تعالى جعل في ذريتهما النبوة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

وغيرها من الموارد الكثيرة التي لا يسع المجال لاستعراضها.

وبعد أن اتضح أنّ هذه سنة إلهية تحكم مسيرة وحركة الأنبياء، يبرز لنا عنوان آخر في عدد من الآيات القرآنية، ولعلّه يعد السبب الرئيس من وراء جعل هذه السنة في حركة الأنبياء وكونهم من ذرية واحدة، وهو ما تحدث عنه القرآن الكريم في مناسبات متعددة، ذلك هو الاصطفاء والاجتباء.

ما هو الاصطفاء؟

الاصطفاء لغة هو الاختيار والاجتباء، فمعنى اصطفاهم أي جعلهم

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) الحديد: ٢٦.

صفوة خلقه، كما في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1]، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[2]، فالاصطفاء يمثل ظاهرة واضحة في حركة الأنبياء، كما جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]، فنلاحظ أن الله تعالى اصطفى آدم اصطفاءً واختياراً خاصاً ثم اختار نوحاً، ثم اختار إبراهيم وآل إبراهيم ثم عمران، وآل عمران مضافاً إلى تأكيد القرآن الكريم، أنّ هذا الاختيار والاصطفاء ليس أمراً واقفاً على هذه الأسماء وهذه الجماعات وإنّما هي قضية ذات امتداد في هذه الذرية ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾.

الاصطفاء والعدالة الإلهية

إنّ اصطفاء واختيار الله تعالى للأنبياء، إنّما جاء وفقاً للعدالة الإلهية ووفقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[4] و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[5] إلاّ أن النقطة الجديرة بالالتفات، هي أن الكيفية والآلية التي اختارهم الله عزّ وجلّ على أساسها، إنّما جاءت نتيجة علمه تعالى بأن

(١) الأعراف: ١٤٤.
(٢) ص: ٤٥-٤٧.
(٣) آل عمران: ٣٣- ٣٤.
(٤) النجم: ٣٩.
(٥) الحجرات: ١٣.

هؤلاء الأنبياء مطيعون له طاعة لا نظير لها دون غيرهم، ويمتلكون إرادة واستعداداً خاصاً لتحمل المسؤولية، والفناء في ذات الله تعالى وإرادته، بحيث يعجز غيرهم عن الوصول لما وصلوا إليه.

إذن، لعلمه تعالى السابق بهم وبكفاءتهم في تحمل المسؤولية اصطفاهم واختارهم دون غيرهم من الناس؛ لأنّه تعالى يعلم بأفعال المكلفين قبل حصولها، ولا ينافي ذلك اختيارهم كما هو واضح.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ الله تعالى، بعد علمه السابق بهم، وأنّهم يفوقون غيرهم سوف يوليهم عناية خاصة لكي يكونوا قادرين على تحقيق ما كانوا مستعدين لتحقيقه.

ولا ريب أن هذا المنطق هو منطق عقلائي، يمارسه العقلاء في حياتهم، ألا ترى لو وجد بين طلاب مدرسة، طالب يمتاز بنبوغ عال، فهل من العدالة والإنصاف أن يترك مع بقية الطلبة، ويعامل بمستواهم العلمي الذي يقلّ عن مستواه بمراتب؟ طبعاً لا، وإنّما من العدالة أن يحضى برعاية استثنائية، ويُوفر له من الإمكانيات ما يجعله قادراً على الإنتاج وتحقيق الغايات المرجوة من نبوغه بحسب قابليته، بل لو كان لديك أولاد، وكان لأحدهم نبوغ وكفاءة، فالمنطق العقلائي يُحتم عليك أن توفر وتهيئ له الظروف وتهتم به وترعاه، ومن الظلم له أن تتركه وتساويه مع غيره في العناية، لأنّ قوام العدل وأساسه ليس التساوي، وإنّما هو إعطاء كل ذي حق حقه، فمن حق الذي تتوفر فيه القابلية والكفاءة أن تهيئ له ما يستلزم استثمار كفاءته واستعداده.

وعلى ضوء هذا نجد أن الله تعالى أولى عناية خاصة بالأنبياء والمرسلين، لعلمه السابق تعالى بهم وبقابليتهم على طاعته بتلك الدرجة دون غيرهم، بل نجد الآن في علم الهندسة الوراثية أنّهم يدرسون جينة الشخص؛ ليتمكنوا من تشخيص قابلياته، ومعرفة كفاءته واستعداده ليضعوه في الموضع المناسب، وأنه هل له قدرة على القيادة والعطاء أم لا؟ وهذا هو منهج الاصطفاء.

الذرية الصالحة للأنبياء عناية إلهية

من الواضح أن الوراثة والأبوة والجدودة من الأمور التي لها نوع تأثير ومدخلية على تركيبة وشخصية الإنسان ومزاجه بما ينسجم مع عالم الدنيا المادي الذي نعيش فيه، ولذلك شاء الله تعالى لهؤلاء الأنبياء والمرسلين والأئمة الذين اصطفاهم واختارهم أن يجعلهم من ذرية صالحة وأرحام مطهرة، وهذا ما نلمسه في روايات متضافرة في هذا الصدد.

تقلبهم في الأرحام المطهرة

وهو ما يسمى بأخبار الطينة والأصلاب المطهرة، فقد أخرج بن مردويه عن ابن عباس، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: بأبي أنت وأمي أين كنت وآدم في الجنة؟ فتبسم حتى بدت نواجذه، ثم قال: «إني كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح، فقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفّى مهذباً، لا

تتشعب شُعبتان إلاّ كنت في خيرهما، قد أخذ الله بالنبوة ميثاقي، وبالإسلام هداني، وبيّن في التوراة والإنجيل ذكري وبين كل شيء من صفتي في شرق الأرض وغربها، وعلمني كتابه في سمائه، وشق لي من أسمائه، فذو العرش محمود وأنا محمد، ووعدني أن يحبوني بالحوض وأعطاني الكوثر، وأنا أول شافع وأول مشفّع، ثم أخرجني في خير قرون أمتي، وأمتي الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:«ما بال أقوام ينتقصون عليّاً، مَن تنقّص عليّاً فقد تنقّصني، ومن فارق عليا فقد فارقني وإن علياً مني وأنا منه، خلق من طينتي وخلقت من طينة إبراهيم وأنا أفضل من إبراهيم، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليهم»[٢].

وعن رسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «خلقت أنا وهارون ابن عمران ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب من طينة واحدة»[٣].

أبعاد أخرى

إذن ظاهرة اختيار واصطفاء الأنبياء والمرسلين والأئمة، وجعلهم في ذرية واحدة، لا ينحصر أثرها في عناية الله تعالى بهم وجعلهم في أصلاب وأرحام مطهرة فحسب، وإنّما نجد لهذه الظاهرة أبعاداً وأهدافاً أخرى ذات أهمية فائقة، منها:

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ج٦ ص٣٣٢؛ تاريخ مدينة دمشق ابن عساكر: ج٣ ص ٤٠٨، وكذلك البداية والنهاية، ابن كثير: ج٢ ص٣١٨، وكذلك السيرة النبوية: ابن كثير: ج١ ص ١٩٦.
(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٩ ص ١٢٨.
(٣) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٦ص٥٦؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٦٣.

أولا: البعد التاريخي

وهذا واضح كما في اختيار الله تعالى أوصياء الأنبياء، حيث نجد أن اختياره تعالى للأوصياء يتركز على أولئك المقربين للأنبياء من أقاربهم أو ذراريهم ممن يرتبطون بالنبي أو الرسول القائد ارتباطاً نسبياً، كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾(١) وغيرها من الآيات(٢).

ثانيا: البعد الرسالي

ونقصد بذلك ما يترتب على الذرية الصالحة للأنبياء من تحقيق مصالح الرسالة، وإعداد الأفراد المؤهّلين للقيام بمهامها وتحمّل أعبائها الثقيلة؛ وذلك لأنّ عُمْر الرسول ـ عادة ـ يكون أقصر من عمر الرسالة، ومن ثم يحتاج إلى من يقوم بتحمل أعبائها ومسؤولياتها، وهذا إنّما يحتاج إلى إعداد يتناسب مع طبيعة وحكم هذه الأعباء والمسؤوليات الضخمة، ولا ريب أن الإعداد الأفضل والأكمل لا يتم إلاّ في داخل البيت الرسالي، ومن الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة الذين لم يروا النور إلاّ في كنفه وفي إطار تربيته، دون غيرهم من الأفراد الذين يفتقرون إلى الكفاءة والاستعداد وإن كانوا من نفس ذرية النبي صلى الله عليه وآله كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٣).

---

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) الأنعام: ٨٣ — ٨٧

٣- البقرة: ١٢٤.

ما هي حقيقة وراثة الأنبياء؟

على ضوء ما سلف آنفاً يتضح أن وراثة الأنبياء أعم من الوراثة المتعارفة، فهي شاملة لوراثة العلم والنور والملك، ومن هنا نجد الفخر، الرازي يفسر آية ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[1] على أنها أعمّ من وراثة النبوة والمال حيث قال: «... الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة لأنّ الموت لا يكون سبباً لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته»، ثم ذكر وجوهاً عديدة لشمول الإرث للمال والنبوة والمقامات الرسالية، إلى أن قال:«فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال»[2].

فمن أبرز ما يورث في أسرة التوحيد بين الأنبياء والمرسلين والأئمة هو العلم، ولا يخفى ما في العلم من فضل ومزية، ولذا فإنّ الفخر الرازي في ذيل الآية المباركة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ للَّه الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، قال:«في الآية دليل على علوّ مرتبة العلم؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما،... إن تلك الفضيلة ليست إلاّ ذلك العلم»[4].

وبهذا يتبيّن أنَّ الأنبياء والمرسلين والأئمة وراثتهم نورية فضلاً عن

(١) النمل: ١٦.

(٢) التفسير الكبير، للفخر الرازي: المجلد الثاني عشر ج٢٤ ص ١٨٧.

(٣) النمل: ١٥.

(٤) التفسير الكبير، الفخر الرازي: المجلد الثاني عشر: ج ٢٤ ص١٨٦.

الوراثة المتعارفة، وأن أبرز شيء متوارث فيما بينهم هو العلم والنبوة والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. قال الثعلبي في مراثي المجالس في آية ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: «يعني نبوته وحكمته وملكه».

أهل البيت عليهم السلام ورثة الأنبياء

وحيث إن أهل البيت عليهم السلام من تلك الشجرة المباركة، ومن أسرة التوحيد، ومن تلك الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة المصطفاة المجتباة المتمثلة بالأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم سيدهم وأفضلهم نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، فهم عليهم السلام ورثة الأنبياء وممن اصطفاهم واختارهم واجتباهم الله سبحانه وتعالى لسابق علمه بطاعتهم وحبهم وفنائهم في ذات الله تعالى.

وإليك نموذجاً من الشواهد الروائية المؤكّدة لوراثة أهل البيت عليهم السلام للأنبياء:

١ - الإمام علي وذريته عليهم السلام وارثو رسول الله

ففي المناقب للخوارزمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله عند المؤاخاة أنه قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرتك إلاّ لنفسي فأنت عندي بمنزلة هارون من موسى ووارثي، فقال: يا رسول الله ما أرث منك؟ قال ما ورثت الأنبياء، قال وما أورثت الأنبياء قبلك؟ قال كتاب الله وسنة نبيهم»[1].

وفي ينابيع المودة، عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج٥ ص٢٢١؛ وذكره ابن حبان في الثقات: ج١ ص١٤٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢١ ص٤١٥، ج٤٢ ص٥٣؛ مناقب الخورازمي، الخوارزمي: ص١٥٢.

على أنت أخي ووارثي ووصيي، محبّك محبي، ومبغضك مبغضي، يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة، يا علي أنا وأنت والأئمة من ولدك سادات في الدنيا وملوك في الآخرة، من عرفنا فقد عرف الله عزّ وجلّ، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عز وجل»[١].

وعن أبي ذر ﵁ أنه قال:«أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الربذي، إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم، محمد الصفوة من نوح، فالأول من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، والعترة الهادية من محمد، إنه شرف شريفهم، واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة وكالكعبة المستورة، أو كالقبلة المنصوبة، أو كالشمس الضاحية، أو كالقمر الساري، أو كالنجوم الهادية، أو كالشجر الزيتونية أضاء زيتها، وبورك زبدها، ومحمد وارث علم آدم وما فضل به النبيون، وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد، ووارث علمه، أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها ! أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم، ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، إلاّ وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه، فأما إذ فعلتم ما فعلتم، فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[٢].

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص ٣٧٠.
(٢) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧١.

٢- الأنبياء يقرون بولاية علي وذريته عليهم السلام

أخرج الحاكم الحسكاني في شواهده: «إن النبي صلى الله عليه وآله ليلة أسري به جمع الله تعالى بينه وبين الأنبياء، ثم قال: سلهم يا محمد على ماذا بُعثتم؟ [فسألهم] فقالوا: بُعثنا على شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى الإقرار بنبوّتك، والولاية لعلي بن أبي طالب»(١).

وأخرج أيضاً عن أنس أنه قال:«قلنا لسلمان: سل النبي من وصيّه فقال له سلمان: يا رسول الله من وصيك، قال:«يا سلمان من كان وصيّ موسى؟ فقال: يوشع بن نون. قال: فإن وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعودي علي بن أبي طالب»(٢).

وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:«إنّ الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله وذريته فلا تذهب بكم الأباطيل»(٣)، ونحوها من الروايات الكثيرة.

وهذه الروايات فيها دلالة صريحة على وراثة الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام لعلم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن الواضح أنّ إقرار الأنبياء بولاية الإمام علي عليه السلام يستلزم كونه حامل علم الأنبياء عليهم السلام وإلاّ فلا معنى لكونه ولياً لرسول الله صلى الله عليه وآله.

٣- أهل البيت عليهم السلام ورثة الكتاب

لقد وردت جملة من الروايات تؤكد على أن أهل البيت عليهم السلام هم ورثة

(١) شواهد التنزيل: الحاكم الحسكاني: ج ٢ ص ٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه: ج ١ ص ٩٩.
(٣) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٧٨.

الكتاب الكريم.

منها: ما أخرجه السيوطي في تفسيره عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: «هم أهل بيت طهّرهم الله من السوء واختصهم برحمته، قال: وحدّث الضحاك بن مزاحم أن نبي الله صلى الله عليه وآله كان يقول: نحن أهل بيت طهرهم الله، من شجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم»[1].

ومنها: ما أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهده، عن الحرث، قال سألت أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن هذه الآية: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ قال: «والله إنّا أهل الذكر، ونحن أهل العلم، ونحن معدن التأويل والتنزيل، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم فليأت من بابه»[2].

ومنها: ما ورد عن عبد الله بن أعين قال: سمعت جعفر الصادق عليهما السلام يقول: «قد ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أعلم كتاب الله، وفيه بدأ الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة، وفيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر الجنة وخبر النار، وخبر ما كان وخبر ما يكون، وأنا أعلم ذلك كلّه كأنما أنظر إلى كفي، وأن الله يقول: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فنحن الذين اصطفانا الله جل شأنه، وأورثنا هذا الكتاب، فيه تبيان لكل شيء»[3].

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ج٦ ص٦٠٦.
(٢) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤٣٢.
(٣) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٨١.

ومنها: ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه من هذه الأمه أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله»[1].

ومنها: ما في ينابيع المودة عن الإمام الباقر عليه السلام قال:«ونحن مستودع مواريث الأنبياء... ونحن العلم المرفوع للحق»[2].

وغيرها من الروايات التي لا يسع المجال لذكرها، ولا يخفى ما في دلالتها على أن أهل البيت عليهم السلام ورثة علم رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هنا نجد رسول الله صلى الله عليه وآله يؤكد على بيان منزلة أهل البيت وفضلهم في الأمة، كما في قوله صلى الله عليه وآله «إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله وذريته فلا تذهبنّ بكم الأباطيل»[3].

أعلمية أهل البيت في القرآن الكريم

من الأدلة االقرآنية على أعلمية أهل البيت عليهم السلام مضافاً إلى ما تقدم:

قوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[4].

ففي هذه الآية المباركة يبيّن الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله كيفية الإجابة

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي حديد: ج١ ص٣٠.

(٢) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٧٧.

(٣) نظم درر السمطين، الزرندي: ص٢٠٨؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٧٨، ج٢ ص٤٥، ٣٨٢، ٤٦٥.

(٤) الرعد: ٤٣.

والمحاججة مع الكفار الذين ينكرون نبوّته ورسالته، بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ حيث لقّن الله تعالى نبيهﷺ في مقام إثبات نبوته بأن يستشهد بشهادتين:

الشهادة الأولى: وهي شهادة الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وأنه تعالى هو الذي أوحى إليه القرآن الكريم، وأنه معجزة خالدة، وهذه شهادة إلهية عظيمة لا تعدلها شهادة، ولا يضر معها جحود هؤلاء الكافرين.

الشهادة الثانية: شهادة من عنده علم الكتاب: ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فجعل شهادة الذي عنده علم الكتاب لإثبات رسالته وصحة دعوته، وكفى بهذه الشهادة كرامة وفضلاً، لاقترانها بشهادة الله تعالى.

ولكي نقف على عظمة هذه الشهادة ينبغي التعرف على حقيقة علم الكتاب:

حقيقة علم الكتاب

لمعرفة حقيقة علم الكتاب ينبغي أن نقف متأملين قليلاً عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

---

(١) النمل: ٣٨ – ٤٠.

فإنّ هذه الآية المباركة تبين أن وصي سليمان عليه السلام كان عنده بعض علم الكتاب وليس علم الكتاب كلّه، كما هو واضح من قوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حيث إن (من) في الآية الكريمة تبعيضية، أي عنده بعض علم الكتاب، وبهذا البعض من العلم من الكتاب كان لوصي سليمان (آصف بن برخيا) القدرة على الإتيان بعرش بلقيس من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين، فكيف بمن عنده علم الكتاب كلّه؟!

حدود علم الكتاب

وُصف الكتاب في القرآن الكريم بأنه يحتوي على كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وكلمه (شيء) في الآية مفهوم مطلق لا يوجد أعم منه، فلا يخرج من هذا التعميم مخلوق من الأزل إلى الأبد، لا سيما مع ملاحظة أن الشيء في الآية جاء مشفوعاً بكلمة (كل) التي تؤكد العموم، إذن الكتاب بيان لكل شيء.

ومن البديهي أن هذا الضرب من العلم بالكتاب الذي تشير إليه الآية الكريمة آنفة الذكر: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ والآية المباركة: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[2] أن هذا العلم ليس هو العلم المتعارف بين الناس المسمّى بالعلم الحصولي، بل هو سنخ آخر من العلم ميزته أن لصاحبه القدرة على التصرف بنظام التكوين، وبواسطته

(١) النحل: ٨٩

(٢) الرعد: ٤٣.

استطاع وصي سليمان -الذي عنده علم من الكتاب- أن يأتي بعرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس في أقلّ من طرفة عين.

من الذي عنده علم الكتاب؟

استفاضت الروايات، واحتشدت دلالاتها على أن المراد بمن عنده علم الكتاب في الآية: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أنه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد جاءت هذه الشواهد الروائية بألسنة مختلفة ملتقية في نقطة واحدة، وهي أن الذي عنده علم الكتاب في الآية هو علي بن أبي طالب عليه السلام، منها:

الإمام علي عليه السلام أحصى علم كل شيء

١- أخرج القندوزي في ينابيع المودة بسنده عن الحسين بن علي عليه السلام: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ قالوا يا رسول الله هو التوراة أو الإنجيل أو القرآن؟ قال: «لا، فأقبل أبي عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله: هذا هو الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء»(١).

٢- أخرج الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، في هذا المجال ستة أحاديث عن ابن عباس، وأبي صالح، والإمام الباقر عليه السلام ومحمد بن الحنفية، وأبي سعيد الخدري، نكتفي بنقل حديث واحد منها، وهو ما جاء عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: ذاك أخي علي بن أبي طالب»(٢).

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص٢٣٠.
(٢) شواهد التنزيل، الحسكاني عبد الله بن أحمد: ج١ ص٤٠٠-٤٠٥.

٣- أخرج أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره حديثين، الأول عن ابن عبد الله بن عطاء أنه قال:«كنتُ جالسا مع أبي جعفر في المسجد فرأيت ابن عبد الله بن سلام جالساً في ناحية، فقلت: لأبي جعفر: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام، فقال: إنما ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام، والثاني؛ عن أبي عمر زاذان، عن أبن الحنفية:«﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قال: هو علي بن أبي طالب»[1].

٤- أخرج القرطبي في تفسيره، عن عبد الله بن عطاء أنه قال: «قلت: لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام، فقال: «إنما ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام»، وكذلك قال محمد بن الحنفية»[2].

٥- أخرج الحافظ أبو نعيم الاصفهاني في كتابه«ما نزل من القرآن في علي عليه السلام، عن إسماعيل بن سليمان: عن [محمد] بن الحنفية في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: (هو علي بن أبي طالب عليه السلام»[3].

٦- قال الآلوسي في تفسيره:«قال محمد بن الحنفية، والباقر كما في البحر: المراد بـ (من)، علي (كرم الله تعالى وجهه)، الظاهر أن المراد بالكتاب حينئذ القرآن، ولعمري إن عنده (رضي الله تعالى عنه) علم

---

(١) الكشف والبيان، الثعلبي أبو إسحاق أحمد: ج٥ ص٣٠٣- ٣٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد: ج٩ ص٣٣٦.

(٣) النور المشتعل من كتاب ما نزل من القرآن في علي عليه السلام، الإصبهاني؛ أحمد بن عبد الله بن أحمد (أبو نعيم): ص١٢٥؛ تحقيق محمد باقر المحمودي.

الكتاب كملاً»[١]!.

٧- ابن مردويه[٢] روى في كتابه (مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال:

«هو علي بن أبي طالب»[٣].

اختصاص أهل البيت عليهم السلام بعلم الكتاب

بعد أن اتضح أن الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بمقتضى الروايات الآنفة الذكر، فهنالك عدة آيات قرآنية تشير إلى اختصاص رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام بعلم الكتاب فضلاً عن الروايات الصحيحة، ومن جملة هذه الآيات ما يلي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٤]، وقوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، حيث دلت هاتان الآيتان على أن القرآن فيه تبيان كل شيء، ثم إننا لو سألنا القرآن الكريم عن سبب وجود الاختلافات الكثيرة بين المسلمين مع أن القرآن الكريم موجود بين أيديهم؟ لأجابنا بأن هذا الكتاب الذي فيه تبيان لكل شيء يحمله ثلة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي: ج١٣ ص١٧٦.

(٢) قال الذهبي في حقه: ابن مردويه الحافظ، المجوّد، العلامة، محدّث أصبهان، كان من فرسان الحديث، فهماً يقظاً متقياً كثير الحديث جداً، ومن نظر في تواليفه عرف محله من الحفظ، راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج١٧: ص٣٠٨-٣٠٩.

(٣) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، الأصبهاني؛ ابن مردويه أحمد بن موسى: ص٢٦٨؛ جمعه وقدم له عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين.

(٤) النحل: ٨٩.

مطهرة من الأمة، وهم الثقل الآخر للقرآن الكريم بتعبير حديث الثقلين وهو: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً» وهذا الحديث متواتر سنداً ومضموناً، وصريح من حيث الدلالة على أن أهل البيت عليهم السلام هم الثقل الآخر في الأمة، وأنهم عدل للقرآن، وهذا المعنى يلتقي مع قوله تعالى ـ الذي يدلنا على مكان وموضع علم الكتاب ـ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾[1] ولم يدّعِ أحدٌ من المسلمين أنه عنده علم ما في القرآن إلاّ هم عليهم السلام لا يفترقون عنه إلى قيام الساعة، فقد ورد عن عمر أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ قوله تعالى ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، وسمعته يقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، وقد أثبتنا أن الذي عند علم الكتاب هو الإمام علي وولده عليهم السلام وهذه دلالة واضحة على أن المراد بـ ﴿صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ هم أهل بيت النبي عليهم السلام وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾.

ولأجل أن نتفهم الآية المباركة ينبغي بيان مقدمة تساهم في الوصول إلى المطلوب: وملخص هذه المقدمة: هي أنّ لكلّ شيء أربعة وجودات:

الوجود الأول: وهو الوجود الكتبي مثل كتابة (زيد).

الوجود الثاني: الوجود اللفظي كما لو تلفظنا بكلمة (زيد) فقط.

الوجود الثالث: الوجود الذهني كوجود صورة زيد في ذهننا.

---

(١) العنكبوت: ٤٩.

الوجود الرابع: الوجود الخارجي وهو وجود زيد حقيقة في الخارج.

والقرآن الكريم لا يخرج عن هذه الحقيقة التكوينية، فهو له أربعة وجودات أيضاً، فوجوده اللفظي هو القرآن المصوت به، وكذا له وجود كتبي وهو هذه النسخة الشريفة الموجودة والتي لها أحكام شرعية خاصة بها.

ووجوده الذهني الذي هو عبارة عن تدبرّ معانيه السامية، والتأمل فيها، وهي ما دعانا الباري تعالى إلى التدبر والتأمل فيها.

ووجوده الخارجي هو نفس حقيقة القرآن الكريم، وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فتصدع الجبل لا يحصل بوجود القرآن اللفظي أو الكتبي بتلاوته أو كتابته أو وضعه على الجبل، ولا بوجود القرآن الذهني بل تصدع الجبل فيما إذا نزلت حقيقة القرآن الخارجية على الجبل، وهذا هو ما نصّت عليه الآية المباركة.

وبعد أن اتضحت هذه المقدمة وهي أن للقرآن حقيقة خارجية تكوينية سامية، فإن هذه الحقيقة لا يمكن أن يصل إليها إلاّ المطهرون، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ ومعنى (مكنون) أي محفوظ؛ ولذا قال الراغب الأصفهاني في مفرداته في معنى قوله تعالى: «﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يبلغ حقائق معرفته إلاّ من طهّر نفسه وتنقّى من درن الفساد»[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب: ص ٣٠٨.

مَن هم المطهّرون؟

لقد بادر القرآن الكريم لبيان ماهية وحقيقة المطهرين، وأنهم أهل البيت عليهم السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقد بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في روايات متضافرة بأن المطهرين هم أهل بيته عليهم السلام، ومن هذه الروايات:

١- ما ورد عن عبد الله بن جعفر لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرحمة هابطة قال: «ادعوا لي، ادعوا لي، فقالت صفية: من؟ قال صلى الله عليه وآله: أهل بيتي علياً وفاطمة والحسن والحسين، فجيء بهم فألقى عليهم كساءه، ثم رفع يديه، ثم قال: اللهم هؤلاء آلي فصلّ على محمد وعلى آل محمد، وأنزل الله عز وجلّ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»، [قال الحاكم]: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد صحت الرواية على شرط الشيخين، أنه علّمهم الصلاة على أهل بيته كما علّمهم الصلاة على آله»[1].

٢- ما ورد عن أبي سلمة: فدعا حسناً وحسيناً، وفاطمة، فأجلسهم بين يديه، ودعا علياً فأجلسه خلفه فتجلل هو وهم بالكساء، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[2].

ومنها: ما رواه ابن كثير في تفسيره قال: «... حدثنا شداد بن عمار قال دخلت على واثلة بن الأسقع رضي الله عنه وعنده قوم فذكروا علياً رضي

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣: ص١٤٨.

(٢) جامع البيان، الطبري: ج٢٢: ص١٢؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٩: ص٢٦؛ شواهد التنزيل: الحاكم الحسكاني: ج٢: ص١٢٠؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٤ ص١٤٥.

الله عنه فشتموه، فشتمته معهم، فلما قاموا قال لي شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم، ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي رضي الله عنه، فقالت توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره، حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهم آخذاً كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كل واحد منهما على فخذه ثم لفّ عليهم ثوبه، أو قال: كساءه، ثم تلى ﷺ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق»[1].

٣- وعنه أيضاً في رواية أخرى عن أم سلمة قالت:«فأخذ ﷺ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرّهم تطهيراً، قالت - أم سلمة -: فأدخلت رأسي البيت، فقلت وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: إنك إلى خير، إنك إلى خير»[2].

٤- وفي رواية ثالثة عنها أيضاً قالت:«فلما رآهم مقبلين مدّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يده إلى كساء كان على منامه، فمده وبسطه، وأجلسهم عليهم، ثم أخذ بأطرف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم وأومأ به بيده اليمنى إلى ربه، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣: ص٤٩٢.
(٢)المصدر نفسه: ج٣ ص٤٩٢.

فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[1].

٥- وفي رواية رابعة كذلك قالت:«... فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط، قالت، فقلت: يا رسول الله وأنا؟ قالت: فو الله ما أنعم، وقال: إنك إلى خير»[2].

٦- وفي رواية خامسة عن أم سلمة أيضاً: «... بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً، إذ قالت: الخادم إن فاطمة وعلياً بالسدة، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: قومي فتنحي عن أهل بيتي»[3].

٧- وفي رواية سادسة عن أم سلمة: «قالت: إن هذه الآية نزلت في بيتي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت يا رسول الله: ألست من أهل البيت؟ فقال ﷺ: إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي...»[4].

وهذه الروايات وغيرها صريحة في الدلالة على أن المراد بأهل البيت هم علي فاطمة والحسن والحسين وتسعة من أولاد الحسين عليهم السلام.

ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيداً ـ وهي أن أهل البيت عليهم السلام لديهم علم وحقيقة القرآن ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾،

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣ ص٤٩٣؛ جامع البيان، الطبري: ج٢٢ ص١١؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ ص١٠٣.

(٢) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣ ص٤٩٣؛ وانظر: المعجم الأوسط، الطبراني: ج٤ ص١٣٤؛ وانظر: شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ ص١٠٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٣.

(٤) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣ ص٤٦٦.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه خطب الناس قائلاً: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى، ويستجلى العمى. إن الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم»[1].

إذن تبين من هذه الروايات أنّ علم الكتاب إنما هو عند أهل البيت عليهم السلام بفضل الله تعالى واصطفائه لهم.

الروايات الخاصة في علم أهل البيت عليهم السلام

وأما على صعيد البحث الروائي فقد تواترت الروايات المؤكِّدة على أعلمية أهل البيت عليهم السلام، فضلاً عن كونهم ورثة النبي عليه السلام، منها:

١- علم الأنبياء عند أهل البيت عليهم السلام:

أخرج القندوزي الحنفي في الينابيع، عن عمر بن أذينة عن جعفر الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين: «ألا إن العلم الذي هبط به آدم عليه السلام من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين»[2].

٢- علم الكتاب كله عند أهل البيت عليهم السلام:

أخرج القندوزي الحنفي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «علم الكتاب والله عندنا وما أعطي وزير سليمان بن داود، إنما عنده حرف واحد من

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ج٢ ص٢٧، ج ٩ ص ٨٤؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٣ ص٢٩٣.
(٢) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص ٣٠٦.

الاسم الأعظم، وعلم بعض الكتاب كان عنده... وقال في علي عليه السلام ومن عنده علم الكتاب»[1]، وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا»[2].

٣- أعطي أهل البيت سبعا لم يعطها أحد قبلهم

أخرج ابن المغازلي عن علي عليه السلام قال:«قال رسول الله صلى الله عليه وآله:أعطينا أهل البيت سبعةً لم يُعْطَها أحدٌ قبلنا، ولا يعطاها أحدٌ بعدنا: الصباحة والفصاحة والسماحة والشجاعة والحلم والعلم...»[3].

٤- الإمام علي عليه السلام عيبة علم الرسول صلى الله عليه وآله

أخرج ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق عن ابن عباس قال: «علي عيبة علمي»[4].

٥- الإمام علي عليه السلام يعلم ظاهر القرآن وباطنه

أخرج القندوزي الحنفي في ينابيع المودة عن ابن مسعود أنه قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف له ظهر وبطن، وأن علياً عليه السلام علم القرآن ظاهره وباطنه»[5].

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص ٣٠٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج١ ص٢٧٦؛ جواهر المطالب: أحمد بن محمد الدمشقي الشافعي: ج١ ص٣٤٣؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص ٨٠؛ ج٣ ص٤٠٨.

(٣) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: ابن المغازلي ص٢٩٥، ط٢.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٣٨٥، وكذا جاء في الكامل: ج٤ ص١٠١؛ ميزان الاعتدال: ج٢ ص٣٢٧؛ فيظ القدير في شرح الجامع الصغير: ج٤ ص٤٦٩.

(٥) ينابيع المودة، القندوزي ج١ ص٢١٥، ٢٢٣، ج٣ ص١٤٦.

هل أن أهل البيت عليهم السلام يعلمون الغيب؟

إنّ جدلية العلم بالغيب من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام من الجدليات التي اتخذها المناوئون ذريعة للنيل من مذهب الشيعة الاثني عشرية وهذه الجدلية قائمة على مغالطة واضحة.

وجه المغالطة

محصل ومنشأ هذه المغالطة وجود بعض الآيات القرآنية التي تنفي علم الغيب عن الأنبياء، كما في الآية الكريمة: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[1] وكذا قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[2].

إذن على ضوء هذه الآيات يتبين عدم اطّلاع الأنبياء مطلقاً على الغيب، وأن علم الغيب مختص بالله تعالى.

والمغالطة المخبوءة في هذا الاستدلال هو أن المستدل بالآيات على نفي علم الغيب عن الأنبياء كما تقدم اقتصر على بعض الآيات، بل في آية واحدة اقتصر على صدر الآية وطرح ذيلها، مع أن هذا الأسلوب من التعامل مع القرآن الكريم من الوقوف على آية واحدة فقط، أو صدر آية وطرح ذيلها، أو غض النظر عن الآيات الأخرى أسلوب يخالف حتى

(١) الأحقاف: ٩

(٢) الأنعام: ٥٠.

أسلوب المحاورات العرفية؛ فإن المتكلم لا يصح نسبة الكلام إليه إلاّ بعد ملاحظة مجموع كلامه، ولبيان ذلك نقول:

إنّ صدر الآية وإن كان يحكي قول النبيﷺ بأنه لا يعلم الغيب، إلاّ أنه ورد في ذيلها استثناء ـ وهو الذي أغفله المستشكل ـ وهو قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، فالنبيﷺ يريد القول بأن علم بالغيب بنحو الاستقلال مختص بالله تعالى ولا يشاركه أحد في ذلك قط، بل يستحيل أن يشاركه فيه أحد، ولكن قد يفيض الله تعالى من علوم الغيب على بعض عباده كالأنبياء والمرسلين والأئمةعليهم السلام، ولا ينافي ذلك كونهمعليهم السلام مخلوقين، فقراء إلى الله تعالى، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله، وهذا لا ينافي استقلاله تعالى بعلم الغيب، وهذا ما تكفلت ببيانه آيات كثيرة منها:

١- قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا

(١) الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) النساء: ١٦٣.

(٣) الأنعام: ٥٠.

كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، وغيرها هذه الآيات مما يشاركها في هذا المعنى، من هنا قال الآلوسي في تفسيره للآية المباركة ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّـهُ﴾[٢]: «لعل الحق أن يقال إن نفي علم الغيب عن غيره جلّ وعلا، هو ما كان للشخص بذاته أي بلا واسطة في ثبوته لهم، وما وقع للخواص ليس من هذا العلم المنفي في شيء، وإنما هو من الواجب عزّ وجلّ إفاضة منه عليهم بوجه من الوجوه، فلا يقال إنهم علموا بالغيب بذلك المعنى [يعني الاستقلال]، فإن ذلك كفرٌ، بل يقال إنهم أُظهروا وأُطلعوا على الغيب»[٣].

وهذا المعنى يلتقي مع ما أُثر عن أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنا فلا نعلم»[٤] وهو عين معنى الآية، هي قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[٥] ولا شك أن الرسول هو المرتضى، وأهل البيت عليهم السلام ورثته.

---

(١) هود: ٤٩.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) تفسير روح المعاني، الآلوسي: ص٩.

(٤) أصول الكافي، الكليني: ج١ ص٢٥٦، بصائر الدرجات، الصفار: ص٥٣٣.

(٥) الجن: ٢٦ – ٢٧.

وحاصل ما تقدم:

إنّ الآيات الدالة على اختصاص علم الغيب به سبحانه، هو ما يليق بساحة الواجب الذي لا يشاركه فيه أحد، وهو العلم الذاتي بالاستقلال والأصالة، بل هذا النوع من العلم يمتنع أن يشاركه أحد فيه، لاستلزامه الشرك وتعدد الواجب الغني، فإطلاع غير الله تعالى إنما يكون بالتبع، نظير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1] الذي يكون ظاهراً في أن التوفي منحصر بالله تعالى، مع أنّه تعالى أسنده إلى ملك الموت في موارد، وإلى رسله في موارد أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[3].

إذن لا إشكال في علم النبي صلى الله عليه وآله بالغيب بإذن الله تعالى وفضله، بل هنالك موارد لا يمكن التغاضي والتغافل عنها، كالتي أخبر النبي صلى الله عليه وآله عن بعضها بما يتعلق بالمغيّبات، كما تقدمت الإشارة إليه.

أهل البيت عليهم السلام يعلمون الغيب

بعد أن تبين أن المراد بعلم الغيب الممتنع هو العلم بالأصالة والاستقلال، وهو خاص بالله تعالى، وأمّا العلم بالغيب بإذن الله تعالى وبمشيئته وبإفاضته على من يرتضيه فلا إشكال فيه، يثبت على هذا الأساس أن النبي صلى الله عليه وآله إنّما يعلم الغيب بإذن الله تعالى ومشيئته.

---

(١) الزمر: ٤٢.
(٢) السجدة: ١١.
(٣) الأنعام: ٦١.

وعلى ضوء ما تقدم من أنّ أهل البيت هم ورثة رسول الله ﷺ ـ كما أشرنا إليه ـ يثبت علمهم عليهم السلام بالغيب بإنباء الرسول ﷺ بذلك، وقد ورد في الأثر إخبار أمير المؤمنين علي عليه السلام بالغيب في مواطن متعددة، منها:

أولاً: إخباره عليه السلام بقتل «ذي الثدية» من الخوارج وعدم عبور الخوارج النهر، بعد أن قيل له قد عبروا[1].

ثانياً: إخباره بمقتل ولده الحسين عليه السلام لما اجتاز أرض كربلاء، حيث بكى عليه السلام وقال «ههنا مناخ ركابهم وههنا موضع رحالهم وها هنا مهراق دمائهم فتية من آل محمد ﷺ يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض»[2].

ثالثاً: قوله عليه السلام قبل قتاله الفرق الثلاث:«أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» والمقصود من هؤلاء هم أصحاب الجمل وأصحاب معاوية وخوارج النهروان، الذين قاتلهم في الجمل وصفين والنهروان، فقاتلهم عليه السلام وكان الأمر كما أخبر به عليه السلام[3].

رابعاً: إخباره بملك معاوية من بعده، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص لحرب البصرة، وإخباره بمن يقتل من أصحابه أو يصلب، وإخباره عن مقتل عبد الله بن الزبير، وإخباره عن هلاك أهل

(١) مروج الذهب، المسعودي: ج٢ ص ٤٢٥، الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣ ص ٣٤٧، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٩ ص١١٩.

(٢) ذخائر العقبى: ص٩٧؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج٢ ص١٨٦؛ وانظر شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ج٣ ص ١٦٩ – ١٧١.

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأمثير: ج٥ ص١١٤؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص٣٣٨؛ جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، ابن الدمشقي: ج٢ ص٨١.

البصرة بالغرق، وإخباره عن النفس الزكية ونحوها[١].

خامساً: قال الحافظ الجويني في فرائد السمطين: «الإمام الثامن [علي بن موسى الرضا] مظهر خفيات الأسرار، ومبرز خبيات الأمور... والواقف على غوامض السر المكتوم والمخبر بما هو آتٍ وعمّا غبر ومضى والمرضي عند الله..»[٢].

هل الاعتقاد بعلم النبي وأهل بيته بالغيب غلو؟

عرّفوا الغلو: بأنه مجاوزة الحد، يقال غلا فلان في الدين غلواً تشدد حتى تجاوز الحد[٣]، وكل من تجاوز حد الاعتدال وغلا، يصح لُغوياً تسميته بالمتطرف، جاء في المعجم الوسيط في معنى تطرف «تجاوز حد الاعتدال ولم يتوسط»[٤].

وقد عرّف ابن تيمية الغلو شرعاً «بأنه مجاوزة الحد بأن يزاد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق»[٥].

وجاء في فتح الباري:«إذ أن الغلو هو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد»[٦].

وبذلك تبين أن الغلو هو تجاوز الحد الذي حدده الله تعالى ورسوله

(١) شرح نهج البلاغة: ج٧ ص٤٧-٤٩.
(٢) فرائد السمطين: ج٢ ص١٨٧.
(٣) انظر: الصحاح للجوهري مادة (غلا) واللسان لابن منظور (غلو).
(٤) المعجم الوسيط: مادة (طرف).
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية: ج١ص ١٠٦.
(٦) فتح الباري، ابن حجر: ج١٣ ص٢٣٤.

للشيء، فالمغالي هو الذي يتجاوز ما حدده الله ورسوله لذلك الشيء اتّباعاً للهوى، وخروجاً عن الحق إلى الباطل، بحيث يصفه بوصف لم يسبق أن يصفه الله ورسوله به من غير دليلٍ عقلي عليه.

وعلى ضوء ما سلف هل يمكن إطلاق الغلو على مَن قال: إن النبي صلى الله عليه وآله أخبر بالمغيبات كما تقدم إثبات ذلك؟ وهل من الغلو أنه صلى الله عليه وآله أعلم وأفضل الأنبياء السابقين؟ وهل من الغلو أن نقول: إن الله تعالى اصطفاه واختاره؟

وهل من الغلو أن نقول: إن علم أهل البيت من علم النبي صلى الله عليه وآله ورّثهم إياه كما ثبت ذلك في جملة من الروايات المتضافرة؟

هل تعظيم الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته من الغلو؟

ولكي تكون الإجابة واضحة بعيدة عن الملابسات، ينبغي أن نعرض هذا السؤال على الشريعة الإسلامية:

وبدءاً نقول: إنّ الذي نلمسه من الشريعة هو أنه ليس كل تعظيم وإكبار واحترام يكون تأليهاً للشخص المعظَّم، وغالباً ما نجد أن الأمر بتعظيم واحترام هذه المخلوقات مشفوع ببيان السبب من وراء ذلك التعظيم، وهو أن نفس الإعظام والإكبار بأمر من الله لمخلوق معين هو طاعة لله تعالى وتعظيم له، ومن استكبر وأبى ورفض تعظيم من أمر الله تعالى بتعظيمه يعد عصياناً لله تعالى وإنكاراً عليه.

وهذا ما يتجلى واضحاً من أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، فهو إعظام لآدم بأمر منه تعالى، وحاشا لله تعالى أن يشرك أحداً في كبريائه.

إذن إعظام الملائكة لآدم إنما هو إعظام لله تعالى؛ لأنه متسبب عن أمره تعالى، ولذا نجد أن الله جعل مصير إبليس مرهوناً بإعظام آدم والسجود له، فرفض إبليس لإعظام آدم يعدّ استكباراً على الله تعالى، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وهذا الأمر يكشف عن حقيقة مهمة جداً على صعيد العقيدة أو الإيمان، وهي أن تعظيم أولياء الله تعالى يعتبر طاعة وامتثالاً لأوامر الله عزّ وجلّ، وما إبليس إلاّ مثل ضربه الله تعالى للذين ينكرون ذلك؛ إذ لم يكن عصيان إبليس لربّه إنكاراً لتوحيده تعالى.

ومن هنا فإن الروايات المختلفة لدى الشيعة والسنة تشير إلى أنّ كفر إبليس لم يكن كفر شرك كما تقدم؛ لأنه لم يعبد غير الله، وإنّما كان جحوده واستكباره على الله عزّ وجلّ في توحيده في مقام الطاعة، وقد ورد في بعض الروايات أنه طلب من الله تعالى إعفاءه من السجود لآدم عليه السلام، وسوف يعبده عبادة لا نظير لها، وكان الجواب من الحق تعالى هو: «إنّي أحب أن أُطاع من حيث أُريد»[2]، وفي رواية أُخرى: «إنما أُريد أن أُعبد من حيث أُريد لا من حيث تُريد»[3].

ومن موارد أمر الله تعالى بتعظيم مخلوقاته، أمره تعالى بتعظيم النبي صلى الله عليه وآله، وقد ورد ذلك في آيات عديدة:

---

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ج٢ ص٢٦٢، وج١١ ص٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ج١١ ص١٤١.

منها: قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(١)، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: تُعَزِّرُوهُ: تجلوه، وقال المبرد: تُعَزِّرُوهُ: تبالغوا في تعظيمه(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وليست هذه الأوامر من الله تعالى إلاّ لبيان وجوب احترام النبي ﷺ وتعظيمه، وقد نقل القاضي عياض أن هذه الآية نزلت في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر بين يدي النبي ﷺ واختلاف جرى بينهما، حتى ارتفعت أصواتهما(٤)، فهنا يأمر الله تعالى بوجوب إعظام النبي ﷺ وتوقيره، وأن ترك الأدب بين يدي رسول الله ﷺ يؤدي إلى حبط العمل، والخروج عن ربقة الإيمان؛ ولذا ورد عن الفريقين أن الشاتم للنبي ﷺ أو الذي يستهزئ به ﷺ يقتل، ويحكم عليه بالكفر.

ومنها: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٥) وهذه الآية صريحة في وجوب التعظيم والخضوع

---

(١) الفتح: ٩.

(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٣٥. ط بيروت ـ دار الفكر، ١٤٠٩هـ

(٣) الحجرات: ٢ – ٤.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٣٦.

(٥) الحجرات: ١.

بين يدي الرسول الأكرم ﷺ.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ ونقل القاضي عياض أن معنى ذلك: أن لا تسابقوه بالكلام، وتُغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم بعضاً، ولكن عظّموه ووقّروه بأشرف ما يحب أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبي الله[1].

وقد بلغ الأمر في شدة تعظيم الرسول الأكرم ﷺ من أهل البيت عليهم السلام أن مالك بن أنس قال: «لقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرّ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلاّ على طهارة، وقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إمّا مصلياً، وإمّا صامتاً، وإمّا يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عزّ وجل»[2]، وكان مالك نفسه إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه[3]، إلى غير ذلك من إعظام المسلمين للنبي ﷺ والتبرك به بما لا يسع المقام ذكره.

تعظيم أهل البيت عليهم السلام جذره قرآني

إنّ التعظيم الإلهي لأهل البيت عليهم السلام يمكن أن نلمسه من خلال عدة إضاءات قرآنية في آيات متعددة كما في آية المباهلة التي أمر الله تعالى نبيه فيها بأن يباهل النصارى بهؤلاء الخمسة، فهم عليهم السلام شركاء للنبي ﷺ في

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٣٥ - ٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ج٢ ص٤٢.

إثبات أحقية وصدق رسالتهﷺ، وكذا آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وآية المودة: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ونحوها.

إذن القرآن الكريم يعظم هؤلاء النخبة من البشر وهم الأئمة المطهرون.

فضلاً عن الروايات الكثيرة التي تعظم أهل البيتعليهم السلام وتأمر المسلمين بذلك، وإليك بعضها:

منها: قولهﷺ: «إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله عزّ وجلّ فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم في أهل بيتي، أذكركم في أهل بيتي، أذكركم في أهل بيتي»[1]. ومن الواضح أن تكرارهﷺ من قول: (أذكركم في أهل بيتي) ثلاث مرات يدل بوضوح على وجوب تعظيمهمعليهم السلام.

ومنها: ما أخرجه الخوارزمي في مناقبه عن أمّ سلمة أن رسول اللهﷺ قال لها: «قومي فافتحي له الباب، فقالت: يا رسول الله من هذا الذي بلغ من خطره ما أفتح له الباب فأتلقاه بمعاصمي، وقد نزلت فيّ آية في كتاب الله بالأمس؟ فقال لها كالمغضب: إن طاعة الرسول طاعة [الله] ومن عصى الرسول فقد عصى [الله] إن بالباب رجلاً ليس بالنزق ولا بالخرق، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ففتحت له الباب، فأخذ بعضادتي الباب

(١) صحيح مسلم، مسلم: ج٧ ص١٢٣؛ مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ٣٦٧، وانظر: مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٦٣.

حتى إذا لم يسمع حساً ولا حركة وصرت إلى خدري استأذن فدخل، فقال رسول الله ﷺ: أتعرفينه؟ قلت: نعم، هذا علي بن أبي طالب، قال صدقت، سحنته من سحنتي، ولحمه من لحمي، ودمه من دمي، وهو عيبة علمي، اسمعي واشهدي»[١].

ومنها: قال الرسول الأكرم ﷺ: «فلا تقتلوهم ولا تقهروهم، ولا تقصروا عنهم، وإني سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني أن يردوا عليَّ الحوض كهاتين، وأشار بالمسبحتين، ناصرهما إليّ ناصر، وخاذلهما إليّ خاذل، ووليهما إليّ والي، وعدوهما لي عدو»[٢].

ومنها: قول رسول الله ﷺ قال: «من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهداً»[٣].

ومنها: قول رسول الله ﷺ: «استوصوا بأهل بيتي خيراً، فإني أخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار»[٤].

ومنها: عن ابن عمر قال: كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: «اخلفوني في أهل بيتي»[٥].

ومنها: ما ورد في شرح نهج البلاغة عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أنه قال: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا،

---

(١) المناقب، الخوارزمي: ص ٨٧

(٢) نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص ٢٣٤.

(٣) ذخائر العقبى، أحمد بن عبد الله الطبري: ص ١٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٨.

(٥) المعجم الأوسط، الطبراني: ج ٤ ص ١٥٧؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج ١ ص ٥٠.

أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى، إن الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم»[١].

ومنها: ما أخرجه الحاكم الحسكاني أن الحسن بن علي عليه السلام خطب الناس حين قتل علي عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «وساق كلامه عليه السلام إلى أن قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن الوصي وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال لنبيه: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت»[٢].

ولا يخفى ما في هذه الروايات من دلالة واضحة وصريحة على عظمة ومكانة أهل البيت عليهم السلام ووجوب تعظيمهم وإكرامهم وتوقيرهم.

فلسفة هذا التعظيم

عند التأمل في السرّ الذي يكمن وراء أمر الله بتعظيم بعض مخلوقاته، وما هي الحقيقة التي تنضوي تحت هذا الأمر، نجد أن هذا الأدب يصب في دائرة التوحيد، بحيث إن الاعتقاد بالنبي والإمام وتوقيرهما وتعظيمها هو إعظام لله تعالى، وتوحيد له عزّ وجلّ، وهو عين طاعة الله تعالى

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ٩ ص ٨٤
(٢) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج ٢ ص ٢٠٦؛ وانظر: ذخائر العقبى، الطبري: ص١٣٨.

وتوحيده؛ لأنه نابع عن الانقياد للأوامر الإلهية، وهذا بنفسه يعد دليلاً عقلياً على وجوب إعظام الأنبياء لا سيما خاصتهم، وهو نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بحدود ما أمرنا به الله تعالى.

ومن هنا نجد أن استكبار إبليس ـ كما مرّ سابقاً ـ وعدم سجوده لآدم عليه السلام كان سبباً لخروجه من رحمة الله، وموجباً لكفره، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١] فعدم إعظامه واحترامه لآدم عليه السلام كان موجباً لحبط عمله وخروجه من ربقة الإيمان بالله تعالى إلى الكفر.

ومما تقدم يتحصل أن تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته بما وصفهم الباري عزّ وجلّ ليس من الغلو بشيء، بل يعد امتثالاً لما أمرنا به الله ورسوله.

أهل البيت عليهم السلام وظاهرة الغلو

لقد واجه أهل البيت عليهم السلام ظاهرة الغلو بقوّة وشدّة، وعبّأوا كل إمكاناتهم وقدراتهم من أجل تقويض أركان الغلو، معتبرين الغلو أحد أقسام الكفر الذي يجب محاربته، ومحذرين شيعتهم وأتباعهم من مغبة الانخراط في مخاطر العقيدة الفاسدة، وقد ورد في هذا السياق جملة من الأخبار منها:

ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلو

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج١ ص٢١٥ وص٣٤٧.

والشك والشبهة»[(١)].

كذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لعن الله مَن قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، لعن الله مَن أزالنا من العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا»[(٢)].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال:«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدونهم، فإن الغلاة شرّ خلق الله، يصغرون عظمة الله، ويدّعون الربوبية لعباد الله، والله إن الغلاة شرّ من اليهود والنصارى والمجوس الذين أشركوا»[(٣)].

موقف علماء الشيعة من الغلاة

أما موقف ورأي علماء الشيعة في الغلاة، فقد كان موقفاً ورأياً مستمدّاً من بيانات أهل البيت عليهم السلام، حيث كان موقفاً يتّسم بالشدّة والرفض لمثل هذه الظواهر الفاسدة.

فعلى سبيل المثال نجد الشيخ المفيد وسم الغلاة بالكفّار الضلاّل، حيث قال:«والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته إلى الأُلوهية والنبوّة ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد، وخرصوا عن القصد، وهم ضلاّل كفّار حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم

(١) أصول الكافي، الكليني: ج٢ ص٣٩١.
(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ج٢٥ص٢٩٧.
(٣) الأمالي، الطوسي: ص ٦٥٠ ح١٣٤٩/ ١٢.

بالكفر والخروج عن الإسلام»[1].

وقد وصف الشيخ الصدوق الغلاة بأنهم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس، حيث قال: «اعتقادنا في الغلاة والمفوضية أنهم كفار بالله تعالى، وإنهم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن جميع أهل البدع والأهواء المعتلة»[2].

أما الشيخ كاشف الغطاء فقد برّأ الأئمة عليهم السلام والشيعة من هؤلاء الغلاة، حيث قال: «أما الشيعة الإمامية وأئمتهم فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم»[3] وقال أيضاً «أما الشيعة الإمامية... ويبرأون من تلك المقالات ويعدّونها من أشنع [اشكالات] الكفر والضلالات، وليس دينهم إلاّ التوحيد المحض، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق»[4].

الخلاصة:

١- اتضح أن حقيقة وجوهر علم النبي صلى الله عليه وآله سنخ علم خاص يفترق عن علوم سائر البشر التي تسمى بالعلوم الحصولية.

وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة إلى جوار حقيقة أُخرى، شاطرت الروايات الشريفة القرآن في النصّ عليها، وهي أفضلية نبيّنا صلى الله عليه وآله على كل الأنبياء، وأنه أعلمهم على الإطلاق.

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية، المفيد: ص١٣١.
(٢) اعتقادات الإمامية، الصدوق: ص٩٧.
(٣) أصل الشعة وأصولها، كاشف الغطاء: ص١٧٣.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧٧.

٢- وقد اتضح أيضاً أن علم الغيب وإن كان منحصراً بالله تعالى إلاّ أن هناك آيات عديدة تصرّح بأن الله تعالى يفيض هذا العلم على من ارتضى من عباده المنتجبين، وعلى هذا الأساس يتضح أن علم الله بالغيب بنحو الاستقلال لا يشاركه فيه غيره، أما علم الأنبياء فهو بالتبع، أي بإرادة الله تعالى وعطائه لهم، وقد تقدّمت عدّة شواهد قرآنية وروائية دلّت على علم الأنبياء بالغيب.

٣- كذلك ثبت أن علم أهل البيت عليهم السلام امتداد لعلوم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأنهم ورثته بروايات متضافرة، فتكون حقيقة علمهم عليهم السلام هي من سنخ علم النبي صلى الله عليه وآله، وهو سنخ علم إفاضي خاص يفيضه الله تعالى على بعض عباده.

٤- ثبت أن الإمام هو خليفة الله تعالى في الأرض، فلا بد أن يتوفر على علم خاص يؤهّله لأداء مسؤوليته، وتمثيل الله تعالى في الأرض.

٥- يتجلى في عدة من الآيات أن علم الكتاب إرث للمصطفين المنتجبين من الله تعالى، ولا ريب أن أهل البيت عليهم السلام ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم الذين اصطفاهم واختارهم.

وإن هذه الوراثة أعمّ من كونها وراثة مادية، أو وراثة نورية جعلها الله تعالى في صلب الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1].

---

(١) مريم: ٨٥

٦- إن الاصطفاء والاختيار الإلهي إنما جاء وفقاً للعدالة الإلهية، ووفقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١)، والسبب في ذلك هو أن الاصطفاء والاختيار ناشئ من علمه تعالى بحقائق الأشياء، وأن علمه محيط بكل شيء، فالله تعالى لعلمه السابق بما للمصطفين من قدرة على تحمّل المسؤولية، وإرادتهم لذلك وانصهارهم في ذات الله تعالى، اختارهم الله تعالى دون غيرهم من الناس، وهذا منطق عقلائي يمارسه العقلاء في حياتهم اليومية.

٧- إن الذرية من الآباء والأجداد من الأمور التي لها مدخلية وتأثير على شخصية الإنسان ومزاجه، ولذا شاء الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأنبياء والمرسلين والأئمة المصطفين من ذرية واحدة، من أصلاب شامخة وأرحام مطهرة، وهذا ما نلمسه من أخبار الطينة الواردة في كتب الفريقين.

وذكرنا أن لظاهرة الاختيار والاصطفاء وجعلهم في ذرية واحدة أبعاداً مهمة لها أثر كبير في حفظ الرسالة، منها:

البعد التاريخي: حيث نجد أن اختيار الله للأوصياء يتركز على أولئك المقربين للأنبياء من أقاربهم أو ذرياتهم، أو ممن يرتبطون بالنبي والرسول ارتباطاً نَسَبياً.

البعد الرسالي: وهو ما يترتب على الذرية من تحقيق مصالح الرسالة، وإعداد أفراد صالحين يتحملون أعباءها الثقيلة؛ وذلك لأن عمر الرسول يكون أقصر من عمر الرسالة، فتحتاج لمن يقوم بأعبائها ومسؤولياتها،

(١) الحجرات: ١٣.

ومما لا شك فيه أن الإعداد الأفضل لا يتم إلا في داخل البيت الرسالي ومن الأفراد المقربين نَسَباً من صاحب الرسالة.

٨- إن أهل البيت هم ورثة الأنبياء، واستدللنا على ذلك بأدلة متعددة.

٩- أثبتنا في الجواب عن هذه الشبهة أعلمية أهل البيت عليهم السلام على سائر البشر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1]، ولا شك أن المراد بمن عنده علم الكتاب هو «الإمام علي بن أبي طالب» كما في الروايات الواردة من طرق الفريقين.

١٠- قلنا إن حقيقة علم الكتاب عبارة عن سنخ علم خاص، يمنح لصاحبه القدرة على التصرف في الكون كما في تصرف آصف بن برخيا، حيث تمكن من نقل عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس بأقل من طرفة عين، مع أنه لم يكن عنده إلاّ بعض علم الكتاب، كما هو مقتضى نص الآية المباركة: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2].

١١- بيّنا أيضاً اختصاص أهل البيت عليهم السلام بعلم الكتاب، وهو ما تشير إليه بعض الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[4]، فالقرآن فيه تبيان كل شيء يحمله ثلة مطهّرة من الأمة، وهم أهل

---

(١) الرعد: ٤٣.
(٢) النمل: ٤٠.
(٣) النحل: ٨٩.
(٤) العنكبوت: ٤٩.

البيت عليهم السلام، كما هو مقتضى حديث الثقلين.

مضافاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[١]، وهذا يدلنا على حقيقة مهمة وهي أن حقيقة وكنه القرآن لا يمكن أن يصلها إلا المطهّرون، وهم أهل البيت عليهم السلام كما هو مقتضى جملة وافرة من الروايات.

أهل البيت عليهم السلام وعلمهم بالغيب

ذكرنا أن المراد بعلم الغيب هو علم خاص بالله تعالى بالأصالة والاستقلال، ولا مانع من إفاضته على غيره من عباده فيعلمون الغيب بإرادته ومشيئته تعالى، وهنالك روايات عديدة تشهد على أن أهل البيت أخبروا ببعض المغيّبات.

قلنا إن الغلو هو مجاوزة الحدّ الذي حدّده الله تعالى ورسوله، وعلى هذا الأساس فلا يمكن إطلاق الغلو على من يعتقد أن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت يعلمون الغيب بإذن الله تعالى وتبعاً لإرادته، لأنه لا يعدّ تجاوزاً لحدود الله تعالى، بل موافقاً لها طبقاً للآيات والروايات.

هل التعظيم للرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته غلو؟

اتضح أن تعظيم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ليس من الغلو، لأن احترام وتعظيم رسول الله وأهل بيته عليهم السلام لا يعدّ تجاوزاً لحدود الله تعالى

---

(١) الواقعة: ٧٧ – ٧٩.

أبداً؛ وذلك لأنه تعالى هو الذي أمرنا بتعظيم رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بنصّ القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أما فلسفة هذا التعظيم، فهو أن الاحترام والتعظيم يعدّ من الأدب مع هذه الثلة الطاهرة، وتركه مع أمر الله به يوجب الكفر، كما هو الحال بالنسبة لإبليس حيث أدّى به استكباره، وعدم تعظيمه لنبي الله آدم عليه السلام - بعد الأمر الله بتعظيمه والسجود له - إلى حبط أعماله وخروجه من ربقة الإيمان بالله تعالى.

هذا وقد واجه أهل البيت عليهم السلام ظاهرة الغلو بشدة وقوة وعبّأوا جهدهم من أجل تقويض أركانه، معتبرين الغلو أحد أقسام الكفر الذي يجب محاربته، وفي هذا المقام يوجد عدد وافر من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام في التشديد والإنكار لهذه الظاهرة.

ووقف علماء الشيعة موقفاً صارماً من الغلاة، مستمدّين ذلك من توجيهات أهل البيت عليهم السلام في محاربة هذه الظاهرة.

ميزان قبول الأعمال

الشبهة:

الأعمال لا تقبل إلاّ بولاية أهل البيت عليهم السلام.

الجواب:

تمهيد:

من المعالم البارزة في العقيدة الوهابية اتهام الكثير من الطوائف والمذاهب الإسلامية بالشرك والكفر، وهذا أشهر من نار على علم.

وصاحب الشبهة يريد أن يتهم المذهب الشيعي بذلك الداء العضال الذي ابتلى به المذهب الوهابي، فيقول: إن الشيعة يحكمون بكفر وهلاك جميع المسلمين؛ لعدم قبول أعمالهم.

مع أن كتب علماء الشيعة قد صرحت بإسلام من تشهد الشهادتين، ولم يحكموا إلاّ بهلاك المبغض لقربى النبي صلى الله عليه وآله وهم أهل البيت عليهم السلام تبعاً للآيات، والروايات؛ كما هو مفاد آية المودة: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

الولاية في نظر أعلام السنة

لقد حكم أكثر مفسري أهل السنة بأن المودة الواجبة هي عدم البغض مع درجة من درجات الحب ولو أدنى درجاتها، ومع فقدانها يكون الشخص مجاهراً بالرد على الله ورسوله، وهذا أيضا ما يؤكده حديث الثقلين المتواتر، ولذا فإن جميع المسلمين هم من المحبين لأهل

البيت عليهم السلام، وهذه هي أدنى درجات الولاية، التي تحفظ للمسلم هويته الإسلامية، وترفع عنه حتمية الهلاك، بخلاف المبغض الذي نصت الروايات الكثيرة على هلاكه.

قبول الأعمال بالولاية

أمّا الحقانية والمقبولية التامّة للأعمال بالولاية، فهو حالة طبيعية ومنهجية يستدعيها نفس تعدد المذاهب، وكون هذا المذهب في قبال مذهب آخر، وهذا ما يقرّه علم المناهج قديماً وحديثاً، فصاحب كل منهج وعقيدة يرى أن النتائج الصحيحة والمقبولة لابد أن تكون ضمن بوتقة المنهج العقيدي والرؤية الكونية التي يرى أنها هي الحق، فالمنظومة الاعتقادية الصحيحة هي التي تحتوي على أسس وضروريات الاعتقاد، وهي الكلم الطيب الذي يرتفع بالعمل وتكون الأعمال مقبولة بسببه، وإلاّ فما هو سبب تعدد المذاهب الاعتقادية؟ !!.

وهذا هو مضمون ما جاء متواتراً عن النبي صلى الله عليه وآله من افتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها هي المحقّة[1]، وقد جاء في صحيح مسلم:

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج١ ص٣٥٤ وج٢ ص١٤٨ وص٤٨٢؛ راجع تفسير القرطبي، القرطبي: ج٢ص٩، ج٤ ص١٦٠، ج٧ص ١٤١، ج١٢ ص١٢٩، المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج١ ص٦ وص١٢٨؛ المستدرك على الصحيحين: ج١ ص١٢٨، وج٥ ص ٨٣٢ قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وسنن الدارمي: ج٢ ص٣١٤، ج٨ ص ٢٥١، وكتاب الأحاديث المختارة: ج٧ ص ٩٠ ح ٢٤٩٩ و ح ٢٥٠٠ وعبر عن الأول بأن إسناده صحيح، وعن الثاني أن إسناده حسن، ومجمع الزوائد: ج١ ص ١٨٩ وقال: أن رواته رواة الصحيح إلا واحد وقد وثقه، مصباح الزجاجة: ج٤ ص ١٨٠، وسنن البيهقي ج ١٠ ص٢٠٨، وسنن أبي داود ج٢ ص ٣٩٠ ح٤٥٩٦ و٤٥٩٧ باب شرح السنة، مسند أحمد: ج٤ ص١٠٢، ومسند أبي يعلى، أبو يعلى

«عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يكون في أمتي فرقتان فيخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهم بالحق»[1].

ونحن نعتقد أن الولاية الكاملة والحقّة، التي أمر الله تعالى ورسوله بها، من حب وطاعة وتسليم وانقياد، هي ميزان قبول الأعمال بنحو الاستحقاق.

والولاية في أدنى درجاتها وهي المحبة فقط، وعدم البغض موجودة عند جميع المسلمين وأما من كان مبغضاً لأهل البيت عليهم السلام فلا يمكن الحكم بإسلامه لرفضه وردّه لصريح القرآن، وتلك الولاية مقبولة بمقدار أن تحفظ للشخص إسلامه وتنجيه من حتمية الهلاك في النار، ولابد أن لا يرتجى منها أن ترتقي إلى مستوى المقبولية التامة الناتجة عن الولاية الكاملة والصحيحة التي هي جزء من الأصول الاعتقادية بحسب اعتقادنا.

وهذا هو معنى ما جاء في بعض الروايات كما في الخصال، عن أبي عبد الله عليه السلام عن جده عن علي عليه السلام قال:«إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربِّ سلّم شيعتي ومحبيّ وأنصاري ومن تولاّني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش، قد أجيبت دعوتك وشفّعّت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاّني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو

الموصلي: ج١٠ ص٣١٧ وص٥٠٢، ومسند الشاميين، الطبراني: ج٢ ص١٠٨؛ افتراق الأمة، محمد بن إسماعيل الصنعاني: ص٤٨؛ المعجم الكبير، الطبراني: ج٨ ص٢٧٣ وج١٨ ص٥١ وص٧٠؛ سنن الترمذي، الترمذي: ج٤ ص١٣٤ — ١٣٥ ح٢٧٧٨ ح٢٧٧٩ باب افتراق هذه الأمة.

(١) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص١١٣.

قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن شهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت»[1].

إذن، كما للولاية مراتب ودرجات أدناها الحب وعدم البغض، كذلك قبول الأعمال له مراتب مختلفة بحسب اختلاف درجات الولاية، فعامّة المسلمين الذين يحبون أهل البيت عليهم السلام بمقتضى صريح آية المودة ولا يبغضونهم، لهم درجة من الولاية ودرجة من المقبولية، وأدنى درجات المقبولية كونهم مسلمين وغير محكوم عليهم بحتمية الهلاك الأبدي في النار بخلاف المبغض والمحارب الذي جزمت الروايات بخروجه عن ربقة الإسلام، وهلاكه الأبدي.

روايات الولاية في الكتب السنية

وقد جاء ذلك أيضاً في مجامع أحاديث أهل السنة:

١- أخرج الحاكم في المستدرك، وابن حبان في صحيحه: عن عطية عن أبي سعيد قال: قتل قتيل بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وآله وصعد المنبر خطيباً، وقال:«والذي نفس محمد بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلاّ أكبّه الله عز وجل بالنار على وجهه، رواه جماعة عن إسحاق»[2]، قال الحاكم

(١) الخصال: الشيخ الصدوق: ص ٤٠٨.

(٢) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٤ ص٣٥٢؛ ونحوه صحيح ابن حبان، ابن حبان: ج١٥ ص٤٣٥؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص ٥٤٩ وص ٥٥٠، ونحوه ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام من تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج١ ص١٤٩ ح١٨٣ - ط٢ وقد نقل روايات كثيرة بذلك المضمون فراجع.

هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

٢- وأخرج الحاكم الحسكاني وغيره: عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي لو أن أمتي صاموا حتى صاروا كالأوتاد وصلّوا حتى صاروا كالحنايا، ثم أبغضوك لأكبّهم الله على مناخرهم في النار. رواه جماعة من أصحابنا عن عثمان»[1].

٣- وأيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي لو أن أمتي أبغضوك لأكبهم الله على مناخرهم في النار»[2].

٤- وأيضاً عن أبي إمامة الباهلي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله خلق الأنبياء من شجر شتى وخلقني وعليّ من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلي فرعها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها، فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجى، ومن زاغ هوى، ولو أن عابداً عبد الله ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، ثم لم يدرك محبتنا أهل البيت أكبّه الله على منخريه في النار، ثم تلا ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً إلا الَمَودَةَ في القُرْبى﴾»[3].

وهذه الروايات من طرقنا صحيحة ومتواترة ونؤمن بمضمونها، هذا بالنسبة للمبغض.

---

(١) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص ٥٥٠؛ ونحوه ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١ ص١٥٠ ح١٨٤.

(٢) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص ٥٥١.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص ٥٥٤، والآية ٢٣ من سورة الشورى.

رأي علماء الشيعة في قبول الأعمال

أمّا المحب غير المبغض لأهل البيت عليهم السلام، فله درجة من المقبولية لكنها لا تصل إلى حد ودرجة مقبولية الشيعي المتولّي الناصر لأهل البيت عليهم السلام، وهذا هو مقتضى اعتقادنا بحقّانية مذهبنا، وأن الولاية فيه بمعنى التولّي والنصرة والطاعة والاتّباع والتسليم لهم عليهم السلام، وعلى طبق ذلك حكم محدثونا وفقهاؤنا ومتكلمونا.

قال المجلسي رحمه الله في البحار:«وأما غير الشيعة الإمامية من المخالفين وسائر فرق الشيعة ممن لم ينكر شيئاً من ضروريات دين الإسلام، فهم فرقتان: إحداهما المتعصبون المعاندون منهم ممن قد تمّت عليهم الحجة، فهم في النار خالدون، والأُخرى المستضعفون منهم وهم الضعفاء العقول مثل النساء العاجزات، والبله وأمثالهم ومن لم يتم عليه الحجة ممن يموت في زمان الفترة أو كان في موضع لم يأت إليه خبر الحجة فهم المرجون لأمر الله، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فيرجى لهم النجاة من النار»[١] وليس هذا إلاّ لدرجة من المقبولية لعدم البغض والعناد.

وذكر مراجعنا في كتبهم الفقهية: أن الإسلام هو الإقرار بوحدانية الله تعالى ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وبما جاء به من عند الله تعالى، فالكافر هو الذي لا يتديّن بذلك، إما لعدم اعتقاده بدين أصلاً أو لتدينه بدين غير الإسلام بالمعنى المذكور، وأن إنكار الضروري من الدين إن رجع إلى عدم الإقرار به بعد العلم بإنزاله من قبل الله تعالى أو إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وآله في

(١) بحار الأنوار، المجلسي: ج ٨ ص ٣٦٣.

تبليغه به بعد العلم بتبليغه له كان موجباً للكفر، وإن رجع إلى عدم العلم بثبوته في الدين أو تبليغ النبيﷺ لم يوجب الكفر، كما إذا نشأ من الجهل بتحريمه، أو من شبهة اعتقد معها عدم التحريم[١].

وقال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: فمن اعتقد بالإمامة بالمعنى الذي ذكرناه فهو عندهم مؤمن بالمعنى الأخص وإذا اقتصر على ترك الأركان الأربعة فهو مسلم، ومؤمن بالمعنى الأعم وتترتب عليه جميع أحكام الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ووجوب حفظه وحرمة غيبته، وغير ذلك، لا أنه بعدم الاعتقاد يخرج عن كونه مسلماً ـ معاذ الله ـ نعم يظهر أثر التدين في منازل القرب والكرامة يوم القيامة، أما في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء، وبعضهم لبعض أكفاء وأما في الآخرة فلا شك أن المسلمين تتفاوت درجاتهم ومنازلهم، حسب نياتهم وأعمالهم، وأمر ذلك وعلمه إلى الله سبحانه، ولا مسوغ للبت به لأحد من الخلق[٢].

والحاصل: هو تفاوت الولاية ودرجاتها وتفاوت المقبولية ودرجاتها إلا المبغضين المعاندين فهم لا خلاق لهم، ولا يقام لهم يوم القيامة وزن، وفي النار هم خالدون.

ولا تعجب من ذلك فإن هذا مقتضى تعدد المذاهب واعتقاد الحقانية في واحد منها؛ ولذا حكم البعض بكفر الشيعة الاثني عشرية؛ لأنهم لا يقدّمون الشيخين، فضلا عمّن يبغضهما، كما جاء ذلك في صحيح سنن

---

(١) راجع كتبنا الفقهية في هذا المجال.
(٢) انظر: أصل الشيعة وأصولها، الشيخ كاشف الغطاء: ص ٩٩.

أبي داود بتعليق الألباني«عن سفيان قال: من زعم أن علياً كان أحق بالولاية، منهما فقد خطّأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ولا أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء»، وقد صححه الألباني[(١)].

فالمذهب الحق له الدرجات العالية من المقبولية، والمذاهب الباطلة بحسب اعتقادنا على فرقتين كما ذكر المجلسي، منهم من هو إلى جهنم وبئس المصير، ومنهم من يُرجى لهم النجاة من النار، وهذه درجة من المقبولية كما أسلفنا. وهذا شيء وحقّانية المذهب شيء آخر.

فالشيعة إذن يقولون بإسلام جميع الطوائف إلاّ النواصب مع أن الوهابية كفّروا الشيعة لكونهم شيعة !!

الخلاصة:

١- اعتماداً على القرآن وروايات نبيناﷺ يتبين أن الولاية لأهل البيت عليهم السلام واجبة على الجميع، وأدنى درجاتها هي المحبة.

٢- صرحت الروايات المتواترة عن النبيﷺ بأن مبغض أهل البيت عليهم السلام من الهالكين، ويكبّه الله على وجهه في نار جهنم.

٣- أما الذي ليس في قلبه ذرة من بغض أهل البيت عليهم السلام، وكان في قلبه درجة من درجات الولاية والمحبة لأهل البيت عليهم السلام، ولم يكن على المذهب الحق فهو المرجى لأمر الله تعالى.

---

(١) سنن أبي داود، أبي داود: ج٣ ص١٢٦.

محتويات الكتاب

الفصل الأول

هل الإمامة مجعولة بالجعل الإلهي؟

الإمامة في القرآن

آية الولاية لا تختصّ بعلي عليه السلام

آية الولاية لا تعني الأولى بالتصرف

كيف تستدل الشيعة بشأن النزول؟

المعروف أن علياً فقير فكيف يتصدّق ؟

آية البلاغ تدل على أنه صلى الله عليه وآله لم يبلغ سابقاً

لا وجود لاسم علي في القرآن

آية التطهير لا تختص بأئمة الشيعة

الفصل الثاني

حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة

الفصل الثالث

غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

ما الفائدة من الإمام الغائب ؟

دعوى المهدوية والسفارة

الفصل الرابع

بطلان دعوى النص على خلافة أبي بكر

الفصل الخامس

عصيان الصحابة

الفصل السادس

العصمة والغلو

مقام الوصي

تأليه الإمام عند الشيعة

الولاية عند الشيعة أهم من التوحيد

علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب غلو

ميزان قبول الأعمال



الحوار والمناظرة من الفنون العريقة وذات الجذور المتأصّلة في التاريخ، وقد أطلعنا القرآن الكريم على حوار جرى بين الله تعالى وبين ملائكته، حينما أراد أن يخلق الإنسان ويجعله خليفة في الأرض، وأنّه فسح المجال أمام الملائكة للإدلاء برأيهم في خلافة الإنسان، كما أعطى الحرية لإبليس عندما أمره تعالى بالسجود لآدم عليه السلام فامتنع، فقال تعالى: (يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) الحجر: ٣٢ ـ ٣٤.

فهذه الحرية في الحوار وإبداء الرأي تعطينا صورة واضحة عن أهمية هذا المبدأ الديني المقدّس الذي تقوم عليه ركائز العلاقة بين الله تعالى وبين مخلوقاته، ولكن من المؤسف أنّ بعض القنوات الفضائية قد أساءت إلى هذا المقدّس الديني والبشري، باستضافتها في الحوار أشخاصاً لا يؤمنون به، بل يرفعون شعار التكفير والقتل والإرهاب بوجه كل من يخالفهم الرأي.

ومن منطلق الشعور بالمسؤولية كانت مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية تتابع ما يجري على تلك القنوات عن كثب وحرص شديدين، لكي تكون هذه المؤسسة المباركة فاعلة في هذا الميدان، ومؤثرة في أداء ما تشعر به من المسؤولية تجاه ما يجري في العالم الإسلامي، فبادرت ـ من خلال قسم البحوث والدراسات ـ إلى دراسة أهم الشبهات العقائدية والإجابة عليها بأجوبة محكمة ورصينة.



www.annajat.us
info@annajat.us

